

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

نموذج رقم : (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات :

الاسم الرباعي : خديجة محمد حبيباني الرقم الجامعي : (٤١٦٩٧٢٢٧)

كلية : اللغة العربية قسم : الدراسات العليا العربية فرع : الأدب

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه في تخصص : البلاغة

عنوان الأطروحة : سورة النساء دراسة بلاغية تحليلية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين ؛ وبعد :

فبعد إجراء التصويبات المطلوبة التي أوصت بها اللجنة التي ناقشت هذه الأطروحة

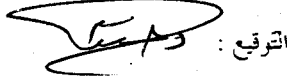
بتاريخ : ٤ / ٩ / ١٤٢٢ هـ ، توصي اللجنة بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة

والله لترفق ،،،

أعضاء اللجنة :

المشرف : عبد العزيز بن إبراهيم ياسين المناقش الداخلي : ذهيل الله محمد صفي المناقش الخارجي : محمد عاي بصامل

التوقيع : 

التوقيع : 

التوقيع : 

يعتمد : رئيس قسم الدراسات العليا العربية

أ.د : سليمان بن إبراهيم العايد

التوقيع :

٤١٢٧



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٤١٢٧

٤٧٣٤



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى بمكة المكرمة
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا

سورة النساء

دراسة بلاغية تحليلية

بحث مقدم من الطالبة

خديجة محمد أحمد البناني

للحصول على درجة التخصص (الدكتوراه)

في اللغة العربية وآدابها (قسم البلاغة)

إشراف

الأستاذ الدكتور / عبد العزيز أبو سريع ياسين

٥١٤٢٢ ٢٠٠١م



بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة : سورة النساء دراسة بلاغية تحليلية . الدرجة العلمية : الدكتوراه .
الطالبة : خديجة محمد أحمد البناني .

لما كان إيماني راسخاً بأن خدمة القرآن من أوجب ما يجب على كل مسلم ، ولما احتوته سورة النساء المباركة من أمور جليلة - صياغة ومعنى - ، ولم أجد من وقف معها هذه الوقفة كان أن قدمت على هذه الدراسة البلاغية التحليلية . وقد استقام البحث في تمهيد وخمسة فصول وخاتمة ، فأما التمهيد فقد أفضت الدراسة الاستقرائية فيه لآراء العلماء أن أظهر وجوه إعجاز القرآن نظمه البلاغي وهذا ما كان أولاً ، أما ثانياً فقد كان حديثاً عن سورة النساء .

وأما الفصل الأول فقد كان دراسة لنظم المفردات في سورة النساء في مبحثين ، المبحث الأول : بلاغة المفردة من حيث هيئتها ، وتحت مطالب أربعة : الأول هيئة التعريف ، والثاني : هيئة التنكير ، والثالث : هيئة الأفراد والتنثية والجمع ، والرابع : هيئة التنكير والتأنيث . والمبحث الثاني : بلاغة المفردة من حيث مادتها ، وتحت أربعة مطالب : الأول : أدوات الشرط ، والثاني : أدوات النفي ، والثالث : حروف العطف ، والرابع : حروف الجر .

أما الفصل الثاني فدرس نظم الجملة في سورة النساء في مبحثين : المبحث الأول : الجملة الخبرية ، وتحت مطلبان ، الأول : من حيث التقديم والتأخير ، والثاني : من حيث الذكر والحذف . والمبحث الثاني : الجملة الإنشائية ، وتحت مطالب خمسة : الأول : الاستفهام ، والثاني : الأمر ، والثالث : النهي ، والرابع : التمني ، والخامس : النداء .

أما الفصل الثالث فهو نظم الجمل والأفكار ، وفيه ثلاث مباحث ، المبحث الأول : التقصر ، والمبحث الثاني : الإيجاز والإطناب ، والمبحث الثالث : الفصل والوصل .

والفصل الرابع يدرس الصور البيانية في ثلاثة مباحث ، المبحث الأول : التشبيه ، ويضم ثلاثة مطالب : الأول : التشبيه المرسل ، والثاني : التشبيه الضمني ، والثالث : التشبيه التمثيلي . والمبحث الثاني : المجاز ، ويضم مطلبين : الأول : المجاز اللغوي ممثلاً في المجاز المرسل والاستعارة ، والثاني : المجاز العقلي . والمبحث الثالث : الكناية ، ويضم مطالب ثلاثة : الكناية عن الصفة ، والكناية عن الموصوف ، والكناية عن النسبة .

أما الفصل الخامس ففيه فنون البديعية ، ويحتوي على مبحثين : المبحث الأول : المحسنات المعنوية ، وفيه مطالب : الطباق والمقابلة والتورية والتوجيه والجمع والتفريق وحسن التقسيم ومراعاة النظير والتناسب والاتلاف والمشاكلة . والمبحث الثاني : المحسنات اللفظية ، وفيه الجناس والسجع ورد العجز على الصدر . أما الخاتمة ففيها مجمل نتائج البحث والتوصيات والمقترحات .

عميد كلية اللغة العربية

المشرف على الرسالة

الطالبة

أ. د. صالح بدوي

أ. د. عبد العزيز أبو سريع ياسين

خديجة محمد أحمد البناني

حفظ

المقدمة

المقدمة :

الحمد لله صاحب الحمد العظيم الكريم المنان ، أحمدك ربي حتى
ترضى ، وأحمدك إذا رضيت ، وأحمدك بعد الرضا ، فأنت أهل للحمد كله
إذ وفقت ويسرت وهديت وأعنت ، فتفضل عليّ بالصفح عن التقصير ،
وبقبول هذا العمل الصغير ، وارزقنا به رضاك وجنتك ، فأنت جواد كريم
واسع العطاء ، وصلّ اللهم على خاتم النبيين والمرسلين ، سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين ، القائل : " اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد "
وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد فقد كانت دراسة القرآن الكريم مُنْاي ومقصدي منذ البواكير
الأولى للدراسات العليا ولا تزال ، وكل تلك السنين التي قضيتها في رحاب
الدراسات القرآنية في مرحلة الماجستير وهذه الدراسة لم تشف غليلي بعد
من هذا النبع الصافي والمورد العذب ، ولا غرو ؛ فإن من تذوق منه قطرة
لا يحتمل البعد عنه البتة ، ذلك أنه كلام رب العالمين .

لقد خضت غمار هذه التجربة في مرحلة الماجستير ، حيث كان
بحثي عن " أسلوب الالتفات في القرآن الكريم " ، وقادنتي تلك الدراسة إلى
الوقوف على ألوان شتى من أساليب العرب في كلامها ، وأوقفتني على
الربون الشاسع بين أسلوب القرآن وتلك الأساليب ، ووثقت تلك الدراسة
صلتي بكتاب الله ، وأكدت في نفسي اعتقاداً راسخاً بأنه لا أجمل ولا أجدر
من أن يقضي المرء عمره في تلك الرحاب العطرة ، وهذا ما دفعني بأن
أحجّ إلى هذا الكتاب مرّة أخرى ، فاخترت سورة النساء لأقوم بدراستها
دراسة بلاغية ، وميدان هذا البحث - مع أنها في كتاب الله الكريم - إلا أن
القول فيه يجب أن يحاط بمحاذير شديدة ، مما أحوجني إلى اللجوء إلى
مصادر متفرقة في علوم القرآن وإعجازه وتفسيره ، وإلى كثير من كتب
الحديث وأسباب النزول والفقه والعقيدة وعلم الفرائض ، بجانب المراجع
الأساسية في مادة البحث ، وهي كتب متون اللغة والنحو والصرف والبلاغة

العربية وكتب إعجاز القرآن قديمها وحديثها ، فإن مادة هذا البحث مبنوثة في تلك المصادر والمراجع ، مع ما فيها من قدر كبير يركز على التدقيق الخاص والرأي الشخصي بما تقتضيه طبيعة الدراسة البلاغية التحليلية للوقوف على الجوانب البلاغية المعجزة في كل موضع من تلك المواضع التي شككت صلب الدراسة ، وأهم محور في هذه الدراسة هو المحاولة الجادة للوقوف على النواحي الإعجازية في أسلوب القرآن ممثلاً في آيات سورة النساء التي قد يُظنُّ أن ما بها من أحكام وتنظيمات وتشريعات وأسس بناء المجتمع الإسلامي الجديد إبان نشأته الأولى قد يميل بها إلى الأسلوب التقريري ، ولكن الوقوف مع أول آية من آياتها يبطل ذلك الظن ، فكم حوت تلك الآية الكريمة من ألوان بلاغية تدل على عظم قدر هذه السورة ، وحسن الاستهلال فيها ، وبراعة مطلعها ، وكان الوقوف مع أكثرها قصداً لإظهار هذا الغرض .

وحاولت الدراسة أن تكون شديدة العناية بالأمانة العلمية في النقل ، كما حاولت استقصاء جميع ما قيل في الموضوع مجال الدرس بلاغياً ونحوياً ، والإلمام بأكبر قدر من آراء المفسرين أصحاب الذوق الأدبي والحس البلاغي قبل اختيار ما تكتبه مع الحذر الشديد الذي يتناسب وطبيعة الدراسات القرآنية ؛ لما في هذا المنبع الصافي من توازن دقيق في كافة مفاهيمه .

وألتمس العذر من القارئ الكريم إن وقع على خطوة عائرة أو فكرة جامحة ، فما فيه من صواب فمن فضل الله وكرمه وتوفيقه ، وما فيه من زلل وخلل فمن نفسي وضعفي وتقصيري ، وأسأل الله العفو والغفران .

وقد استقام البحث في خمسة فصول ، يتقدمها تمهيد وتقوفاً خاتمة ، فأما التمهيد فهو قائم على إثبات أن معظم العلماء قديمهم وحديثهم اتفقوا على أن إعجاز القرآن في نظمه البلاغي ، هذا الوجه الذي إن لم يكن

الأوحد فهو الأظهر ، ذلك أنه هو الذي قام به التحدي وثبتت به المعجزة ، هذا ما كان أولاً . أما ثانياً فقد كان حديثاً بين يدي سورة النساء .

- وأما الفصل الأول فقد كان عن نظم المفردة القرآنية ، ممثلة في مفردات سورة النساء ، وقد اقتضت طبيعة التنظيم والتبويب أن يُقسم هذا الفصل إلى مبحثين :

المبحث الأول : بلاغة المفردة القرآنية من حيث هيئتها ، وتحتة أربعة

مطالب :

المطلب الأول : هيئة التعريف .

المطلب الثاني : هيئة التكرير .

المطلب الثالث : هيئة الإفراد والتثنية والجمع .

المطلب الرابع : هيئة التذكير والتأنيث .

ثم المبحث الثاني : بلاغة المفردة القرآنية في سورة النساء من حيث مادتها ، وقد اقتصرنا الدراسة في هذا المبحث على حروف المعاني فقط لأسباب منها : أن كون اللفظة اسماً أو فعلاً ستقف الدراسة معه في فصل آخر هو نظم الجملة ، ومنها : لما لحروف المعاني من أثر ظاهر في ربط معاني مجموع أجزاء الجملة وإيراز مكونات النفس فيها إلى العيان ، ومنها : تجنب التكرار حتى لا يُدرس الاسم والفعل مرتين . وقد حاولت الدراسة جهداً القيام بعمل مقارنات بين تلك الحروف للوقوف على الاختيار المعجز لها في القرآن الكريم ، وقُسم هذا المبحث إلى مطالب أربعة :

المطلب الأول : أدوات الشرط .

المطلب الثاني : أدوات النفي .

المطلب الثالث : حروف العطف .

المطلب الرابع : حروف الجر .

وقد شغل هذا الفصل بمبحثيه حيزاً كبيراً في الدراسة وذلك يعود إلى

طبيعة تنوع اللفظة هيئةً ومادةً .

- أما الفصل الثاني فكان في نظم الجملة ، وقد احتوى أيضاً مبحثين :

المبحث الأول : الجملة الخبرية ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : التقديم والتأخير .

المطلب الثاني : الحذف والذكر .

المبحث الثاني : الجملة الإنشائية ، وتحت هذا المبحث مطالب خمسة

هي :

المطلب الأول : الاستفهام .

المطلب الثاني : الأمر .

المطلب الثالث : النهي .

المطلب الرابع : التمني .

المطلب الخامس : النداء .

- أما الفصل الثالث فقد كان في نظم الجمل والأفكار ، وبه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : القصر ، وبه أربعة مطالب :

المطلب الأول : القصر بـ (إنما) .

المطلب الثاني : القصر بالنفي والاستثناء .

المطلب الثالث : القصر بأدوات العطف .

المطلب الرابع : القصر بتقديم ما حقه التأخير .

المبحث الثاني : الإيجاز والإطناب ، وبه مطلبان :

المطلب الأول : الإيجاز .

المطلب الثاني : الإطناب .

المبحث الثالث : الفصل والوصل ، وبه مطلبان :

المطلب الأول : الفصل .

المطلب الثاني : الوصل .

- أما الفصل الرابع فقد عالج الصور البيانية ، واحتوى على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : التشبيه ، وتحت مطالب ثلاثة :

المطلب الأول : التشبيه المرسل .

المطلب الثاني : التشبيه الضمني .

المطلب الثالث : التشبيه التمثيلي .

المبحث الثاني : المجاز ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : المجاز اللغوي ، ويحتوي على :

أولاً : المجاز المرسل .

ثانياً : الاستعارة .

المطلب الثاني : المجاز العقلي .

المبحث الثالث : الكناية ، ويحتوي على ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الكناية عن صفة .

المطلب الثاني : الكناية عن موصوف .

المطلب الثالث : الكناية عن النسبة .

- أما الفصل الخامس : الفنون البديعية ، وهي مبحثان :

المبحث الأول : المحسنات البديعية المعنوية ، وتحتة سبعة مطالب :

المطلب الأول : الطباق .

المطلب الثاني : المقابلة .

المطلب الثالث : التورية .

المطلب الرابع : التوجيه .

المطلب الخامس : الجمع والتفريق وحسن التقسيم .

المطلب السادس : مراعاة النظير والتناسب والائتلاف .

المطلب السابع : المشاكلة .

المبحث الثاني : المحسنات البديعية اللفظية ، وبه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الجناس .

المطلب الثاني : السجع .

المطلب الثالث : رد العجز على الصدر .

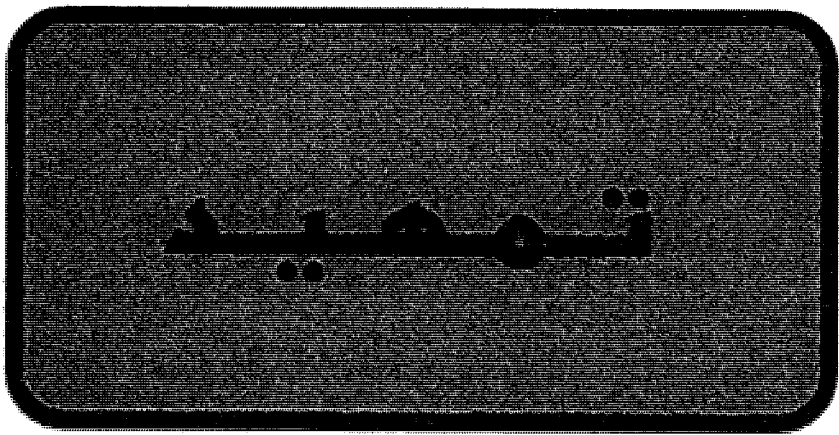
ويتبع ذلك خاتمة تحتوي على أهم نتائج الدراسة والمقترحات والتوصيات .

والشكر لله المتعال المنعم المتفضل أولاً وآخراً ، ثم لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل لجامعة أم القرى عموماً ، ولكلية اللغة العربية خصوصاً ؛ لما تبذله من جهد مثمر لمنسوبيها ومنسوباتها ، ثم أتقدم بعظيم العرفان والامتنان للمشرف الأستاذ الدكتور عبد العزيز أبو سريع ياسين ، الذي لن تفيه الكلمات حقه ، فقد كان لي شرف التلقي على يديه وقد رعى بحثي بمنتهى الأمانة والصدق والإخلاص ، فلا أملك له إلا دعوات مخلصات إلى العلي القدير أن يجزيه خير الجزاء ، ويجعل ما بذله من جهد تجاه بحثي في ميزان حسناته وشاهداً له يوم يقوم الأشهاد ، ثم أتقدم خافضةً جناحيّ الذل والرحمة لأبي الذي أورث أفراد أسرته حب العلم ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ، ولأمي الغالية - أمد الله في عمرها - التي بذلت عمرها كله في سبيل رعايتنا صابرة محتسبة ، وأبتهل إلى الله العلي القدير أن يكافئها بكل ذلك أعلى الدرجات في جناته .

والشكر والامتنان موصولان إلى الأستاذين المناقشين ، لتكرمهما بقبول مناقشة هذا البحث ، وأدعو الله مخلصاً أن ينفعني بعلمهما وتوجيهاتهما وأن يتولى عني جزاءهما ، ثم الشكر الجزيل لكل قلب خفق من أجلي ، وكل يد امتدت لمساعدتي من أساتذتي وزميلاتي ، وصديقاتي وكل من له حق عليّ ، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين .

كتبته الفقيرة إلى رحمة الله خديجة محمد أحمد البناني ،

في ١٤٢٢/٦/١ هـ





تمهيد

أولاً : إعجاز القرآن البلاغي :

غلب على أقوال العلماء أن أهم وجوه إعجاز القرآن وأظهرها إعجازه البلاغي . هذا الوجه لم يظهر في تفسير السلف من الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم أجمعين - مع أنه كان القوة الخفية التي تغلغت في نفوسهم وأخضعتهم إلى سلطان القرآن طائعين مختارين . ومرد ذلك إلى أنهم أهل ذلك اللسان ومعرفتهم بأساليب البلاغة مما لا يحتاج إلى بيان^(١) .

وبتقدم الزمان ظهرت عوامل كثيرة^(٢) جعلت التعرف على أساليب القرآن وما يمكن أن ينطوي وراء تعبيراته من المعاني والمقاصد غاية عظمى ، فتسابق إلى الوصول إليها أئمة العلماء ممن حملوا مشعل الهداية لإنارة السبيل الصحيح الموصل إلى فهم إعجاز كتاب الله الكريم ، وغيره من علوم العربية وعلوم الشريعة .

١- انظر (البرهان في علوم القرآن) للزركشي ، ج ١ ، ص ٣١٢ ، تحقيق / محمد أبي الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية ، جامعة أم القرى .

٢- من أهمها اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب وإسلام كثير منها ، فظهر في الأفق القريب أمور منها :

أ - استفسار الأعاجم عن أمور دينهم ، خاصة فيما يتعلق بفهم القرآن .

ب - ضعف اللسان العربي للعرب أنفسهم بهذا الاختلاط الجديد .

ج - ظهور مرحلة الشك ثم مرحلة التشكيك في الدين ، فأصبح بذلك الدفاع عن القرآن من

أوجب ما يجب على علماء المسلمين .

انظر (القرآن الكريم معجزة وتشريع) لعبد الكريم النيازي ، ص ١٢٠ ، مطبوعات نادي مكة

الأدبي ، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ .

من بين أولئك الرواد أبو عبيدة^(*) معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) في كتابه (مجاز القرآن) .

نقد عالج فيه كيفية الوصول إلى فهم المعاني القرآنية ورآها لا تتجلى إلا بالدربة الكافية لاحتذاء أساليب العرب في كلامها وسننها في وسائل الإبانة عن المعاني ، وذلك لأنه أحس حاجة الناس إلى وصل حاضر اللغة بسالفها^(١) ، فالانقطاع بينهما مما يعود وباله على فهم معاني القرآن والوقوف على إعجازه البلاغي ، ولذا قال : (إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، تصدق ذلك في آية من القرآن - { نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين }^(٢) - وفي آية أخرى : { وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه }^(٣) ، فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يسألوا عن معانيه ؛ لأنهم كانوا عرب الألسن ، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه وعمّا فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص . وفي القرآن مثل ما في كلام العرب من وجوه الإعراب ، ومن الغريب والمعاني^(٤) .

ولاشك أن هذه الوجوه التي في القرآن لا تظهر إلا عندما يمتلك المرء آلة فهمه الموجودة في المأثور من كلام العرب من المنظوم

* أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي ، وُلِدَ سنة ١١٠ هـ ، وتوفي بين سنتي ٢٠٩هـ - ٢١٣ هـ ، وهو من علماء البصرة .

(وفيات الأعيان) لابن خلكان ، ج ٢ ، ص ١٥٧ . أشرف على تحقيق الكتاب شعيب الأرنؤوط ، الناشر مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

١- انظر (البيان العربي) للدكتور بدوي طبانة ، ص ٢٨ ، الطبعة السادسة ، مكتبة الأنجلو المصرية .

٢- الآيات (١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥) ، سورة الشعراء .

٣- جزء من الآية (٤) ، سورة إبراهيم .

٤- انظر (مجاز القرآن) ، ج ١ ، ص ٨ ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة : بدون ، والآية

(٤) من سورة إبراهيم .

والمنثور ، وهو المجال الخصب للدراسة التطبيقية الهادفة معرفة ما في القرآن الكريم من إعجاز بلاغي ، بعد المقارنة والقياس .
والذي يهمننا هنا هو أن أبا عبيدة وهو من أوائل من تصدى لدراسة بلاغة القرآن ينوه بلفتاته تلك إلى أن إعجاز القرآن الكريم في نظمه البلاغي ، مشيراً إلى شدة الحاجة إلى المطالعة والدرس في كلام العرب لأن القرآن نزل بلسانهم وتفوق عليهم فيه .

ثم نمضي قليلاً في القرن الثالث الهجري ليطالعنا الجاحظ(*) (ت ٢٥٥هـ) بمؤلفاته الكثيرة في القرآن الكريم التي ضاع أكثرها ، ومنها كتابه (نظم القرآن) الذي يدل اسمه على فحواه .

وفي كتابه (البيان والتبيين) يقول : (إن الله إنما جعل نبيه أمياً لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب ولا يقرض الشعر ولا يتكلف الخطابة ولا يعتمد البلاغة ليكون إذا جاء بالقرآن الحكيم تكلم بالكلام العجيب كان ذلك أدل على أنه من الله)^(١) ، فهو ينوه ببلاغة القرآن وعجيب نظمه .

وفي كتابه (حجج النبوة) يقرر أن إعجاز القرآن في نظمه البلاغي ، يقول : (ألا ترى أن الناس قد كان يتهياً في طبائعهم ... ويجري على ألسنتهم ... أن يقول الرجل منهم الحمد لله ... وعلى الله توكلنا ... وحسبنا الله ونعم الوكيل ... وهذا كله في القرآن ... غير أنه متفرق غير

* العلامة المتبحر ذوالفنون أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي صاحب التصانيف الكثيرة ، أخذ عن النظام ، مات سنة ٢٥٠هـ ، أشهر مؤلفاته " البيان والتبيين " و " الحيوان " و " البخلاء " ، وله رسائل عدة .

انظر (تهنيت سير أعلام النبلاء) ، ج ١ ، ص ٤٤٢ ، أشرف على تحقيق الكتاب شعيب

الأرناؤوطي ، هذب أحمد فايز الحمصي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

١- انظر ج ٤ ، ص ٣٢ ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، الناشر المجمع العلمي ، بيروت ، الطبعة الرابعة .

مجتمع ، ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتآليفه ومخرجه لما قدر (١) .
 ويزيدنا الجاحظ ما نرمي إليه توكيداً بقوله : (إن رجلاً لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة من القرآن لتبين لهذا الرجل أنه عاجز عن الإتيان بمثلها ... ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها ، وليس ذلك في الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين) (٢)
 ، يقصد إنما ظهر عجزه في الإتيان بنظم مثل القرآن أي بأسلوب مثل أسلوب القرآن (٣) وإن لم يقل هذا صراحة ، وهذا يدل على أن الجاحظ قد انضم إلى أبي عبيدة في إرجاع إعجاز كتاب الله إلى نظمه البلاغي .

ولا يبعد عنهم ابن قتيبة* (ت ٢٧٦هـ) حين تصدى للرد على الطاعنين في القرآن لما خفي عليهم ما فيه من فنون القول وأساليب الكلام ، (فأراد أن يبين أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز ، والاختصار ، والإطالة ، والتوكيد ، والإشارة إلى الشيء ، وإغماض بعض المعاني ، حتى لا يظهر عليه إلا اللقن ، وإظهار بعضها ، وضرب الأمثال لما خفي) (٤) .

وقد سمي كل تلك الفنون التي تكوّن نظم القرآن البلاغي مجازاً ، لذلك يقول : (وللعرب المجازات ، ومعناه طريق القول ومآخذه ، ففيها

١- انظر الكتاب ضمن كتاب (رسائل الجاحظ) ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ ، تحقيق ، عبد السلام

هارون ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى .

٢- انظر المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٣- انظر (القرآن الكريم معجزة وتشريع) ، ص ٢٢٤ ، بتصريف .

* ابن قتيبة العلامة الكبير أبو محمد عبد الله ابن مسلم الدينوري ، نزل بغداد ، ومن تصانيفه :

غريب القرآن ، وغريب الحديث ، مات سنة ١٧٦هـ .

انظر (تهنيت سير أعلام النبلاء) ، ج ١ ، ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ .

٤- انظر (البيان العربي) للدكتور بدوي طبانة ، ص ٣٣ .

الاستعارة والتمثيل والقلب ...)^(١) ، وأخذ يعدد فنون القول إلى أن يقول :
 (وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ، ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن
 ينقله إلى شيء من الألسنة كما نُقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية
 والرومية ، وترجمت التوراة والزيور وسائر كتب الله تعالى إلى العربية ؛
 لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب)^(٢) ، ولو كان إعجاز القرآن
 في غير نظمه البلاغي لصح التعبد بمعناه في أي لغة من لغات الأرض ،
 ولكن سر إعجازه في ذلك النظم العجيب .

ويضم القرن الرابع الهجري جهابذة هذا العلم . من أشهرهم : أبو
 سليمان حمد بن محمد الخطابي^(*) (ت ٣٨٨ هـ) الذي خصص لإعجاز
 القرآن رسالة أسماها : (بيان إعجاز القرآن) خلص فيه إلى أن (القرآن
 إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف مضمناً
 أصح المعاني)^(٣) ، وقد أصاب الخطابي المحز حينما أرجع الإعجاز
 البياني إلى تلك العناصر الأساسية لبناء الكلام الجيد ؛ (لأن الصورة البيانية
 بجميع عناصرها كيان واحد تقضي هنا إلى معجزة إلهية عظيمة هي " نظم
 القرآن " وهو الذي أعجز العرب عن القيام له ، والوقوف إزاءه)^(٤) ،
 وبعجزهم ثبت عجز غيرهم من الأمم على مر الزمان .

١- انظر (تأويل مشكل القرآن) ، ص ٢٠ ، شرح وتعليق السيد أحمد صقر ، الطبعة الثانية ،
 الناشر دار التراث ، القاهرة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

٢- انظر المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

* هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطابي ، من ولد زيد ابن الخطاب ، كان محدثاً
 فقيهاً ، أدبياً ، شاعراً ، لغوياً .. صاحب " غريب الحديث " .

انظر (تهنيت سير أعلام النبلاء) ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ .

٣- انظر (بيان إعجاز القرآن) ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ، ص ٢٨ .

٤- انظر (الإعجاز في دراسات السابقين) ، ص ١٨٧ ، الدكتور عبد الكريم الخطيب ، دار الفكر
 العربي ، الطبعة الأولى ١٩٧٤ م ، بتصريف يسير ، والمقصود بالصورة البيانية هنا العناصر =

ومن أعلام القرن الرابع الهجري أيضاً : أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (*) (ت ٣٨٦هـ) صاحب كتاب (النكت في إعجاز القرآن) . الذي يعدد للقرآن وجوهاً سبعة في إعجازه ، ولكنه يعتني بالوجه الأرجح والأخص وهو إعجازه البلاغي . يقول - رحمه الله - : (فأما البلاغة فهي ثلاث طبقات ، منها ما هو من أعلى طبقة ، ومنها ما هو من أدنى طبقة ، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة . فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن) (١) .

ويقول في موضع آخر : (فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم) (٢) .

ثم يمضي في كتابه شارحاً أبواب البلاغة مدلاً على ذلك بشواهد من كتاب الله ؛ ليقرر أن إعجاز القرآن في نظمه البلاغي ، يقول : (وظهور الإعجاز في الوجوه التي نبينها يكون باجتماع أمور يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة في أعلى طبقة ، وإن كان قد يلتبس فيما قلّ بما حسن جداً لإيجازه ، وحسن رونقه ، وعذوبة لفظه ، وصحة معناه ، كقول علي

= متكاملة في الأسلوب بدءً بصوت الحرف إلى اتساق السياق كاملاً ، لا تلك الصور المعتمدة على علم البيان ، وهي ما تسمى اليوم بـ (المسرح اللغوي) .

انظر (التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن) للدكتور عودة خليل العودة ، ص ٨٠ ، ٨١ ، مكتبة المنار الأردنية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

وكذا (المشاهد في القرآن الكريم) للدكتور حامد صادق القنبي ، ص ٣٠٢ وما بعدها ، مكتبة المنار الأردنية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م .

وكذا (التصوير الفني في القرآن) لسيد قطب ، ص ٣٤ ، الطبعة الشرعية الثامنة ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

* أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني النحوي المتكلم ، أحد الأئمة المشاهير ، وله تفسير القرآن الكريم ، كانت ولادته في بغداد سنة ٢٩٦هـ وتوفي سنة ٣٨٤هـ وقيل ٣٨٢هـ رحمه الله .

انظر (وفيات الأعيان) ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ .

١- انظر (النكت في إعجاز القرآن) ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم) ، ص ٧٥ .

٢- انظر المرجع السابق ، ص ٦٧ .

- رضي الله عنه - : " قيمة كل امرئ ما يحسن " . فهذا كلام عجيب ،
 يغني ظهور حسنه عن وصفه . فمثل هذه الشذرات لا يظهر بها حكم ، فإذا
 انتظم الكلام حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم
 الإعجاز (١) .

وهو في هذا الكتاب (لم يكتب في الإعجاز كتاباً يضيء فيه
 الجوانب المتعددة للقضية ، وإنما أوجز رسالة تشبه المقال أو المحاضرة
 التي فيها شيء من البسط) (٢) ، ولكن تلك النكات التي وقف عندها كان لها
 عظيم الأثر في التنبيه على الإعجاز البلاغي كما أنبأت عن فحولة صاحبها
 في هذا الميدان .

ومع نهاية القرن الرابع الهجري يظهر كتاب (إعجاز القرآن)
 للباقلاني (٣) (ت ٤٠٣ هـ) ، وقد بين الباقلاني في هذا الكتاب لقومه ثم
 للدارسين من بعدهم أن إعجاز القرآن يأتي من جهة مفارقتة لجميع وجوه
 النظم المعروفة في كلام العرب ومباينته لأساليبهم في الشعر والسجع
 والكلام الموزون غير المقفى (٣) . وهو يهدف في المقام الأول إلى أن هذا
 الإعجاز إنما يدوم ويستمر استمرار الدهر إذ كان كاملاً في سمو بلاغته عن

١- انظر (النكت في إعجاز القرآن) ، ص ٧٨ .

٢- انظر (الإعجاز البلاغي) للدكتور محمد أبي موسى ، ص ٨٥ ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ،
 ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م .

* القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ، المعروف بالباقلاني البصري
 ، المتكلم المشهور ؛ كان على مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ، سكن بغداد ، وصنف التصانيف
 الكثيرة ، توفي سنة ٤٠٣ هـ .

انظر (وفيات الأعيان) ، ج ٤ ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

٣- انظر (القرآن الكريم معجزة وتشريع) لعبد الكريم النيازي ، ص ١٤٦ .

بلاغة البشرية ليس غير ، أي أن هذا الوجه هو الأوحى في الإعجاز القرآني^(١) فهو الأظهر والأدوم والأشمل لكل القرآن ، ومناطق التحدي .
والمتتبع لفكر الباقلائي يلحظ أن ثمة هدفاً عظيماً يرمى إليه ويروم تأكيده هو : أن القرآن خارق للعادة وهو معجز جملة وتفصيلاً . يقول بعد أن عدد أصناف الكلام عند العرب : (فلما لم نجد في ذلك ما يداني القرآن في البلاغة ، أو يشاكله في الإعجاز ، مع ما وقع من التحدي رأينا أنه خارق للمعروف في الجبلية ، وخرق العادة إنما يقع بالمعجزات على وجه إقامة البرهان على النبوات)^(٢) .

(ثم ينبه الباقلائي إلى حقيقة أخرى من حقائق الإعجاز ليست راجعة إلى إحكام بنائه ، وإنما ترجع إلى أمر إلهي فيه ، وهو أثره في النفوس)^(٣) ، واعتقد أن هذا هو ما أسماه سيد قطب - رحمه الله - سحر القرآن^(٤) وهو حق يقر به الأعاجم قبل العرب ؛ ولكن إعجازه البلاغي أكد وأدخل في النفس .

١- انظر (دراسة الباقلائي للنظم القرآني) للدكتور عبد العزيز أبو سريع ياسين ، ص ٨٧ ، مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م

٢- انظر (إعجاز القرآن) للباقلاني ، ص ٢٨٧ . تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة .

وكذا (الباقلائي وكتابه وإعجاز القرآن) د. عبد الرؤوف مخلوف ، ص ٣١٩ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٣ م .

٣- انظر (الإعجاز البلاغي) د. أبي موسى ، ص ٢٤٨ .

وقد قال هذا من قبل الخطابي وعلمه بأن بلاغة القرآن قد حازت من كل قسم من أقسام الكلام غير الهجين المذموم ، وأخذت من كل نوع من الأنواع شعبية ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين الفخامة والعدوية مع أنها متضادتان ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه ... فضيلة خص بها القرآن يسرها الله بلطف قدرته من أمره ... وهذا سبب أثره في النفوس .

انظر (بيان إعجاز القرآن) ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ، ص ٢٦ .

٤- انظر (التصوير الفني في القرآن) ، ص ١١ وما بعدها .

ومن معاصري الباقلاني : القاضي عبد الجبار المعتزلي (*) (ت ٤١٥ هـ) فقد أفرّد في كتابه (المغني) جزءاً خاصاً بالإعجاز نقتطف منه ما نحن بصددّه . يقول أبو الحسن : (اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة . ولا بد من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم ، وقد يكون بالإعراب الذي له مدخل فيه ، وقد يكون بالموقع ... وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ... لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موضعها ، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة ، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ؛ لأنه قد يوجد لها عند الانضمام صفة ، وكذلك كيفية إعرابها وحركاتها وموقعها ، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها) .

إذن لا فصاحة ولا بلاغة إلا بالنظم ؛ لأنه يعول عليه في ذلك مهما كان اللفظ فصيحاً والمعنى شريفاً ، يؤكد ذلك قوله : (والذي تظهر به المزية ليس إلا الإبدال أو التقديم أو التأخير الذي يختص بالموقع أو الحركات التي تختص بالإعراب ، فبذلك تقع المباينة بين الكلام الفصيح وغيره) . ثم يجعل حسن النغم وعبوبة القول مما يزيد الكلام حسناً على السمع .

كذلك ينوه القاضي عبد الجبار بالفطرة الذاتية في الإنسان التي تدعوه إلى الاختيار وحسن النظم والرصف وإخراج المعاني بصورة واضحة رائعة ، وهي هبة من الخلاق العظيم . يقول : (ولا بد مع كل ما ذكرناه من تأييد وإطاف يرد من قبل الله تعالى ؛ ولذا نجد المتكلم يروم طريقة في الفصاحة فتقرب عليه مرة وتبعد أخرى وحاله في العلم لا تكاد تختلف) .

* هو عبد الجبار ابن أحمد بن عبد الجبار العلامة المتكلم شيخ المعتزلة ، تصانيفه كثيرة منها (المغني) ، مات سنة ٤١٥ هـ .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

ويخرج من هذا كله إلى أنه مهما تسابق المتسابقون في الحسن والمزية لا يمكن أن يقاربوا ما وصل إليه كلام الله المعجز ، مع أنه سلك نفس الطريق . ثم يقول : (والمعجزة القرآنية جاءت على هذا الاتجاه في النظم الذي يتفاضل منه الكلام ويتقدم بعضه على بعض . ثم حين انتهت غايات البيان العربي وحيث لم يكن للبلغاء والفصحاء مذهب وراء هذا ، فأخذ القرآن المجيد راية البيان وسار بها أشواطاً بعيدة ، وأرباب البيان والبلاغة واقفون مشدوهين مأخوذون (١) .

ما نلث أن نمضي في القرن الخامس الهجري حتى يستوقفنا إمام البلاغيين وشيخهم الشيخ عبد القاهر الجرجاني (*) بمؤلفاته العملاقة في البلاغة والإعجاز .

يلخص نظريته في إعجاز القرآن قائلاً : (أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجاري ألفاظه ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة ، وتنبيه وإعلام وتذكير ، وترغيب وترهيب ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وتبيان ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً وآية آية فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ،

١- انظر (المغني) للقاضي عبد الجبار ، ج ١٦ ، ص ٣٢١ - ٣٣٠ . تحقيق أمين الخولي ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٢٨٠هـ - ١٩٦٠م .

وكذا (الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق) د. عائشة عبد الرحمن ، ص ١٠٧ - ١١٠ . دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثانية .

وكذا (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) د. محمد أبي موسى ، ص ١٢٧ . مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

وكذا (القرآن الكريم معجزة وتشريع) لعبد الكريم النيازي ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

* شيخ العربية أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني . أخذ النحو بجرجان وتبحر فيه وصنف كثيراً ، وأهم كتبه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) ، توفي سنة ٤٧١هـ .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ج ٢ ، ص ٤٠٥ .

ولفظة يُنكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبهه ، أو أخرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول ، وأعجز الجمهور ، ونظاماً والتئاماً ، وإتقاناً وإحكاماً . لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حكَّ بيافوخه السماء موضع طمع ، حتى خرست الألسن عن أن تدّعي وتقول ، وخذيت القروم فلم تملك أن تصول (١) .

وقد حاول الإمام عبد القاهر جاهداً نفسه في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) - حاول إجلاء الطريق الصحيح الموصل إلى كشف بعض أسرار كتاب الله البيانية مشيراً إلى (أن الإعجاز يحتاج في فهمه إلى ملكة بيانية ناضجة . وذوق بلاغي صحيح يستطيع القارئ بكتاب الله أن يفهمه على ضوءئها وأن يدرك معناه من الأسلوب الذي استفاده منهما) (٢)

من الذين ساروا على منهج عبد القاهر التطبيقي وتفننوا فيه العالم جار الله محمود الزمخشري* (ت ٥٣٨ هـ) .

حيث أكد أنه لا يصل إلى ما دق من معاني كتاب الله ولطائفه (إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادهما آونة ، وتعب في التقدير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح

١- انظر (دلائل الإعجاز) ، ص ٣٩ . قرأه وعلق عليه الشيخ محمود شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

٢- انظر (نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر) للدكتور محمد حنيف فقيهي ، ص ، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع ، الطبعة لثانية ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

* هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان . معتزلي الاعتقاد ، كانت ولادته سنة ٤٦٧ هـ بزمخشر ، ووفاته سنة ٥٣٨ هـ بجرانيا ، وأهم مؤلفاته مما - يخصنا - (الكشاف) .

انظر (وفيات الأعيان) ، ج ٥ ، ص ١٦٨ - ١٧٤ .

معجزة رسول الله (١) . ورأيه هذا يدل على أن النظم عنده هو أم إعجاز القرآن ، وأنه القانون الأولى بالرعاية والنظر حين التصدي لتفسير القرآن ، لذلك فقد عالجه على نطاق واسع في تفسيره الشامل لسور القرآن جميعاً (٢) ، فوقف على مزية نظم القرآن من ناحية الجمال الحادث من أحكام معاني النحو ، وتنبه إلى إحياءات الألفاظ وما تلقىه من ظلال معنوية ونفسية استجلى جمالها ببراعة ، وعرض للألفة النفسية والمعنوية بين الألفاظ المنظومة وحلل جمالياً المعاني النفسية الكامنة وراء النظم أي نظر إليها بوصفها وحدة معنوية (٣) .

ومن المفسرين الذين أكدوا أن معجزة القرآن الكريم في نظمه البلاغي ابن عطية* (ت ٥٤١ هـ) ، يقول في مقدمة تفسيره : (وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحقاق ، وهو الصحيح في نفسه أن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه) (٤) .

ثم يقول : (ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً وأحاط بالكلام كله علماً ، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى تلو المعنى ، ثم كذلك من أول

١- (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) ، ج ١ ، ص ٣ . دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

٢- (القرآن الكريم معجزة وتشريع) ، ص ١٦٣ .

٣- (منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه) لمصطفى الجوني ، ص ٢٩ .

* هو الإمام أبو بكر أحمد بن القاسم بن عطية ، أحد الحفاظ الرحالة ، قيل عنه أنه ثقة . ولد سنة ٤٨٠ هـ ، ومات سنة ٥٤٠ هـ ، وقيل ٥٤٦ هـ .

(تهنيت سير أعلام النبلاء) ، ج ١ ، ص ٥٠٤ .

٤- (المحرر الوجيز) ، ج ١ ، ص ٥٢ . تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، الطبعة الأولى ،

دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل ، والنسيان ، والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن قط محيطاً^(١) .

ثم يؤكد رأيه بقوله : (فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة)^(٢) . وبتأكيده أن إعجاز القرآن يعود إلى نظمه المنفرد يدحض حجة القائلين بالصرفة . ثم يقول : (والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين ... وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب بأن يوجد أحسن منها لم يوجد)^(٣) .

وقد نهج الإمام فخر الدين الرازي^(*) (ت ٦٠٦ هـ) هذا النهج ، وعقد فصلاً في كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) لإثبات معجزة القرآن ، خلاص فيه إلى أن القرآن معجز بنظمه البلاغي بعد أن رد كل حجة سواها .

يقول الرازي بعد أن نقض وجوهاً عدة لإعجاز القرآن : (ولما بطلت هذه المذاهب ولا بد من أمر معقول حتى يصح التحدي به ويعجز الغير عنه ، ولم يبق وجه معقول في الإعجاز سوى الفصاحة ؛ علمنا أن الوجه في كون القرآن معجزاً هو الفصاحة)^(٤) .

١- انظر (المحرر الوجيز) ، ج ١ ، ص ٥٢ .

وكذا (الإتقان في علوم القرآن) لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ج ١ ، ص ١١٩ ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة بدون .

وكذا (أسرار ترتيب القرآن) للسيوطي ، ص ١٥ ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا .

٢- انظر (المحرر الوجيز) ، ج ١ ، ص ٥٢ .

٣- انظر (المحرر الوجيز) ، ج ١ ، ص ٥٢ .

* هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الملقب بفخر الدين والمعروف بابن الخطيب ، النقيبه الشافعي ... له للتصانيف المفيدة في فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم . توفي سنة ٦٠٦ هـ بمدينة هراة .

انظر (وفيات الأعيان) ، ج ١ ، ص ٢٤٨ - ٢٥٢ .

٤- انظر (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) لفخر الدين الرازي ، ص ٣٤ ، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور محمد بركات أبو علي ، دار الفكر للنشر .

ثم يقول في فصل شروط الفصاحة : (لما ثبت أن عجز العرب إنما كان عن المزايا التي ظهرت لهم في نظم القرآن والبدائع التي راعتهم في مضرب كل مثل ومساق كل خبر وصورة كل عظة وتبويه وإعلام وتذكير وجب على الغافل أن يبحث عن تلك المزايا والبدائع ، ما هي ؟ وكم هي ؟ وكيف هي ؟ ولا يمكن ذلك إلا بالبحث عن حقيقة المجاز ، وحقيقة الاستعارة ، وحقيقة التشبيه والتمثيل ، وحقيقة النظم والتقديم والتأخير ، والإيجاز والحذف ، والوصل والفصل ، وسائر وجوه المحاسن المعتمدة في النظم والنثر)^(١) ، وهذه الوجوه بجملتها هي ما شكلت نظم القرآن المعجز .

ولم يقتصر هذا الرأي في وجه إعجاز القرآن على البلاغيين ومفسري القرآن الكريم بل كان شائعاً بين كافة العلماء وكأنه الرأي المسلم به بداهة . فهذا هو ابن خلدون^(*) يذكره في مقدمته ويؤكد عليه قائلاً : (واعلم أن ثمرة هذا الفن - يقصد علوم البلاغة - إنما في فهم الإعجاز من القرآن لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة ، وهي أعلى مراتب الكمال ، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه . وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته ، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه)^(٢) .

١- انظر (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) لفخر الدين الرازي ، ص ٣٤ .

* هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون الحضرمي ، استوطن القاهرة آخر حياته ، وتولى القضاء فيها ، وتوفي سنة ٨٠٨ هـ ، وله من العمر ست وسبعون سنة . انظر (مقدمته) ، ص ٨ .

٢- انظر (مقدمة ابن خلدون) ، ص ٥٥٣ . تحقيق درويش الجودي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

وهكذا لا نكاد نجد عالماً من علماء السلف إلا وقد أدلى بدلوه في هذه الفضيلة التي استحوذت على اهتمام الجميع . فهاهو ذا السيوطي (*) صاحب (الإتيقان) و(تفسير الدر المنثور) يستعرض في إتقانه الآراء المختلفة في وجوه إعجاز القرآن^(١) ، ثم (يرى أن إعجاز القرآن متعلق بفصاحته وبلاغته ، والفصاحة ليست في ألفاظ القرآن ، فإن ألفاظه ألفاظهم ... وبلاغته ليست في معاني القرآن ؛ لأن كثيراً منها موجود في الكتب المتقدمة ، وظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن إنما يتعلق بالنظم المخصوص وحسن التأليف والتتام الكلمات ، فجاء أسلوبه الغريب مخالفاً لأساليب كلام العرب ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له)^(٢) .

وهكذا يجد الباحث في كتب الأولين أن فكرة الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم قد رسخت واستقرت وتمكنت أيما تمكن عبر الأجيال فلا يمضي قرن من الزمان دون أن يكون حاملاً بين ذراعيه رجالاً يرددون ذلك في مؤلفاتهم دراسة أو تقليداً حتى أسلمتها يد الزمان إلى علماء عصرنا الأفاضل ؛ وما ذلك إلا لأنها هي الحق دون مرأه .

فمن علماء عصرنا الحديث المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وكتابه (إعجاز القرآن) . يقول الرافعي : (لولا أن القرآن الكريم قد ملك سر هذه الفصاحة وجاءهم منها بما لا قبل لهم برده ولا حيلة معه مما يشبه على التمام أساليب الاستهواء في علم النفس ، فاستبد بإرادتهم وغلب على طبائعهم وحال بينهم وبين ما نزعوا إليه من خلافة حتى انعقدت قلوبهم عليه

* شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي ، توفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة .

انظر مقدمة كتابه (الإتيقان) .

١- انظر (الإتيقان) ، ج ١ ، ص ١١٦ - ١٢٣ .

وكذا (تهذيب الإتيقان) للدكتور محمد بازمول ، ص ٥٤ - ٦٢ .

٢- انظر (من علوم القرآن وتحليل نصوصه) للدكتور عبد القادر حسين ، ص ١١٣ .

وهم يجهدون في نقضها ، واستقاموا بدعوته وهم يببالغون في رفضها ... فكانوا يفرون منه في كل وجه ثم لا ينتهون إلا إليه ، إذ يرونه أخذ عليهم بفصاحته وإحكام أساليبه جهات النفس العربية . والمكابرة في الأمور النفسية لا تتجاوز أطراف الألسنة ، فلو أن القرآن غير فصيح ، أو كانت فصاحته غير معجزة في أساليبها التي ألقيت إليهم ، لما نال منهم على الدهر منالاً ، ولخلا منه موضعه الذي هو فيه ، ثم لكانت سبيله بينهم سبيل القصائد والخطب والأقاصيص وهو لم يخرج عن كونه في الجملة كأنه موجود فيهم بأكثر معانيه ، قبل أن يوجد بألفاظه وأساليبه ، ثم لنقضه كلمة كلمة ، وآية آية ، دون أن تتخاذل أرواحهم ، أو تتراجع طباعهم ، وكان لهم وله شأن غير ما عرف ، ولكن الله بالغ أمره ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً^(١) .

وممن تصدى لهذه القضية في العصر الحديث الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، تقول في كتابها (الإعجاز البياني في القرآن) : (ومن قديم فرضت قضية الإعجاز نفسها على السلف من العلماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم وتعددت أقوالهم في وجوه هذا الإعجاز ، وأياً ما قالوا فيها ، فالذي لا ريب فيه هو أن إعجازه البلاغي لم يكن قط موضع جدل أو خلاف ، وإنما كان الجدل بين الفرق الإسلامية في اعتباره الوجه في الإعجاز أو القول معه بوجوه أخرى)^(٢) .

١- انظر (من علوم القرآن وتحليل نصوصه) للدكتور عبد القادر حسين ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

٢- انظر (الإعجاز البياني في القرآن) ، ص ٨٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية .

وخلاصة القول : إن الإعجاز البلاغي - وإن لم يكن الوجه الأوحى
 في إعجاز القرآن - هو المقصود بالتحدي عند نزوله فهو الذي أعجز
 العرب المعاصرين لنزوله ، وبعجزهم ثبت عجز غيرهم ، ولا يزال نظمه
 البلاغي معجزاً على مر الزمان وسيظل مهما تكشف للقرآن من أسرار
 وأسرار ، ومهما خاض في تفسيره أجيال وأجيال ؛ لأنه كما قال منزله -
 سبحانه وتعالى - :

{ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } (١) .

ثانياً : بين يدي سورة النساء :

هذه السورة العظيمة من السور المدنية إلا آية واحدة نزلت بمكة عام
 الفتح في عثمان بن طلحة الحنفي ، وهي قوله تعالى : { إن الله يأمركم أن
 تؤدوا الأمانات إلى أهلها } (٢) . وهي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم
 وأيضاً من السبع الطوال في هذا الكتاب العظيم ، وكلا الأمرين يثير اهتمام
 المسلم ، الباحث عن الترابط القوي بين آي وسور المصحف الشريف .
 يروي الإمام البخاري - في فضائل القرآن - (إن عراقياً سأل أم
 المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن تريه مصحفها فقالت : لم ؟ ، قال :
 لعلي أولف القرآن عليه ، فإنه يقرأ غير مؤلف ، قالت : وما يضرك ؟ أيه
 قرأت قبل ، إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة
 والنار ، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولو نزل
 أول شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا

١- جزء من الآية (١) ، سورة هود .

٢- جزء من الآية (٥٨) .

انظر (فتح القدير) للشوكاني ، ج ١ ، ص ٤١١ .

وكذا (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٣ .

تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبداً . لقد نزل بمكة على محمد وإني لجارية
العب : { بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر } وما نزلت سورة
البقرة والنساء إلا وأنا عنده ، قال : فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي
السور (١)

ويعلق الإمام البقاعي على هذه القصة ، فيقول : (وقد عنت بهذا
رضي الله عنها أن القرآن حاز أعلى البلاغة في إنزاله مطابقاً لما تقتضيه
الأحوال بحسب الأزمان ، ثم رتب على أعلى وجوه البلاغة بحسب ما
تقتضيه المفاهيم من المقال - كما نشاهده من هذا الكتاب البديع المثال البعيد
المنال) (٢) .

فضلها :

روي في فضل هذه السورة ما أخرجه الحاكم في مستدركه عن عبد
الله بن مسعود قال : (" إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي
بها الدنيا وما فيها { إن الله لا يظلم مثقال ذرة } (٣) الآية ، و { إن تجتنبوا
كبائر ما تنهون عنه } (٤) الآية ، و { إن الله لا يغفر أن يشرك به } (٥) الآية
، { ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم } (٦) الآية) (٧) .

وعن ابن عباس قال : " ثمان آيات نزلت في سورة النساء هن خير
لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت " ونكر ما ذكره ابن مسعود ،

١- انظر صحيح البخاري

وكذا (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

٢- المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٣- جزء من الآية (٤٠) .

٤- جزء من الآية (٣١) .

٥- جزء من الآية (٤٨) ومن الآية (١١٦) .

٦- جزء من الآية (٦٤) .

٧- انظر (فتح القدير) ج ١ ، ص ٤١٦ .

وزاد : { يريد الله ليبين لكم }^(١) الآية ، { والله يريد أن يتوب عليكم }^(٢) الآية ، و { يريد الله أن يخفف عنكم }^(٣) الآية^(٤) .

سبب تسميتها :

قال أحد المفسرين : (لما كان مقصودها الاجتماع على مادعت إليه السورتان قبلها من التوحيد وكان السبب الأعظم في الاجتماع التواصل والتراحم عادة الأرحام العاطفة التي مدارها النساء - سميت (النساء) لذلك ، ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العفة والعدل الذي لبابه التوحيد)^(٥) .

كما أن السورة جمعت أحكاماً كثيرة تتعلق بأمور النساء وفصلت فيها القول من أهمها وأبرزها : إثبات حقهن في الإرث لأول مرة في تاريخ البشرية ، فقد كان قبلُ أمراً مستكراً لا عهد للناس به ، ولعل هذا هو أخص الأسباب وأقواها في التسمية .

المحور الأساسية التي دارت حولها مفاهيم هذه السورة المباركة:

المحور الأول : تطهير المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية في الفرد والجماعة ، وذلك في مثل قوله تعالى : { يا أيها اللذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتوهن فحسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً }^(٦) .

١- جزء من الآية (٢٦) .

٢- جزء من الآية (٢٧) .

٣- جزء من الآية (٢٨) .

٤- انظر (فتح القدير) ج ١ ، ٤١٧ .

٥ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ١٧١ . وقد غفل البقاعي حين قال : السورتان التي قبلها ، لأن ما قبلها الفاتحة والبقرة وآل عمران .

٦ - الآية (١٩) .

لقد كانت المرأة في الجاهلية تورث كالسائمة أو البهيمة فأنقذها الإسلام من ذلك في هذه الآية الكريمة ، وطهر المجتمع المسلم من هذه الجريمة ، كما حرّم العضل الذي كانت المرأة تُسامه وجعل لها حريتها في اختيار من تعاشر وأوجب على الرجال العشرة بالمعروف ، حتى في كراهية الزوجة ما لم تصبح العشرة متعذرة^(١) .

ومنه أيضاً قوله تعالى : { ولا تتكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتناً وساء سبيلاً }^(٢) .
ومن أمثال ذلك كثير فيما يخص النساء والمعاملات والعلاقات العامة والخاصة .

المحور الثاني : تحقيق علم المواريث .

وذلك بتقرير المبدأ العام للتوارث في مثل قوله تعالى : { للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً }^(٣) .

ثم بالتفريع والتوزيع للأنصبة في ظل تلك الحقيقة الكلية في آيتين ، أولاهما خاصة بالورثة من الأصول والفروع وذلك في قوله تعالى : { يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن مثل ما ترك ... }^(٤) . والثانية خاصة بحالات الزوجية والكلالة في قوله تعالى : { ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ... }^(٥) .
ثم تجيء بقية أحكام الورثة في آخر آية في السورة استكمالاً لحالات

١ - انظر (ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج ٢ ، ص ٢٨٥-٢٨٦

٢ - الآية (٢٢) .

٣ - الآية (٧) .

٤ - جزء من الآية (١١) .

٥ - جزء من الآية (١٢) .

الكلاة^(١) وربطاً لبداية السورة بنهايتها في قوله تعالى : { يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاة إن امرؤ هلك ... }^(٢) .

المحور الثالث : بناء المجتمع الجديد على أسس المنهج الإسلامي الجديد .

وذلك قائم على أساس التكافل والتلاحم والتناصح بنظم الشرع وهو كثير جداً ، منه على سبيل المثال قوله تعالى : { وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً }^(٣) . وهي رحمة من الله باليتيم لشدة ضعفه وعوزه إلى من يرق له ويتلطف به ويتكفل بشؤونه . ومنه قوله تعالى : { واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الحنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً }^(٤) .

كم جمعت هذه الآية من ضروب الحق والخير التي تعتبر الدعائم الأساسية في بناء الفرد والمجتمع بناءً سليماً يقوم على التكافل والتراحم ومثل ذلك قوله تعالى : { إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمًا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً }^(٥) .

١ - انظر (ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

٢ - جزء من الآية (١٧٦) .

٣ - الآية (٩) .

٤ - الآية (٣٦) .

٥ - الآية (٥٨) .

المحور الرابع : التأكيد على التكليف الشرعية في العبادات
والمعاملات .

مثل قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا
الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول
إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً }^(١) .

فمن أخص التكليف الشرعية في العبادات طاعة الله وطاعة رسوله
وتتبعها طاعة أولي الأمر فإنها عنوان الإيمان ، هذا ما أكدته هذه الآية
الكريمة وأمثالها كثر في هذه السورة وفي غيرها .

ومن ذلك قوله تعالى : { فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة
الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف يؤتيه أجراً
عظيماً }^(٢) . أعظم العبادات بعد طاعة الله ورسوله بيع الدنيا بشراء الآخرة
رغبةً فيما عند الله .

ومما جاء في المعاملات قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا كونوا
قوامين بالقيسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن
غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو
تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً }^(٣) .

تؤكد الآية الكريمة على إقامة العدل بين الناس جاعلةً القاعدة
الأساسية في هذا العدل تعامل الفرد والجماعة مع الله مباشرةً طلباً فيما عنده
سبحانه .

ومن أمثلة المعاملات أيضاً قوله تعالى : { لا يحب الله الجهر
بالسوء من القول إلا من ظلم وكاتم الله سميعاً عليماً }^(٤) . لقد أكدت هذه

١ - الآية (٥٩) .

٢ - الآية (٧٤) .

٣ - الآية (١٣٥) .

٤ - الآية (١٤٨) .

الآية الكريمة مبدأ حماية الإسلام لسمعة الناس ما لم يظلموا فإذا ظلموا لم يستحقوا هذه الحماية وأذن للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء في ظالمه وهو الاستثناء الوحيد من كف الألسنة عن كلمة السوء^(١) .

المحور الخامس : كشف أعداء الإسلام وكيدهم والتحذير منهم .

من مثل قوله تعالى : { ألم تر إلى اللذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ، والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً }^(٢) .

هكذا يصرح المولى بالعداء المتأصل بين الجماعة المسلمة وأهل الكتاب ويكشف نويهم الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين .

كم تكشف آيات هذه السورة المباركة حبائل الخداع الذي انطوت عليه نفوس المنافقين المندسين بين صفوف المسلمين وظهر انبيهم مثل قوله تعالى : { ألم تر إلى اللذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به فيريد الشيطان أن يضللهم ضلالاً بعيداً ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً }^(٣) .

وأعجب العجب من هؤلاء المنافقين أنهم لا يفعلون هذا عن جهل ولا عن ظن وإنما هم يعلمون يقيناً ويعرفون تماماً أن هذا الطاغوت محرم التحاكم إليه ولكنهم انساقوا وراء الشيطان الذي يريد بهم الضلال الذي لا يرجى منه مآب^(٤) .

وقد وقفت الآيات أيضاً مع المشركين وقفة كشفت دخائلهم الخبيثة من ذلك قوله تعالى : { ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى

١ - انظر (ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج ٢ ، ص ٥٧٨ ، ٥٧٩ .

٢ - الأيتان (٤٤ ، ٤٥) .

٣ - الأيتان (٦٠ ، ٦١) .

٤ - انظر المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٢ .

ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونصله جهنم وساعت
مصيراً {^(١) .

فالأية لفظ عام في كل مشرك ونزلت في طعمة بن أبيرق لأنه ارتدّ
وسار إلى مكة^(٢) .

الخصائص الأسلوبية في سورة النساء :

انفردت سورة النساء المباركة عن بقية السور بخصائص أسلوبية من
أهمها :

١- احتواء السورة الكريمة على الجملة الإسمية التي يكون المسند
إليه فيها لفظ الجلالة ودخلت عليها (كان) الناسخة وقد اقترنت بأن
الناسخة احدى وعشرين مرة وذلك من مثل قوله تعالى : { إن الله كان
عليكم رقيباً }^(٣) ، وقوله تعالى : { إن الله كان عليماً حكيماً }^(٤) ، وقوله
تعالى : { إن الله كان تواباً رحيماً }^(٥) .

كما أتت (كان) الناسخة وحدها دون (إن) الناسخة ثلاث
وعشرين مرة ، من مثل قوله تعالى : { وكان الله بهم عليماً }^(٦) ، وقوله
تعالى : { وكان الله على كل شيء مقبلاً }^(٧) ، وقوله تعالى : { وكان الله
غفوراً رحيماً }^(٨) ، فكان مجموع ذلك أربعاً وأربعين مرة .

١ - الآية (١١٥) .

٢ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ١١٢ .

وقصة طعمة بن أبيرق سيرد ذكرها - إن شاء الله - في صفحة ٤٥١ .

٣ - جزء من الآية (١) .

٤ - جزء من الآية (١١) .

٥ - جزء من الآية (١٦) .

٦ - جزء من الآية (٣٩) .

٧ - جزء من الآية (٨٥) .

٨ - جزء من الآية (٩٦) .

وأحسب أن هذا التأكيد الذي تحمله (إن) و (كان) والتعظيم الذي يحمله لفظ الجلالة (المسند إليه) يتناسب مع المحاور الأساسية في هذه السورة المباركة .

٢- ومن الخصائص الأسلوبية أيضاً تلك التفصيلات الدقيقة لكثير من الأمور المجملة فيما قبلها ، مثل :

أ - خلق الإنسان الذي ورد في الآية الأولى من هذه السورة المباركة : { يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تسائلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً }^(١) . جاء مثل هذا النداء في سورة البقرة بين يدي الأمر بالعبادة كتعليل لها وحجة على العباد بخلقه لهم وذلك في قوله تعالى : { يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون }^(٢) .

ذكر الخلق فيها مجملاً بالنسبة لما فصل في آية النساء : { خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً } .

ب - الإحسان إلى الناس : جاء في سورة البقرة : { وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً... }^(٣) ، فما أجمل في قوله تعالى : { وقولوا للناس حسناً } فصل في سورة النساء في قوله : { والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم... }^(٤) .

١ - الآية (١) .

٢ - الآية (٢١) من سورة البقرة .

٣ - جزء من الآية (٨٣) من سورة البقرة .

٤ - جزء من الآية (٣٦) .

ج - الصلاة : لقد ذكرت في سورة البقرة في ثمان مواضع كلها أتت مجملة ، ومن ذلك قوله تعالى : { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ }^(١) ، وقوله تعالى : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ }^(٢) ، وقوله تعالى : { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ }^(٣) ، ونجدها في سورة النساء في ستة مواضع حملت معظمها تفصيلات دقيقة ، بل ناقشت بعض الآيات الاستعداد النفسي والذهني لها قبل أدائها كما فصلت في أنواعها كصلاة الأمن والخوف والصلاة في وقت الأذى ، ومن ذلك قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا غَفُورًا }^(٤) .

ومن تلك التفصيلات قوله تعالى : { وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ، وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِي طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يَصَلُوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ودَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتَعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مطرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ، فَإِذَا

١ - الآية (٣) من سورة البقرة .

٢ - الآية (٤٣) من سورة البقرة .

٣ - الآية (٤٥) من سورة البقرة .

وكذا الآيات (٨٣ ، ١١٠ ، ١٥٣ ، ١٧٧ ، ٢٣٨) .

٤ - الآية (٤٣) .

قضيتم الصلاة فانذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً {^(١) .

د - التوبة والاستغفار : جاء ذكرها في سورة البقرة في خمس مواضع كلها مجملة مثل قوله تعالى : { وإذ قال موسى لقومه يا قومي إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم ... } {^(٢) ، وفي سورة آل عمران في ثلاثة مواضع منها قوله تعالى : { وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين } {^(٣) ، أما سورة النساء ذكر فيها التوبة والاستغفار في عشر مواضع تحمل معظمها تفصيلات دقيقة منها قوله تعالى : { إنما التوبة على الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً } {^(٤) .

٣- الوحدة الموضوعية :

ظهرت تلك الوحدة الموضوعية بين هذه السورة والسور السابقة عليها في كثير من القضايا الدينية كما قال أحد المفسرين : (مقصودها الاجتماع على التوحيد الذي هدت إليه آل عمران ، والكتاب الذي حدثت عليه البقرة لأجل الدين الذي جمعته الفاتحة) {^(٥) ، وفي موضع آخر يقول : (لما

١ - الآيات (١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣) .

٢ - جزء من الآية (٥٤) من سورة البقرة .

بقية المواضع الخمسة الآيات (٥٨ ، ١٦٠ ، ١٩٩ ، ٢٢٢) .

٣ - جزء من الآية (١٣٣) من سورة آل عمران .

وكذا الآيتين (١٣٥ ، ١٣٦) .

٤ - الآيتان (١٧ ، ١٨) .

وبقية المواضع التي ذكر فيها هذا الغرض الآيات (١٦ ، ٢٧ ، ٤٨ ، ٦٤ ، ١٠٦ ، ١١٠ ،

١١٦ ، ١٤٦) .

٥- انظر (نظم الدرر للبقاعي) ج ٥ ، ص ١٦٩ .

تقرر أمر الكتاب الجامع الذي هو الطريق ، وثبت الأساس الحامل الذي هو التوحيد ، أحتيج إلى الاجتماع على ذلك فجاءت هذه السورة داعيةً إلى الاجتماع والتواصل والتعاطف والتراحم^(١) ومن أمثلة تلك الوحدة الموضوعية معجزة خلق الإنسان فقد تضمنت سورة البقرة ابتداء الخلق وإيجاد (آدم) - عليه الصلاة والسلام - من غير أبٍ ولا أمٍ ، ثم عقت سورة آل عمران ببيان أمر (عيسى) - عليه الصلاة والسلام - وأنه كمثل (آدم) في عدم الافتقار إلى أبٍ وعلم الموقنون من ذلك أنه تعالى لو شاء لكانت سنته فيمن بعد (آدم) - عليه السلام - ألا يتوقف الخلق إلا على أمٍ فقط ؛ أعلم سبحانه الخلق أن من عدا هذين المذكورين عليهما السلام سبيله سبيل الأبوين فقال سبحانه وتعالى في أول هذه السورة : { يا أيها الناس ... }^(٢) ، ثم أعلم سبحانه وتعالى كيفية النكاح المجعول سبباً في التنازل أو ما يتعلق به ، كما بيّن حكم الأرحام والمواريث ، فتضمنت السورة المباركة ابتداء الأمر وانتهائه ، إنه سبحانه علمنا كيفية التناكح وصور الاعتصام واحترام بعضنا البعض وكيفية تناول الإصلاح فيما بين الزوجين عند التشاجر والشقاق .

بعض النواحي الإعجازية التي احتوتها الآية الأولى من سورة النساء:

لقد أتت هذه الآية الكريمة في تناسق محكم عجيب جامع لكثير من فنون البلاغة ، من هذا التناسق ما جاء في علم المعاني وذلك في النداء الكريم الذي افتتحت السورة به { يا أيها الناس } فهو نداء لجميع الخلق غرضه التنبيه والإيقاظ من الغفلة واللهو على حقيقة الوقوف على قدرة الخالق ، ومن ثم الحذر من مغبة مخالفته وعقوق أمره { اتقوا ربكم الذي

١- انظر (نظم الدرر) للبقاعي ج ٥ ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

٢- جزء من الآية (١) .

خَلَقْتُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا
وَنِسَاءً { .

والإتقاء من هذا الخالق يوحى للنفس الإنسانية بالخوف ، لهذا كان
مفعول هذا الفعل مضافاً إلى الخالق مباشرةً ليكون مُشعراً بالرعاية الحسنة
والعطف على هذا المخلوق المقهور ، ومُشعراً أيضاً بأن على هذا المخلوق
أن يلتفت إلى عمق معنى التربية والإشفاق ، خاصةً أنه يزاولها فيما بين
يديه من الأولاد والأنعام والطيور والنباتات ، وكل ما هو من مقومات
سعادته في هذه الحياة ، مع الفارق الرائع بين من يربي وينتظر الانتفاع مما
رَبَّى ، ومن يربي وهو غني عن العالمين .

ومن علم المعاني أيضاً الاطناب بتكرار الأمر بالاتقاء ، وإسناد
النسبة الإيقاعية إلى الذات المقدسة المستعلية ، وتذكير المخلوق بالتعلق بهذه
الذات عند الشدائد الشديدة ، كما يتعلق بأنصاره من ذوي رحمه في قضاء
حوادثه البسيطة ، فضلاً عن التذليل المستعلي بالرقابة والهيمنة { إن الله
كان عليكم رقيباً } .

كما أن التناسق المحكم في الآية الكريمة فيه من علم البيان الكناية
عن الموصوف في متعلقي الفعل (خلق) ، أعني الكناية عن (آدم) في
القول الكريم { خَلَقْتُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } ، والكناية عن (حواء) بالقول
الشريف { وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا } .

وأيضاً الفعل في القول الكريم { وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً }
يُجسد عن طريق الاستعارة بالكناية حقيقة انتشار البشر وتزاحمهم في كل
أرجاء المعمورة ، حيث شبه التناسل الفائق الحصر عبر القرون والأجيال
بالشيء الذي ينبث فينتشر ويتطاير فيتباعد حيناً ويلتحم آخر ، حسبما يجري
عليه من صروف الدهر ونوازعه ، ثم أستعير هذا الشيء الذي ينبث فينتشر
لهذا التناسل العظيم ظن ثم حذف تاركاً الفعل (بث) مُشعراً به كلازم من
أخص صفاته .

كما أن من علم البيان أيضاً العدول عن اسم الفاعل الذي يمكن أن ينتقل معناه ويتغير إلى الصفة المشبهة الدائمة المعنى مسبوقاً بأداة الاستعلاء المفيدة للتهديد بالقول الكريم { إن الله كان عليكم رقيباً } .

أما عن علم البديع في هذه الآية الكريمة فإن تناسق عرض مضمون معناها - أعني معنى خلق النفس الواحدة - آدم عليه السلام كذكر يخلق منه الأنثى ، ومعنى خلق الناس وبثهم في هذه المعمورة بطريق التناسل الكائن بين الذكر والأنثى بعد حديث خلق (آدم) في سورة البقرة دون ذكر ولا أنثى ، وخلق (عيسى) - عليه السلام - في سورة آل عمران دون ذكر ، أقول تناسق عرض هذا المعنى بعد ذلك هو حديث حُسن تقسيم المعاني ، هذا فضلاً عن الطباق الواقع بين لفظتي (رجالاً ونساءً) ، ومراعاة النظير الذي تستند في فهمها على المناشدة المعروفة في كلام العرب عندما يقول بعضهم لبعض (أناشدك الله والرحم إلا فعلت كذا) .

هذا نموذج تحليلي ذكرت فيه شيئاً من علوم البلاغة في هذه الآية وقد دُرست خلال البحث في غير هذه المواضع خمس عشرة مرة دليلاً ساطعاً على حسن الإستهلال في هذه السورة المباركة .

وبالله التوفيق .

الفصل الأول

نظم المفردات

المبحث الأول: بلاغة المفردة القرآنية في سورة
النساء من حيث هيئتها.

المبحث الثاني: بلاغة المفردة القرآنية في سورة
النساء من حيث مادتها.

مدخل :

إذا كان علم النظم وثيق الصلة بصحة تراكيب الكلام وسداد معناه وحسن رصفه الناتج عن علاقة كل كلمة بجاراتها وما تشعه مع أختها من إحياءات معنوية ذات تأثير نفسي^(١)، فإن قرآنا الكريم يفوق كل ما قيل ويقال في هذه الجوانب وفي أكثر منها مجتمعة ومتفرقة . والإحساس بالمفردة القرآنية وأثرها في التراكيب وتأثيرها على نمط الأسلوب هو نوع من الإدراك للإعجاز القرآني . ولأن جمال النظم ودقته لا يتأتى إلا بدراسة المفردة في سياق متكامل مترابط مع الجو المحيط بها ؛ ستقف الدراسة مع بعض أجزاء هذا السياق كلما دعت الحاجة إلى ذلك استلهاماً لإعجاز المفردة موطن الدراسة .

ووقفنا الأولى - بحول الله وقوته - ستكون مع المفردة القرآنية في سورة النساء من حيث هيئتها في تعريفها وتكبيرها ، وإفرادها وتثنيها وجمعها ، وكذا في تذكرها وتأنيثها . وثمّ وقفة أخرى معها في مادتها - بعون الله وتوفيقه - .

١ - انظر (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني /٨٠/ وما بعدها . تحقيق وتعليق الشيخ محمود

شاكر، دار المدني ، جدة، الطبعة الثالثة ، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م

المجلد الأول

بلاغة المفردة القرآنية في سورة النساء

من هيئة هيئتها

المطلب الأول: هيئة التصريف.

المطلب الثاني: هيئة التذكير.

المطلب الثالث: هيئة الجراء والتثنية والمجرم.

المطلب الرابع: هيئة التذكير والتانيث.

المبحث الأول : بلاغة المفردة القرآنية في سورة النساء

من حيث هيئتها .

الهيئة تعني الشكل الذي وردت فيه المفردة في سياق معين ، وقد تفارقه إلى شكل آخر في سياق آخر . مثل تذكير الاسم أو تعريفه بأل أو الإضمار ، أو اسم العلم ، أو الاسم الموصول . ونحو ذلك تتكبير الاسم أو تذكيره أو تأنيثه ، أو ضرورة إفراده لمقام يقتضي ذلك ، أو تثنيته أو جمعه لمقام آخر . ووراء كل هيئة منها سر بلاغي تحاول هذه الدراسة تفهّمه بعون الله وتوفيقه .

المطلب الأول : هيئة التعريف .

١- التعريف بالإضمار في هذه السورة المباركة :

حاولت الدراسة إحصاء هذا التعريف على النحو التالي :
ورد ضمير الغائب متصلاً ومنفصلاً ثلاثمائة وتسعين مرة ، وورد ضمير المخاطب مائة وإحدى وتسعين مرة ، أما ضمير المتكلم فقد ورد إحدى وخمسين مرة . هذا إحصاء للضمائر البارزة فقط ، أما المستترة فلم تتعرض الدراسة لها ؛ لأنها خارجة عن اللفظة الظاهرة .

وبالاستقراء وجدت أن أهم الأغراض التي صورها الضمير هي :
التعظيم ، والتأكيد ، وتصوير خلجات النفس ، والتهديد والوعيد . وأكثر ما يمثل هذه الأغراض ضمير المتكلم .

أما ضمير المخاطب فالغرض الرئيس فيه طلبُ المواجهة بأمر (ما) ، قد يكون للتنبية والحث ، وقد يكون للتكريم ، وقد يكون للملكية ، وقد يكون للإلزام بالتشريع ، وقد يكون لإيقاظ النفس وتحريك المشاعر ، إلى آخره .

وضمير الغائب يخدم أغراضاً أهمها الملكية ، أو تأكيد المعنى ، أو التعظيم أو التحقير . وستتناول الدراسة هذه الأغراض كلاً على حدة بمشيئة الله .

أ - ضمير المتكلم :

أولاً : التعظيم .

هذا الغرض كثيراً ما يصاحب نون العظمة التي ترد في حق الله - جل جلاله - في القرآن الكريم . وذلك مثل قوله تعالى :

{ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً }^(١)

سياق الآيات السابقة^(٢) واللاحقة^(٣) يركز على عقيدة التوحيد ومعالمه الرئيسية ، ويجعلها القاعدة الأساسية للسلوك في هذه الحياة بحيث لا يُترَقَّبُ إلا رضاه سبحانه ولا يُخشى إلا سخطه . هذا مفاد تلك الأوامر والنواهي التي تتابعت تحمل معها الترغيب والترهيب ، وتنتهي بتصوير مشهد عظيم (من مشاهد يوم القيامة يرسم حركة النفوس والمشاعر كأنها شاخصة متحركة)^(٤) : { فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً } هي (ساحة العرض الواسعة ، وكل أمة حاضرة ، وعلى كل أمة شهيد بأعمالها)^(٥) جاء به الملك الديان بقدرته العظيمة ، ثم تنتهي العظمة بمجيء الرسول الرؤوف الرحيم^(٦) شهيداً على كافة الأمم .

١ - الآية : (٤١) من سورة النساء .

٢ - انظر الآيات (٣٦ - ٣٩) من سورة النساء .

٣ - انظر الآية (٤٣) من ذات السورة .

٤ - انظر (في ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ ، دار إحياء التراث العربي ، ودار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السابعة ، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

٥ - المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٧٣ .

٦ - قال تعالى : { لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم } ، الآية (١٢٨) من سورة التوبة .

أي موقف هذا ، وأي عظمة يحملها ضمير العظمة في " جئنا " ،
وقد زاده هيبه لفظ الاستفهام الذي قد تصدرت الآية به " كيف " الذي يوحي
بالتعجب والحيرة والرهبه التي ملأت صدر الرسول صلى الله عليه وسلم
حتى فاضت عيناه حينما تُلِّتْ عليه هذه الآيات^(١). فكان ضمير العظمة خير
ما يمثّل هذا المشهد الناطق بالهيبه والوقار .

ومنه قوله تعالى :

{ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل
إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً }^(٢).

لقد وردت نون العظمة في قوله تعالى : " آتينا " لتدل دلالة واضحة
على عظم الهبة التي منحها الله آل إبراهيم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة
والتسليم . وتتضح مكانة هذه الهبة بمقارنة الآية بما سبق عليها من قوله
تعالى : { ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب }^(٣) ببناء الفعل
للمجهول ، وهؤلاء المتعجب من حسدهم في قوله تعالى : { أم يحسدون
الناس ... } ضاقت أعينهم بما أنعم الله به على نبينا محمد صلى الله عليه
وسلم من نعمة النبوة ، وعلى أمته من نعمة الإسلام ، فأنكروا ما يعرفونه
وقلبوا الحقائق ، فألزمهم المولى بما هو مسلم عندهم وهو نبوة إبراهيم -
عليه السلام - وتكريم آله بعده ؛ لاعتنائهم بآثاره حسماً لمادة حسدهم^(٤) .

١ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
" اقرأ عليّ " ، فقلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : " نعم ، إني أحب أن أسمع
من غيري " ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية { فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا
بك على هؤلاء شهيداً } قال : " حسبك الآن " ، فإذا عيناه تدرقان) .

انظر (تفسير ابن كثير) ، ج ١ ، ص ٤٩٩ .

٢ - الآية (٥٤) .

٣ - جزء من الآية (٥١) .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ٥ ، ص ٥٢٦ .

فإن كنتم تعترفون بأن الذي أتى إبراهيم هذا الفضل العظيم هو الله فلم تجدونه محمداً - صلى الله عليه وسلم - ؟

ومما جاء فيه هذا الضمير دالاً على العظمة قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا } (١)

قال فيه البقاعي : (ولما كان القرآن صفة الرحمن أتى بمظهر العظمة فقال : " أنزلنا " أي بما لنا من العظمة والقدرة والحكمة) (٢) فكان ضمير المتكلم مؤكداً على هذه المعاني الدالة على عظمة الله في إنزاله هذا النور المبين الذي أشرقت به نفوس المؤمنين .

وقد تتحد العظمة مع التأكيد على الحدث وذلك كثير في القرآن الكريم ، وسأشير إلى ذلك في الحديث عن التأكيد بعد .

ثانياً : التأكيد :

ومما يمثله قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدَقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا } (٣) .

١ - الآية (١٧٤) .

٢ - انظر (نظم الدرر) ، ج ٥ ، ص ٥٢٦ ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

٣ - الآية (٤٧) .

بدأت الآية بخطاب اليهود والنصارى (١) في ظل الكناية عنهم بإيتاء الكتاب تأكيداً على أن ما نزله سبحانه وتعالى على المصطفى صلى الله عليه وسلم حقيقة ثابتة ومؤكدة في كتابهم فلا حجة لكفرهم به ، وهم القوم الذين يعلمون يقيناً أن الله سبحانه منزل كتاباً بعد كتابهم مصداقاً لما معهم فكان ضمير المتكلم في قوله تعالى : { نزلنا } حجة ملزمة لهم بما يعلمون من خبره ، لذا هددهم الحق تبارك وتعالى بقوله : { من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً } مؤكداً استحقاقهم لللعن بضمير المتكلم في : { لعنا } عند عدم إيمانهم كما استحق أصحاب السبت ذلك وهي حقيقة مؤكدة لديهم أيضاً ، ولا يخلو الضمير هنا في الموضعين من التعظيم المصاحب للتأكيد .

ومما جاء ضمير المتكلم فيه للتأكيد قوله تعالى : { وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً } (٢)

١ - الذين أوتوا الكتاب هنا اليهود والكتاب التوراة قاله الجمهور أو اليهود والنصارى قاله الماوردي وابن عطية والكتاب التوراة والإنجيل وبما نزلنا هو القرآن بلا خلاف ولما معكم من شرع وملة لا لما معهم من مبدل ومغير .

انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

وكذا (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٦٣ . وقد عبر المولى سبحانه عن الكتابين : التوراة والإنجيل بصيغة المفرد في قوله تعالى : { أوتوا الكتاب } لوحدة مقاصدهما ومصدرهما .

والطمس : الرد على الأبدار ، أي تنكس الرؤوس إلى الوراء ، وإن كان الطمس هنا مجازاً وهو الظاهر ، فهو وعيد بزوال وجهة اليهود في بلاد العرب ، ورميهم بالمنذلة بعد أن كانوا هناك أعزة .

انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ٧٩ ، الدار التونسية للنشر ،

تونس ، ١٩٨٤م .

٢ - الآية (٦٤) .

وكذا قوله تعالى :

{ ولو أننا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تنبيهاً } (١)

وقوله تعالى :

{ وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً * ولهديناهم صراطاً مستقيماً } (٢)

فضمير المتكلم في قوله تعالى : { أرسلنا } قوى معنى الإلزام بالطاعة وأوجبها على من أرسل إليهم رسول من لدن الله سبحانه وتعالى (٣). وكذلك نلمح معنى التأكيد في كل من : { أنا كتبنا } وكذا { لآتيناهم من لدنا } وكذا { لهديناهم } .

على أن الأخبار من لدن الحق سبحانه لا يرقى إليها الشك البتة ، ولكن الضمير هنا يلفت إلى معنى التأكيد وينبه عليه بشكل خاص .

ثالثاً : تصوير خلجات النفس :

إن أبرز ما يميز أسلوب الذكر الحكيم تلك الدقة المتناهية في تصوير النفس البشرية حتى كأن المكنون المخبأ باد للعيان ، ولهذا ترى (الحالة النفسية لوحة أو مشهد ؛ والنموذج الإنساني شاخص حي ، والطبيعة البشرية مجسمة مرئية) (٤) .

ومما جاء مصوراً لخلجات النفس قوله تعالى :

١ - الآية : (٦٦) .

٢ - الآيتين : (٦٧ ، ٦٨) .

٣ - انظر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٥٢٠ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٠م - ١٤٠٠هـ .

٤ - انظر (التصوير الفني في القرآن) لسيد قطب ، ص ٣٦ ، بتصرف يسير ، دار الشروق ،

بيروت والقاهرة ، الطبعة الثامنة ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

{ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كفارٌ أولئك أعَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أليماً } (١)

الضميران المصوران لهذه الخلجات في الآية وهما (الياء والتاء) في قول المحتضر : " إني تبت " جاء متتاليين وقد سبقا بأداة التوكيد (إن) . لقد جاء الحق ولا مجال بعد للعناد والمكابرة ، بل إذعان وذل وفرع ، لذا لم يقل : تبتُ وحسب ، بل " إني تبتُ " . تنقل لنا الآية هذا الحدث على لسان القائل مباشرة ؛ لتصور مقدار حاجته للتوبة ، ولكن هيهات فقد كان في سعة ولم يتب . ولذا لم يُسمَّ تائباً كما قال الأوسي (*) : (بل أُنثِرَ " قال " على " تاب " لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبار والتحاشي عن تسميته توبة ولو أكد ورغب فيه) (٢)

إن ضمير المتكلم هنا يصور حالة نفسية مضطربة تعج بالهلع والرغبة في الخلاص (٣) ، وهل أكثر من رؤية ملك الموت رادعاً . { وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون } (٤) . واستحقوا بذلك أن يجمعوا مع

١ - الآية (١٨) .

* هو أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود أفندي الأوسي البغدادي ، ولد في سنة سبع عشرة ومائتين وألف من الهجرة ، خلف ثروة علمية كبيرة ، من ذلك تفسيره لكتاب الله في كتاب (روح المعاني في تفسير الكتاب العظيم والسبع المثاني) . توفي سنة سبعين ومائتين وألف للهجرة .

انظر (التفسير والمفسرون) للذهبي ، ج ١ ، ص ٣٥٢ .

٢ - انظر تفسير (روح المعاني) للأوسي ، المجلد ٢ ، ج ٥ ، ص ٢٣٩ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، طبعة جديدة مصححة ومنقحة ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

٣ - لقد ذكر المولى في آيات عدة إخلاص هؤلاء الضلال في الدعاء وقت الشدة ، منها قوله تعالى { وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين } يونس ، جزء من الآية (٢٢) ، وكذا قوله تعالى : { فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا } غافر ، جزء من الآية (٨٥) ، وغير هذا كثير .

٤ - جزء من الآية (١١٧) ، آل عمران .

الذين يموتون وهم كفار ، وقد توعدهم المولى بقوله : " أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً " بنون العظمة الدالة على ذلك .

وعلى نقيض هذه الفئة الضالة التي لم يقبل الله توبتها يأتي ضمير المتكلم أيضاً مصوراً لنا مشاعر فئة مؤمنة تدعو الله بإخلاص عميق ، فيستجيب المولى لها ، ويسخر عباده لخلصها وذلك في قوله تعالى :

{ وَمَا لَكُمْ لَا تقاتلونَ فِي سبيلِ اللَّهِ وَالْمستضعفينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالوُلدانِ الَّذِينَ يَقولونَ رَبِّنا أَخْرَجنا مِنَ هَذِهِ القِريَةِ الظالِمِ أهلُها واجْعَلْ لَنا مِنَ لَدُنْكَ ولياً واجْعَلْ لَنا مِنَ لَدُنْكَ نصيراً }^(١) .

نلاحظ أن ضمير المتكلم " نا " تكرر في الآية أربع مرات ، فقد كان بمثابة المتنفس لهذه النفوس التي تعج بألم الظلم والاضطهاد الواقع عليها من قبل الفئة الظالمة في مكة المكرمة^(٢) وذلك قبل فتحها ، نلمح ذلك من هذا الضمير الذي ينتهي بحرف المد الألف ، وهو لفظ فيه انفتاح ، يطلق معه آهات وزفرات لعلها تخفف من تلك المعاناة . وقد صح عن ابن عباس^(*) - رضي الله عنه - قوله : " كنتُ أنا وأمِّي مِنَ المستضعفين " ^(٣) ، ولا يملك المستضعف سوى بث همته إلى الله - عز وجل - ولا يسعفه في ذلك سوى الضمير المعبر عن خلجات النفس .

ومن الأحوال النفسية التي يصورها ضمير المتكلم العناد والمكابرة ، وخير ما يوضح هذه الحالة في سورة النساء قوله تعالى :

١ - الآية (٧٥) .

٢ - انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج ١٠ ، ص ١٨٢ ، دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة .

* هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، حبر الأمة وفقه العصر وإمام التفسير ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، روى كثيراً من الأحاديث ، توفي سنة ثمان أو سبع وستين للهجرة .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ج ١ ، ص ١٠١ .

٣ - انظر (تفسير ابن كثير) ، م ١ ، ص ٥٢٦ .

{ من الذين هادوا يحرقون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً } (١) .

الآية تنعي على اليهود بعض جرائمهم المتوارثة ؛ فلم يكفهم تحريف ما في شرعهم ومنه صفة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، بل هم أيضاً يجاهرون بالعناد والمعصية بقولهم : " سمعنا وعصينا " أي (سمعنا قولك وعصينا أمرك) (٢) معبرين بذلك عن تبجحهم وما انطوت عليه دخائلهم بالضمير " نا " الدال على المتكلمين ، وكان ذلك شاهداً على جرمهم الجماعي ، وتحامي بعضهم ببعض حين يسخرون بالدين وبالرسول (٣) - صلى الله عليه وسلم - ، لهذا استحقوا لعنة الله - عز وجل - على ما انطوت عليه ضمائرهم وأعلنت عنه ألسنتهم من العدول عن الخير إلى الشر وعن الإيمان إلى الكفر كما جاء في الآية الكريمة .

ومن صور العناد والمكابرة ما حكاه المولى - سبحانه وتعالى - على لسان اليهود أيضاً في قوله تعالى :

{ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً } (٤) .

وهل أبشع من هذا العناد وهذه المكابرة شاهدين على أنفسهم بجرم موهوم متعالين على الله - سبحانه وتعالى - بالضمير " نا " في " إنا قتلنا " ،

١ - الآية (٤٦) .

٢ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٢٦٣ .

٣ - فقد كانوا يكلمون الرسول - صلى الله عليه وسلم - بكلام محتمل ينون به الشتيمة والإهانة ، ويظهرون التوقير والاحترام والإكرام ؛ مثل قولهم : " واسمع غير مسمع وراعنا " .

انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٢٩٣ .

٤ - الآية (١٥٧) .

ساخرين مستهزئين بقولهم^(١): " عيسى ابن مريم رسول الله " ؟ ولكن { قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً }^(٢) .

رابعاً : الوعيد :

نتيجة لعناد الجاحدين وإصرارهم على باطلهم جابههم الله - سبحانه وتعالى - بنفس الضمير في آيات كثيرة متوعداً إياهم بسوء المصير ، منها قوله تعالى :

{ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا }^(٣) .

ففي قوله تعالى : " أعتدنا " بنون العظمة تعلو نبرة الوعيد لتملأ الأفق ؛ لأن العتيد الحاضر المهيأ^(٤) واقتترانه بضمير العظيم المتعال لا شك يضاعف من عظم هذا العذاب المهين المعد من قبله سبحانه وتعالى في انتظارهم .

وقد تكرر هذا في كثير من الآيات منها قوله تعالى : { أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً }^(٥) .
وقوله جل من قائل : { وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً }^(٦) .

١ - لقد ذكروه بعنوان الرسالة ليس اعترافاً منهم بذلك بل سخرية ، أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا

المنصب قتلناه ، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء .

انظر (تفسير ابن كثير) ، ج ١ ، ص ٥٧٤ وما بعدها .

٢ - جزء من الآية (٧٥) من سورة مريم .

٣ - الآية (٣٧) .

٤ - انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ .

٥ - الآية (١٥١) .

٦ - الآية (١٦١) .

وتعلو نبرة الوعيد في قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا }^(١).

فكفرهم بالقرآن وبمعجزات الرسل جعلهم مستحقين هذا الوعيد الشديد بلون فريد من العذاب ، وهو تبديل جلودهم كلما نضجت ومات عنها الحس ؛ ليستمر تذوقهم للعذاب^(٢) . وهل يقدر على مثل هذا إلا الخالق العظيم ؟ وهل توجد أداة تعبر عن هذه العظمة أفضل من نون العظمة ؟

ب - ضمير المخاطب :

أصل الخطاب لحاضر معين ولكنه قد يوجه إلى غيره ليفيد العموم^(٣) وغرضه الأول المواجهة بأمر " ما " قد يكون التعليل أو التكريم أو الإيقاظ والتنبيه أو التفصيل وقد يكون غير ذلك .

١ - الآية (٥٦) .

٢ - انظر (الوجيز في تفسير القرآن الكريم) للدكتور شوقي ضيف ، ص ١٥٥ ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى .

وقال النحاس : أي يعيد النضيج غير نضيج حتى تسنعر النار .

انظر (إعراب القرآن) ، تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد ، ج ١ ، ص ٤٦٤ ، علم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٣ - انظر (مفاتيح العلوم) للسكاكي ، ص ٨٦ ، منشورات المكتبة العلمية الجديدة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

وكذا (الإيضاح) للخطيب القزويني ، ص ٢٤ ، تحقيق د. عبد الحميد هندراوي ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

وكذا (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٢٨٩ وما بعدها ، دار السرور ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

وزاد المراعي بأن الخطاب يوجه إلى غير الشاهد إذا كان مستحضراً في القلب كأنه نصب العين كما في قوله تعالى : { إياك نعبد } .

انظر (علوم البلاغة) ، ص ١١٣ ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

أولاً : المواجهة للتعليل :

قال سبحانه وتعالى في أول آية من هذه السورة المباركة :

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً }^(١) .

جاء ضمير الخطاب في مواجهات ثلاث ملزمة تكفي لتعليل كل ما جاءت به السورة من أحكام في حسن استهلال منقطع النظير فهو سبحانه ربكم وخلقكم ورقيب عليكم فأين المفر من هذه المواجهات التي (عللت الأمر بالتقوى بما يدل على معرفة المبدأ)^(٢) وبخطاب تظهر فيه المناسبة بين (وحدة النوع ووحدة الاعتقاد)^(٣) ليكون علة كافية للإسلام والاستسلام.

ومن هذا القبيل قوله تعالى :

{ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً }^(٤) .

الآية تحمل عتاباً شديداً للهجة واستنكاراً لحال الأزواج المستبدين الطامعين في استرداد ما أوجبه الله سبحانه عليهم لزوجاتهم (بأي حال تأخذونه وقد جرى بينكم وبينهن أحوال منافية لأخذه)^(٥) ، وتشتد المواجهة والتعليل في قوله تعالى : " وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً " ، فهل يليق بعد ذلك الابتزاز ؟

١ - الآية (١) .

٢ - انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، بتصريف .

٣ - انظر (التحرير والتوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٤ ، ص ٢١٤ .

٤ - الآية (٢١) .

٥ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٠٠ ، بتصريف ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

ثانياً : المواجهة للتكريم :

هذه طائفة من الآيات يشعرنا أسلوب القرآن فيها بأنه تعالى أراد مواجهة المخاطب لاستئناس نفسه وتطبيبه بما يريحها ويهيجها ، لتأمل قوله تعالى :

{ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا } (١) .

ألم تشعر بلذة التكريم في هذا الأسلوب اللين " ما طاب لكم " (فطاب فيه زال عنه حرج النهي) (٢) ، (حرية مقيدة بشريعته التي جعل عليها الضمير حارساً والتقوى رقيباً) (٣) وذلك تكريماً لابن آدم الذي ميزه الخالق بهما .

وتظهر لهجة التكريم جلية واضحة في هذا الخطاب المتكرر ، يقول الله سبحانه وتعالى :

{ يَرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (٤) .

والقصد في هذا الخطاب المتكرر (استئناس المؤمنين واستئزال نفوسهم إلى امتثال الأحكام المتقدمة من أول السورة) (٥) . فبهذا الخطاب يرفعهم إلى مرتبة علوية تؤهلهم إلى إرشاد الله (٦) وهدايته لهم وتوبته عليهم . ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى :

١ - الآية (٣) .

٢ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ١٧٩ .

٣ - انظر (في ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

٤ - الآية (٢٦) .

٥ - انظر (التحرير والتبوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ١٨ .

٦ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية الأندلسي ، ج ٢ ، ص ٤٠ .

{ والله يريد أن يتوبَ عليكم ويريدُ الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريدُ الله أن يخففَ عنكم وخلقَ الإنسانَ ضعيفاً } (١) .

ففي " عليكم و عنكم " مواجهة تكريم للمؤمنين عن طريق ضمير الخطاب ؛ ليحدث هذا الضمير هزة في نفوسهم ، فيشعروا بعظم مكانتهم وعظم مسؤوليتهم تجاه تطبيق أوامر الله ونواهيه في هذا الدين .

ثالثاً : قد يكون الخطاب لإيقاظ النفس وتحريك المشاعر :

وخير ما يمثله قوله تعالى :

{ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهنَّ أربعةً منكم فإن شهدوا فأمسكوهنَّ في البيوتِ حتى يتوفاهنَّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً } (٢) .

هذه الآية الكريمة معجزة حتى في موقعها ، لقد تحدثت الآيات قبلها عن حدود الله في المواريث (٣) ، وبينت جزاء الطاعة بوجه عام (٤) والثناء الجميل من الله - سبحانه وتعالى - لمن تمسك بها ، ثم جزاء المعصية بوجه عام كذلك (٥) والعذاب المهين لمرتكبيها، ثم تأتي هذه الآية موصولة بواو العطف ، تحكي عن فئة من أشد الناس ضللاً : مرتكبي جريمة الزنا . وهي جريمة فيها أكثر من صورة من صور التعدي لحدود الله ، منها الجرأة على حرمانه سبحانه ، والحق - تبارك وتعالى - أشد ما يكون غيرة على حرمانه (٦) ، ومنها ما ينتج عن هذه الجريمة البشعة من خلط في

١ - الآيتان (٢٧ و ٢٨) .

٢ - الآية (١٥) .

٣ - الآيتان (١١ و ١٢) . فيها علم المواريث كله عدا حكم الكلاله الذي ورد في آخر آية من سورة النساء (١٧٦) مع ورود جانب منه داخل الآية (١٢) .

٤ - الآية (١٣) بدأت بإشارة إلى حدود الله المذكورة من أول السورة ، بل من أول القرآن .

٥ - الآية (١٤) وهي مقابلة رائعة لسابقتها .

٦ - حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن الله تعالى يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغيره الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه) ، مختصر صحيح مسلم ، ١٩٣٠ .

الأنساب يسبب التعدي على حقوق الإرث الموضح قريباً قبل هذه الآية ، وهو أمر عظيم عند الله . ومن هنا فحاجة الآية إلى الخطاب المباشر في : (نسائكم) تكمن في إيقاظ ضمير الأمة المسلمة ؛ لتقف حارساً أميناً يحمي المجتمع المسلم من هذه الفئة المارقة عن حدود الله - سبحانه وتعالى - وهو الذي أكرم المرأة ، ورفع من قدرها ، وجعلها شقيقة الرجل في كل ما أعزه به الإسلام ، وزادها عليه بنحلة المهر والإزامه بنفقتها وحفظ حقوقها ، حتى الإرث جعل لها فيه نصيباً مفروضاً بعد أن كانت تورث مثل سائر سقط المتاع . فهل يليق بها أن تسلم قيادتها للشيطان ومتبعي الشهوات لتكون من العاصين والعياذ بالله ؟

إن فالخطاب في (نسائكم) لابد أن يحدث هزة عنيفة تثور بها نفوس المسلمين من رجال ونساء سخطاً واستككاراً . هذه الثورة الجامحة يكبحها الشرط الموجب للحد في قوله تعالى : " فاستشهدوا عليهن أربعة منكم " . (أي أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم واشترط الأربعة في الزنا تغليظاً على المدعي وستراً على العباد)^(١) وهو الحليم الستار لإتاحة فرص التوبة التي ورد ذكرها في الآية التالية مع جريمة مماثلة في قوله تعالى :

{ واللذان يأتيناها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنها إن الله كان تواباً رحيماً }^(٢) .

ثم فصل الحديث عن التوبة بأيتين مترادفتين^(٣) بعد هذا الموقع ؛ لتتم الوحدة الموضوعية ، في القرآن العظيم كنسيج لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فقد لعب ضمير الخطاب هنا دوراً مهماً في إثارة النفس للحد الذي ينتج عنه حماية المجتمع ، ثم في تهدئتها للحد الذي ينتج عنه عدم

١ - انظر (روح المعاني) للألوسي ، ٢م ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ .

٢ - الآية (١٦) .

٣ - الآيتان (١٧ و ١٨) .

الظلم والافتراء الكاذب ، فحقق بذلك التوازن المنشود في عقيدتنا الإسلامية السمحة .

رابعاً : المواجهة لتفصيل أحكام التشريع :

والمواجهة في مثل هذا أدخل في النفس وألزم في تحقيق الغرض . وهو كثير جداً في هذه السورة المباركة لما فيها من تفصيلات دقيقة لكثير مما أجمل في غيرها . من بينها الآيات التي وضحت علم الفرائض من مثل قوله تعالى :

{ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ } (١) .

يقول أبو السعود^(*) فيها : (شروع في تفصيل أحكام المواريث المجملة في قوله تعالى : { للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب ... } (٢) (٣) .

والذي يعنينا هنا هو ما يحدثه هذا الضمير في أنفسنا عند تلاوة قوله تعالى : " يوصيكم الله في أولادكم " أو قوله : " ولكم نصف ما ترك أزواجكم " أو قوله : " قل الله يفتيكم " . لا شك أن النفس المستشرفة لشرع الله تجد الخطاب يرفعها إلى مناط الثقة والمسؤولية ، ويفتح فيها أكمام المعرفة لتعطي ثماراً جنية .

١ - جزء من الآية (١١) .

* هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي ، المولود سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة للهجرة ، أخرج للناس كتابه (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) ، وكتب بعض الحواشي على تفسير الكشاف . توفي سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة للهجرة .
انظر (التفسير والمفسرون) للذهبي ، ج ١ ، ص ٣٤٥ .

٢ - جزء من الآية (٧) . وعلم الفرائض (الميراث) موضح في هذه السورة في ثلاث آيات : الآية (١١) ، و (١٢) ، والآية الأخيرة (١٢٦) .

انظر (في ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج ٢ ، ص ٢٦١ .

٣ - انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٤٨٨ ،

وكذا الألويسي في (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٢١٦ .

ولم يقتصر أسلوب الخطاب التشريعي على أمور الإرث ، بل تعداه في هذه السورة إلى أمور شتى منها قوله تعالى :

{ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارةً عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً }^(١) .
ومنه قوله تعالى :

{ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيلٍ حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منكم من الغائطٍ أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتميموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً }^(٢) .
ففي كل خطاب صورة حية لاستحضار النفس يقظة مهياة لتلقي هذه التشريعات .

ج - ضمير الغائب :

هذا الضمير لا بد أن يتقدمه ذكر لصاحبه إما لفظاً تحقيقياً أو تقديرياً وإما معنى^(٣) . وضمير الغائب كان له الحظ الأوفر في سورة النساء سواء كان منفصلاً أو متصلاً وستقف الدراسة معه في حالتيه وبالله التوفيق .

١ - الآية (٢٩) .

٢ - الآية (٤٣) .

٣ - اللفظ التحقيقي نحو جاءني زيد وهو يضحك والتقدير بأن يكون ما عاد عليه الضمير رتبته التقديم وإن تأخر لفظاً مثل : في داره زيد فزيد مبتدأ مكانه التقديم ، وإما معنى بأن يتقدم لفظ يدل عليه نحو قوله تعالى : { اعدلوا هو أقرب للتقوى } المائدة ، آية (٨) ، فالضمير للعدل وقد تقدم معناه في لفظ { اعدلوا } . أو توجد قرينة تدل عليه نحو قوله تعالى : { حتى توارت بالحجاب } ، سورة (ص) ، آية ٣٢ .

انظر (مواهب الفتح) لابن يعقوب المغربي ضمن (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص

١- ضمير الغائب المنفصل :

تتبعت الدراسة وجود هذا الضمير فوجدته يأتي في صدر الجملة الحالية وفي صدر الجملة الخبرية وفي صدر الجملة المستأنفة ليفيد تأكيد المعنى المساق له الكلام بلاغياً ومن أمثلة الضرب الأول قوله تعالى :

{ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا } (١) .

ضمير الغائب (هو) المتصدر الجملة الحالية { وهو معهم } يحدث صدًى عميق الأثر في النفس المؤمنة فتكون في تأدب مستمر مادام الله سبحانه وتعالى معها على الدوام قال أبو حيان (*) : (وهو معهم أي عالم بهم مطلع عليهم لا يخفى عنه تعالى شيء من أسرارهم وهي جملة حالية) (٢) فالضمير (هو) مع أنه للغائب إلا أن هذا الغائب موجود على الدوام لا تخفى عليه خافية وحق للزمخشري أن يقول : (وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم عليه من قلة الحياء والخشية من ربهم مع علمهم إن كانوا مؤمنين أنهم في حضرته لا سترة ولا غفلة ولا غيبة وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح) (٣) وقد كان لهذا الضمير من قوة تأكيد الإسناد ما لا يخفى على أحد .

ومن أمثلة الضرب الثاني - أعني الضمير المؤكد في صدر الجملة الخبرية - قوله تعالى :

١ - الآية (١٠٨) ، ورد هذا النوع في ستة مواضع في سورة النساء منها : (١٨ ، ٩٢)

* هو أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي ، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة من الهجرة . جمع علوماً كثيرة في القراءات واللغة وله اليد الطولى في التفسير والحديث وتراجم الرجال ، توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة من الهجرة بمصر .

انظر (التفسير والمفسرون) د. محمد حسين الذهبي ، ج ١ ، ص ٣١٧ ، دار الكتب

الحديثة ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

٢ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٤٤ .

٣ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٩٧ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

{ إن الذين يكفرون بالله ورُسُلِهِ ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورُسُلِهِ ويقولون نؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقاً وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً } (١) .

قال أبو حيان : (أكد بقوله (هم) لئلا يتوهم أن ذلك الإيمان ينفعهم) (٢) فقام ضمير الغائب (هم) بتحقيق صحة إسناد الكفر لهذه الفئة الضالة وما يتبعه من سوء المصير .

ومن أمثلة الضرب الثالث ما جاء في صدر الجملة المستأنفة لغرض التأكيد قوله تعالى :

{ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤٌ هلك ليس له ولدٌ وله أختٌ فلها نصفٌ ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولدٌ ... } (٣) .

قال الألويسي : (هو) أي المرء المفروض (يرثها) أي أخته المفروضة إن فرض هلاكها مع بقائه والجملة مستأنفة لا موضع لها من الإعراب وقد سدت — كما قال أبو البقاء* — مسد جواب الشرط في قوله تعالى : { إن لم يكن لها ولدٌ } (٤) .

ومع أن الكلام مستأنف إلا أن ضمير الغائب (هو) ربطه بما قبله وقوى حكم الإسناد فيه ووضح هذا النوع من الإرث .

١ — الآيتين (١٥٠ و ١٥١) .

٢ — انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ .

٣ — جزء من الآية : (١٧٦) .

* هو أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله النحوي الضرير العكبري ، ولد في سنة ثمان وثلاثين وخمسائة ببغداد كان جماعة لفنون من العلم والمصنفات ، له مصنفات عديدة منها (التبيان في إعراب القرآن) ، توفي سنة ست عشرة وستمائة للهجرة .

انظر مقدمة كتابه (التبيان في إعراب القرآن) ، ج ١ .

٤ — انظر (روح المعاني) للألويسي ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٤٥ .

وكذا انظر (التبيان في إعراب القرآن) للعكبري ، ج ١ ، ص ٤١٣ ، تحقيق علي محمد

البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

٢- ضمير الغائب المتصل :

ويأتي هذا الضمير ليخدم أغراضاً بلاغية جمة من أهمها التخصيص وتأكيد المعنى والتعظيم والتحقير وستحاول الدراسة الوقوف على أمثلة من سورة النساء لهذه الأغراض .

١- مما جاء مشعراً بالتخصيص قوله تعالى :

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً }^(١) .

فالضمير في (منها) يعود على نفس آدم عليه السلام لم يشأ الخالق سبحانه إنشاء حواء من مادة مستقلة - وهو القادر سبحانه - بل خلقها من زوجها لتوافق فطرة وطبعاً وهذا لعمر الله تأكيد على عمق الصلة الزوجية فقد خلقت الزوجة منه وله وهو أدعى لوجود المودة والرحمة حتى يبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً .

٢- ومما جاء لتأكيد معنى التخصيص قوله تعالى :

{ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً }^(٢) .

١ - الآية (١) .

لقد خبطت البشرية في هذا التيه طويلاً . جردت المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها فترة من الزمان فلما أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الأخرى وأطلقت للمرأة العنان ، ونسيت أنها إنسان خلقت لإنسان ، ونفس خلقت لنفس ، وشطر مكمل لشطر ، وأنهما ليسا فردين متماثلين إنما هما زوجان متكاملان ... والمنهج الرباني القويم يرد البشرية إلى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد .

انظر (في ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

٢ - الآية (٢) .

ضمير الغائب الذي تكرر مرتين في نفس اللفظة (أموالهم) صك شرعي يقف في نحور الأولياء المعتدين على أموال اليتامى ليقرر ملكيتهم لهذا المال وحماية الله سبحانه لها .

ومنه قوله تعالى : { وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً }^(١) وكذا قوله تعالى : { فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رِشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ }^(٢) وكذا قوله جل من قائل : { فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ }^(٣) وهذا كثير جداً في هذه السورة .

٣- وقد يأتي ضمير الغائب المتصل مؤكداً لمضمون الجملة . وذلك مثل قوله تعالى :

{ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا }^(٤) .

الضمير في (خلفهم) يعود إلى الأولياء فقد أمرهم المولى بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذرايرهم الضعاف بعد وفاتهم^(٥) فضمير الغائب في (خلفهم) وضع المأمورين في قلب الحدث حتى يتلبسوا به فترتعد فرائصهم خوفاً على ضعافهم ، ولا شك أن هذا أكبر رادع لهم عن البغي على الضعاف ، أخرج السيوطي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اتقوا الله في الضعيفين : اليتيم ، والمرأة . أيتمه ثم أوصى به ، وابتلاه وابتلى به)^(٦) .
ومما جاء مؤكداً لمضمون الجملة - وهو كثير - قوله تعالى :

١ - جزء من الآية (٤) .

٢ - جزء من الآية (٦) .

٣ - نفس الآية السابقة .

٤ - الآية (٩) .

٥ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٨٧ .

٦ - انظر (الدر المنثور) للسيوطي ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٤٤٣ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ،

الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

{ يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ
وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا }^(١) .

تأمل أهمية الضمير في (بهم) ألم تشعر أنه عمق صلة هؤلاء
النادمين بتسوية الأرض حتى شاع منه معنى الحسرة والألم والخسران
والندم ؟

ومثله قوله تعالى :

{ إِنَّ تَكُ حَسَنَةً يَضَاعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا }^(٢)

تأمل الضمير في (يضاعفها) وكذا (لدنه) فالضمير في يضاعفها
يؤكد مضمون مضاعفة الحسنه وهو أمر ثابت عنه سبحانه بالنصوص
الشرعية^(٣) من الكتاب والسنة ، وأما الضمير في (لدنه) أي من عنده^(٤)
سبحانه فيؤكد تفضله سبحانه على عباده المؤمنين وإن قل عملهم أو ذهب
جله مقابل سيئاتهم .

٤- ومن هذا الضمير ما يفيد التخصيص في الحكم وهو كثير وحسبنا
الإشارة إلى ما يمثله وذلك قوله تعالى :

{ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ
بِاللَّهِ إِنَّ أَرْدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا }^(٥) .

بدأت الآية باستفهام يصور حال تخطبهم الشديد حين ينتقم منهم
الجبار بتلك المصيبة التي تنزل بهم خاصة (عقوبة لهم بنفاقهم وكرههم

١ - الآية (٤٢) .

٢ - الآية (٤٠) .

٣ - مثل قوله تعالى : { من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة } جزء من

الآية (٢٤٥) من سورة البقرة ، وكذا قوله تعالى : { من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها } سورة

الأنعام (١٦٠) .

٤ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٥٤ .

٥ - الآية (٦٢) ، وانظر كذا الآية (٥) والآية (٨٣) .

حكم الله (١) فذلك بما قدمت أيديهم من جنایات من جملتها التحاكم إلى الطاغوت (٢) .

وقد خصص ضمير الغائب في { أصابتهم } و { أيديهم } هذا العذاب بالمنافقين خاصة .

٢- التعريف بالعلمية

العلمية : تعيين المسمى في ذهن المتلقي (٣) دون واسطة (٤) لظهوره بها وهي لا تخلو أيضاً من أغراض بلاغية (٥) ستحاول الدراسة الوقوف على أهمها .

إن أولى الأعلام اهتماماً اسم الله الأعظم (٦) (الله) وقد ورد في سورة النساء مائتين وثمانية وثلاثين مرة (٢٣٨) معبراً في كل مرة عن معانٍ عظيمة وحسبنا الوقوف على بعضها لعله ينبه على الباقي .
قال الله تعالى في أول سورة النساء :

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً } (٧) .

١ - انظر (الدر المنثور) للسيوطي ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٥٨٣ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٤٣ .

٣ - انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص ٨٦ .

٤ - الواسطة أي إحضاره في الذهن أحد المعارف الأخرى من ضمير أو اسم إشارة أو موصول أو (أل) العهد أو الإضافة .

انظر مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني ضمن (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

٥ - مثل : التعظيم ، والإهانة ، والاستئذان ، والكناية عن معنى التناول ونقيضه ، والتسجيل .

انظر (علوم البلاغة) لأحمد المراغي ، ص ١١٤ .

٦ - قال ابن كثير : (الله) علم على الرب تبارك وتعالى يقال إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات ، م ١ ، ص ٢٠ .

٧ - الآية (١) .

ظهر العلم في هذه الآية ممثلاً في اسم الله الأعظم في موضعين :
 أولهما في مجال التقوى وهي من أعظم مقاصد التشريع^(١) . وقد كان ضمير
 الغائب يعني الجملة من حيث البناء النحوي ولكنه لا يقوم مقام لفظ الجلالة
 بلاغياً وذلك لأنه الاسم الجامع لجميع صفات الكمال^(٢) ولذا فهو أكبر داع
 (للامتثال بتربية المهابة وإخال الروعة)^(٣) ثم يظهر مرة أخرى في
 مجال الرقابة في جملة مؤكدة بعدة مؤكدات للغرض نفسه .

ومما جاء على عظمته قوله تعالى :

{ اللهُ لا إلهَ إلا هو ليجمعنكم إلى يومِ القيامةِ لا ريبَ فيه ومن
 أصدقُ من اللهِ حديثاً }^(٤)

بدأت الآية باسم الله الأعظم كأمكن دعامة لقواعد التوحيد التي تحملها
 الآية فتهيأ النفوس لمشهد الحشر الأعظم : { ليجمعنكم إلى يوم القيامة }
 هزة بعد هزة ، حيث تبدأ باسم الله الأعظم وتخبر بقسم محذوف جوابه مؤكد
 باللام والنون ، أصوات أشد على النفس من دوي الرعد تملأ الأفق وتبرهن
 على عظمة الله وشدة بأسه وقدرته ، فجمعت هذه الآية الموجزة (تمجيد
 الله، وتهديداً وتحذيراً من مخالفته ، وتقريراً للإيمان بيوم البعث ، ورداً
 للإشراك وإنكار البعث)^(٥) .

ثم ذيلت باستفهام إنكاري سد على منكري البعث كل منفذ (وأكد
 صدق أخباره ، كيف لا والكذب محال عليه سبحانه دون غيره)^(٦) .

١ - انظر (التحرير والتتوير) للظاهر بن عاشور ، ج ٤ ، ص ٢١٧ .

٢ - انظر (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .

٣ - تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٧٧ .

وكذا (محاسن التأويل) للقاسمي ، ج ٥ ، ص ٨ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة

الثانية ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

٤ - الآية رقم (٨٧) .

٥ - انظر (التحرير والتتوير) للظاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ١٤٨ .

٦ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٦١ .

ومن الأعلام الواردة في هذه السورة (إبراهيم) - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - فقد ورد ذكره في ثلاث آيات^(١) منها قوله تعالى :
 { ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسنٌ واتبع ملةَ
 إبراهيمَ حنيفاً واتخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً }^(٢)

المقطع الأول من الآية بدأ باستفهام إنكاري يجزم بأنه لا أحد أحسن ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، ثلاثة أوصاف يكمل بها معنى الدخول في الإسلام^(٣) تتمثل في ملة أبي الأنبياء - عليه السلام - (الذي اشتهر عند جميع الطوائف أنه ما دعا إلا إلى الله وحده وتبرأ مما سواه)^(٤) .

ثم يظهر هذا العلم مرة أخرى منبهاً على أنه جدير بالاتباع لاصطفاء الله - سبحانه وتعالى - له بالخلة^(٥) ، وإظهار اسمه - عليه السلام - تفضيلاً وتتصيصاً على أنه الممدوح^(٦) .

ومن الأعلام الوارد ذكرها في سورة النساء (جهنم) ، وهي علم على نار الله الموقدة^(٧) التي أعدها سبحانه لأعدائه - أعاننا الله من هذا المصير - وقد ورد ذكر جهنم في أربع آيات^(٨) منها قوله تعالى :

١ - الآيتان (٥٤ و ١٦٣) والآية موضع الدراسة (١٢٥) .

٢ - الآية (١٢٥)

٣ - انظر (التحرير والتوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ٢١١ .

٤ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٤١٧ .

٥ - انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج ٢ ، ص ٤٣٠ ، تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود و د. جاد مخلوف جاد و د. زكريا عبد المجيد النوتي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

٦ - انظر (روح المعاني) للألوسي ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ١٥٤ .

٧ - انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني مادة (جهنم) ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ، دار انقلم ، دمشق ، سوريا ، ودار الشامية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

٨ - منها قوله تعالى : { ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً } . الآية (٩٣) .

ومنها قوله تعالى : { أولئك مأواهم جهنم ولا يجيئون عنها محيصاً } . الآية (١٢١) . =

{ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفراً بها
ويُسْتَهْزَأُ بِهَا فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إن
مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً }^(١) .

لا تخفى على متأمل لهجة الغضب الشديدة التي تتحدث عن عظم
حرمة آيات الله ، وأن مجالسة الخائضين فيها بما لا يليق جرم عظيم وهل
بعد جهنم من عقاب ؟ (فاشتد حسن ختم الآية بجمع الفريقين في جهنم ...
التي هي سجن الملك سبحانه كما جمعهم معهم مجلس الكفر الذي هو طعن
في ملك الملك)^(٢) ، وكذا حسن تذييل الآية بهذا العلم لما يدل عليه من عظم
الوعيد المساوي للجرم .

٣- اسم الإشارة :

الهدف الرئيس منه تمييز المشار إليه بواسطة الإشارة إليه حساً ،
وذلك مما تحتاجه هذه السورة التي طرحت الكثير من قضايا التشريع في
مجتمع يتلقى منهجه من القرآن الكريم ؛ فاحتيج فيها إلى ورود اسم الإشارة
ثنتين وأربعين مرة جاءت موزعة على النحو التالي :

سبع عشرة مرة أتت الإشارة بـ (ذلك) ، وأربع عشرة مرة أتت
بـ (أولئك) ، وست مرات بـ (هؤلاء) ، أما (هذه) فتلاث مرات ،
وأنت الإشارة بـ (تلك) مرة واحدة ، و (ذلك) مجرورة بكاف التشبيه
مرة واحدة .

= ومنها قوله تعالى : { إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً } .

الآية (١٦٩) . والرابعة الآية موضع الدراسة .

١ - الآية (١٤٠) .

٢ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٢٣٩ .

وقد ذكر البلاغيون^(١) عدة معانٍ لاسم الإشارة منها : تعظيم المشار إليه ، والاستغراب ، والتعريض ، والتحقير ، وكمال العناية ، والتنبيه على المشار إليه المعقب بأوصافٍ جديرٍ لأجل تلك الأوصاف بما ذكر بعد اسم الإشارة ، ولكن وجدت أن من أبرز الأغراض التي حققها اسم الإشارة في هذه السورة المباركة ذات الأسلوب التعليمي :

أ - التعليل :

وهو هدف عظيم استخدمه أسلوب القرآن ليناقدش العقول ويطمئن القلوب ، ومن أمثلته قول الله تعالى :

{ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثِلَاتٍ وَرِبَاعٍ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا }^(٢) .

الآية تحث على التقليل من الزوجات ، وهو أمر يغالب فطرة الرجل ، لذا أوضح - سبحانه وتعالى - علة ذلك بقوله : " ذلك أدنى ألا تعولوا " لتتغلب عقولهم على أهوائهم ويحذروا مغبة الإسراف في جمع الزوجات ، فكان هذا التعليل خير علاج .

١ - انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

وكذا (الإيضاح) للخطيب القزويني ، ص ١١٨ .

وكذا (علوم البلاغة) للمراغي ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

وكذا (البلاغة فنونها وأفنانها) للدكتور فضل حسن عباس ، ص ٣٠٢ - ٣٠٦ ، دار

انفرقان ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

وكذا (جواهر البلاغة) للهاشمي ، ص ١٠٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،

الطبعة بدون .

وكذا (كشف الغموض عن فوائد البلاغة والعروض) دكتور الأيوبي و دكتور ديب ، ص

٤٥ ، دار الشمال ، طرابلس ، لبنان ، الطبعة الولي ، ١٩٩٠م .

٢ - الآية (٢) .

وقريب منه قوله تعالى :

{ ومن لم يستطع منكم طويلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيماكم من فتياتكم المؤمنات ... } إلى قوله تعالى : { ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفورٌ رحيمٌ }^(١) .

المشار إليه في هذه الآية الكريمة تلك الفسحة في نكاح الأمة لمن يعجزه الصبر حتى يجد ما ينكح به الحرة . يؤكد قوله تعالى : " وأن تصبروا خير لكم " . والإشارة إلى نكاح الإماء^(٢) عللت الرخصة فيه .

ب - إثبات الصفات الواردة بعد اسم الإشارة للمشار إليه^(٣) :

ومنه قوله تعالى :

{ تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم }^(٤) .

في اسم الإشارة (تلك) إشارة إلى ما مر من الأحكام في شؤون اليتامى وغير ذلك^(٥) ، أسماها الله حدوداً لأن الشرائع كالحدود ، ودل على تعظيمها سبحانه بنسبتها إليه وباستعمال اسم الإشارة الدال على البعد ، وأردفه بشرط يحمل البشرى لمن أراد أن يطيع الله ورسوله ، وأشار إليه

١ - الآية (٢٥) .

ومنه الآية (٥٩) والآيات (٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩) ، والآية (١١٤) .

٢ - انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج ١ ، ص ٢٦٣ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥١٠ .

٣ - جاء في بعض كتب البلاغة بعنوان كمال العناية وتمييزه أكمل تمييز أو قريب منه .

انظر (الإيضاح) للخطيب القزويني ، ص ١١٨ .

٤ - الآية (١٤) .

٥ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٩٢ .

وكذا (الكشاف) للزمخشري ، ج ١ ، ص ٢٥٥ .

باسم جديد يدل على التعظيم أيضاً لما فيه من معنى البعد ، وجعل دخول الجنات موصوف بما ذكر بعد اسم الإشارة^(١) .

وجاء على شاكلته قوله تعالى :

{ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً * وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً }^(٢).

اسم الإشارة في الآية الأولى " أولئك " (للنتبيه على استحضر المشار إليه باعتبار الأوصاف المتقدمة البالغة غاية الخوف من الله والمبادرة في طلب مرضاته ليُعرف أنهم أحرىء بمدلول المسند الوارد بعد الإشارة والمعنى هؤلاء هم الذين جعلهم الله مستحقين قبول التوبة منهم)^(٣) .

وعلى نقيضهم أولئك العصاة الكفرة ، استحقوا بجرمهم تلك الأوصاف التي جاءت بعد اسم الإشارة الدال على البعد (للإيدان بترامي حالهم في الفظاعة وبعد منزلتهم في السوء)^(٤) ، والفريقان ممن أحر التوبة حتى حضرته الوفاة ، وممن مات على الكفر . أما من تاب من قريب فالإشارة بالبعد تدل على عظم توبته . ومثله كثير في هذه السورة العظيمة^(٥) .

١ - تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٩٤ .

٢ - الآيتان (١٧ و ١٨) .

٣ - انظر (التحرير والتوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ .

٤ - انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٩٨ .

٥ - تأمل الآية (٤١) وكذا الآيتين (٥١ و ٥٢) وكذا الآيتين (٦٩ و ٧٠) .

ج - التعظيم من شأن المشار إليه :

ويندرج تحته : علو المرتبة ، والتهويل ، والتحقير ، والتخويف ،
والتفصيل ، وغير ذلك. انظر إلى قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدْوَانًا وظُلْمًا فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً }^(١)

الإشارة إلى القتل خاصة وما قبله من أكل الأموال^(٢) بالباطل ؛ وهذا
أمر متناهٍ في الفساد فالإشارة إليه دلت على فداحة الخطب وعظم الجرم ،
يؤكد هذا (ما فيه من معنى البعد للإيدان ببعد منزلهما في الفساد)^(٣)
أما الإشارة الثانية فهي إلى أمر أعظم (إلى إصلاحه النار ويسره
عليه تعالى وسهولته لأن حجته بالغة ، وحكمه لا معقب له)^(٤) وفيه من
الوعيد ما يخوف الله به عباده .

ومما جاء لتعظيم أمر المشار إليه قوله تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا }^(٥) .

دل اسم الإشارة (ذلك) على الأمر الكبير العظيم^(٦) الذي لا يوجد
أكبر منه ظلماً وكل أمر دونه هين ، ولقد تكرر هذا المعنى في قوله تعالى :
{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا }^(٧) . لبيان أن الشرك أبعد ضلالاً .

١ - الآيتان (٢٩ و ٣٠) .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥١٤ .

٣ - المرجع السابق الصفحة نفسها .

٤ - انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

٥ - الآية (٤٨) .

٦ - انظر (نظم الدرر) للإمام البقاعي ، ج ٥ ، ص ٣٩٧ .

٧ - الآية (١١٦) .

وقد تجمع الآية عدة أسماء للإشارة يرمي كل واحد منها إلى هدف معين . اسمع قوله تعالى :

{ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهْمُ حَسَنَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهْمُ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُوَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا }^(١) .

تضافت أهداف عدة في هذه الآية كعادة أسلوب القرآن الكريم ، الأول منها تعيين المشار إليه في ذهن السامع والتركيز عليه ، وثمة هدف آخر هو التأكيد على الأوصاف الواردة بعد اسم الإشارة ونسبتها للمشار إليه ؛ فبزعمهم ينسبون السيئة للنبي - صلى الله عليه وسلم - تشاؤماً به - حاشاه ذلك بأبي هو وأمي - ؛ ولذا ذيلت الآية باستفهام إنكاري تبعه اسم إشارة آخر (هؤلاء) ليدل على المبالغة في قلة فهمهم وتعقلهم حتى نفيت عنهم مقاربة الفقه^(٢) (فحقرهم سبحانه بقوله " هؤلاء " وكأنه قال " القوم " الذي هو دال على القيام والكفاية إما تهكماً بهم ، وإما نسبة لهم إلى قوة الأبدان وضعف المكان)^(٣) .

وقد جاء من هذا القبيل كثير من الآيات لا يسع المقام مناقشتها جميعاً^(٤) .

١ - الآية (٧٨) .

٢ - انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

وكذا (الكشاف) للزمخشري ، ج ١ ، ص ٢٨٣ .

٣ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٣٣٦ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٦٩ .

٤ - انظر على سبيل المثال الآية : (٤١) وكذا الآيتين : (٦٢ و ٦٣) وكذا الآية : (٩٤) والآية

(١٠٩) والآيتين : (١٢٠ و ١٢١) والآية : (١٣٣) وكذا الآية : (١٤٣) والآية : (١٥٣)

وكذا (١٢٤) وكذا الآية : (١٤٦) .

٤- الاسم الموصول :

هو من أدق أنواع المعارف والحاجة إليه تكمن في صلته ؛ كما قال السكاكي (*) : (أما الحالة التي تقتضي كونه موصولاً - يريد المسند إليه - فهي متى صح إحضاره في ذهن السامع بوساطة ذكر جملة معلومة الانتساب إلى مشار إليه واتصل بإحضارها بهذا الوجه غرض) (١) .

ورد الاسم الموصول في سورة النساء أكثر من مائة وخمسين مرة ، وبالإستقراء وجدت أن الأغراض التي يحققها هذا الاسم كثيرة الجامع بينها جميعاً التوضيح . وقد اخترت نماذج منها محاولة تصنيفها على الأنواع الأكثر شيوعاً ، والتي ترتبط بمحاور السورة الأساسية ورتبتها حسب أسبقية ورودها على النحو التالي .

أ - التعليل :

من أمثلته قوله تعالى :

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً } (١) .

* هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكي المتوفى سنة ست وستين وثمانئة من الهجرة ، من رجال البلاغة في القرن السابع ، وله مؤلفات شتى ، منها (مفتاح العلوم) .
انظر (تاريخ البلاغة) د. عبد العزيز عتيق ، ص ٢٧١ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون ، ١٩٧٠ م .

١ - انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص ٨٦ ، ٧٦ .

وكذا (الإيضاح) للقزويني ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

وكذا (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٣٠٢ وما بعدها .

وكذا (علوم البلاغة) للمراغي ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

٢ - الآية (١) .

جاء الموصول الأول صفة معلقة لأعظم أمر (جار على أن الوصف الذي علق به الحكم علة موجبة له ، أو باعثة عليه داعية له)^(١) ، وهل أعظم من الخلق منة ، فالأمر بتقوى صاحب القدرة العظيمة والنعمة الجسيمة أكبر برهان على وجوب الامتثال ؛ ولهذا أكد بإعادته مع تذكيرهم بما اعتادت نفوسهم تعظيمه حتى في جاهليتهم^(٢) ، فكان إعادة الأمر بالتقوى مع الاسم الموصول وصلته تأكيداً للأمر الأول^(٣) ، وفي هذه الصلة براعة استهلال مناسب لما اشتملت عليه السورة من الأغراض الأصلية ، فكانت بمنزلة الديباجة الرائعة لكل ما جاءت به هذه السورة الشريفة من تشريعات وأحكام ومعاملات وسلوكيات .

ومنه قوله تعالى :

{ ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً }^(٤) .

الحاجة المعنوية لاسم الموصول ماسة جداً حتى تجري على الأموال تلك اللفظة المهمة الموضحة في جملة الصلة ، قال ابن عاشور : (فجاء في الصفة بموصول إيماءً إلى تعليل النهي ، وإيضاحاً لمعنى الإضافة)^(٥) في " أموالكم " ، حيث وصف هذه الأموال بالاسم الموصول موضعاً في صلته علة النهي الذي بدأت به الآية ، فإنها وإن كانت في ظاهرها تخص بعضهم ولكنها في حقيقتها مال الله وضعه أمانة عند بعض الأثرياء ليبتليهم به ، فينبغي صرفه لما يعود على الجميع بالنفع العام فهو قوام الأمة بأسرها .

١ - انظر (روح المعاني) للأكوسي ، ٢م ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .

٢ - أي سؤال بعضهم بعضاً بالله تعالى بأن يقولوا : أسألك بالله وأنتدك الله على سبيل الاستعطاف وكذا : أسألك بالله وبالرحم .

انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٧٧ .

٣ - انظر تفسير (روح المعاني) للأكوسي ، ٢م ، ج ٥ ، ص ١٨٣ .

٤ - الآية (٥) .

٥ - انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٤ ، ص ٢٣٥ .

ومنه قوله تعالى :

{ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهنّ أربعة منكم
فإن شهدوا فأمسكوهنّ في البيوتِ حتى يتوفاهنّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهنّ
سبيلاً } (١) .

لقد خصصت جملة الصلة تلك الفئة من النساء بصفة تعلل الحكم
الذي قضى به الحق - سبحانه وتعالى - به عليهن .
ومنه قوله تعالى :

{ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا لما نزلنا مصداقاً لما معكم من
قبل أن نطمسَ وجوهاً فنردّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب
السبتِ وكان أمر الله مفعولاً } (٢) .

جاء الموصول الأول وصلته تعليلاً كافياً (لإيجاب الامتثال بالأمر
الذي يعقبه والتحذير من مخالفته) (٣) لكونهم أهل دين سماوي يعلمون
حقيقة ما أنزله الله على محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وهم مأمورون
بالإيمان به .

وجعلت الصلة هنا في الخطاب " الذين أوتوا الكتاب " وفي آية سابقة
" أوتوا نصيباً من الكتاب " (٤) لما في الموضوعين من تفاوت لأن ذلك جاء في
مقام التعجب والتوبيخ ، فمناسبتة صلة مؤذنة بتهوين شأن عملهم بما أوتوه

١ - الآية (١٥) .

ذهب كثير من المفسرين إلى أن ما أبهم في هذه الآية قد حدد في سورة النور وأن الفاحشة
هنا هي الزنا هناك، والسبيل هو الحكم الذي حدد فيها . وانفرد مجاهد برأي قد يكون هو الأقرب
بدلالة الموصول عليه ، فالمراد بالفاحشة هي الساحقة لأن الاسم الموصول الوارد في النص مختص
بالنساء ، والسدازان في الآية التي تليها مختص بالذكور وعقوبة النساء الحبس وعقوبة الرجال الأذى
فتكون هاتان الآيتان وآية النور قد استوفت أصناف الزنا . ويؤيد هذا قوله : " من نسائكم : وقوله :
" منكم " . انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

٢ - الآية (٤٧) .

٣ - انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٣٠ .

٤ - جزء من الآية (٤٥) .

من الكتاب ، أما هنا فجاء في مقام الترغيب ، فمناسبتة صلة تؤذن بأنهم عرفوا بإيتاء التوراة لتثير همهم للاتسام بسيم الراسخين في جريان أعمالهم على وفق ما يناسب ذلك^(١) .

(وحيء بالصلتين في قوله تعالى : " بما نزلنا " وقوله : " بما معكم " دون الاسمين العلمين وهما : القرآن والتوراة ، لما في قوله : " بما نزلنا " من التذكير بعظم شأن القرآن أنه منزل بإنزال الله ، ولما في قوله : " لما معكم " من التعريض بهم في أن التوراة كتاب مستصحب عندهم لا يعلمون منه حق علمه ولا يعملون بما فيه)^(٢) .

ب - التعميم :

اسمع قوله تعالى :

{ ولله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً }^(٣) .

ليس أوضح من هذا العموم الذي مثلته (ما) في هذه الآية الكريمة ، فكل الموجودات ملك له دون منازع (فيدل ذلك على كمال سعته وعظيم قدرته)^(٤) ، وأكد هذا المعنى في إعادة الموصول نفسه في قوله تعالى : { وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض } ، أي (وأنتم مملوكون له فلا يناسب أن تكفروا ... والله ما في سمائه وأرضه يوحدته ويعبده ولا يعصيه)^(٥) .

١ - انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ٧٨ .

٢ - المرجع السابق الصفحة نفسها .

٣ - الآية (١٣١) .

٤ - انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٩٢ .

٥ - انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٣٦٦ .

ومن هذا قوله تعالى :

{ لرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلّ منه أو كثر نصيباً مفروضاً }^(١) .

لقد تكرر الاسم الموصول ليقرر مع صلته أنه (لا فرق بينهن وبين الرجال في القرب الذي هو سبب الإرث)^(٢) (وعليه تأكيد حقهن في عموم الإرث ... وزاد الحكم تحقيقاً الموصول الثالث وصلته في قوله تعالى : " مما قلّ منه أو كثر " فللفريقين حق من كل ما جل ودق)^(٣) أي عموم الإرث .

ج - الإيماء والإشارة :

قد يأتي الاسم الموصول للإيماء والإشارة إلى نوع الخبر من مدح وذم وعقاب وغير ذلك ، حيث ينتبه الفطن من فاتحة الكلام إلى خاتمته ، ويدرك ما تومئ إليه من المقاصد^(٤) ، وذلك كقوله تعالى :

{ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً }^(٥) .

أراد الحق تبارك وتعالى أن ينبه عباده إلى أمر قد يكون خافياً على كثير منهم خصوصاً من ألته العافية في حاله وعياله عن مراعاة الله في غيره (فجيء بالموصول لأن الصلة لما كانت وصفاً مفروضاً حسن التعريف بها إذ المقصود تعريف من هذه حاله وذلك كاف في التعريف للمخاطبين بالخشية إذ كل سامع يعرف مضمون هذه الصلة لو فرض

١ - الآية (٧) .

٢ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٢٠٠ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٨٧ .

مثله الآية رقم (٣) والآية رقم (١٦٦) .

٤ - انظر (علوم البلاغة) للمراغي ، ص ١١٧ .

٥ - الآية (٩) .

حصولها له إذ هي أمر يتصوره كل الناس^(١) فنبهوا إلى العاقبة ليكون
الوعظ بمضمون الصلة رادعاً عن الظلم .

ومن هذا قوله تعالى :

{ والله يريد أن يتوبَ عليكم ويريدُ الذين يتبعون الشهوات أن
تميلوا ميلاً عظيماً }^(٢)

في الآية الكريمة مباينة عجيبة بين (كمال منفعة ما أراده الله تعالى
وكمال مضرة ما يريدُه الفجرة)^(٣) عباد الشهوات والذي يريدُه عباد
الشهوات من المؤمنين إمالتهم عن طريق النجاة . وهذه النتيجة دلّ عليها
الكلام باتصاف "الذين" بجملة الصلة وهي " يتبعون الشهوات " .

ومنه قوله تعالى :

{ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها
الأنهار خالدين فيها أبداً وعدّ الله حقاً ومن صدق من الله قليلاً }^(٤).

حملت هذه الجملة البشرى من بدايتها فكان الموصول وصلته منبهاً
على خاتمة الكلام الذي جاء نتيجة طبيعية لما في حيز الصلة .

٥- التعريف بأل .

يأتي لغرضين رئيسين هما :

أ - تعريف الجنس .

ب - تعريف العهد .

١ - انظر (التحرير و التتوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٤ ، ص ٢٥٢ .

٢ - الآية (٢٧) .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥١٢ .

٤ - الآية (١٢٢) .

وكل من هذين الصنفين يتفرع عنه أقسام أخرى^(١) وما يعيننا منها هنا تلك اللفظات البلاغية الدقيقة التي تكسبها — ال — اللفظة المعرفة بها ومن ثم تضيفها اللفظة على السياق ككل .

أ — (أل) لتعريف الجنس :

أولى مواضعها في أول آية في سورة النساء قال جل من قائل :
 { يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً }^(٢) .

قد افتتح الله عز وجل سورة النساء ببناء عام^(٣) تحمله أداة القريب والبعيد ليتخطى حدود المكان والزمان وجعل المنادى عامة الناس لما في الكلمة من التعريف — بال — التي تفيد استغراق الجنس الحقيقي (فالظاهر

١ — انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص ٨٨ و ٨٩ .

وكذا (الإيضاح) للخطيب ، ص ٢٧ .

وكذا (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٣٣٠ وما بعدها .

وكذا كتاب (معاني الحروف) للرماني ، ص ٦٥ ، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، السعودية ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ — ١٩٨٦م .

وكذا (مغني اللبيب عن كتب الأعراب) لابن هشام ، ج ١ ، ص ٤٩ وما بعدها ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

وقصرها صاحب (جواهر البلاغة) إلى سبعة أقسام موزعة على نوعين :

أ — لام العهد الخارجي وتحت أنواع ثلاثة : صريحي ، وكنائي ، وحضوري .

ب — لام الجنس وتحت أربعة أنواع : لام الحقيقة من حيث هي ، ولام الحقيقة في ضمن

فرد مبهم ، ولام الاستغراق الحقيقي ، ولام الاستغراق العرفي انظر ص ١٠٨ .

٢ — الآية (١) .

٣ — انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

وكذا (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ١٥٣ . وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ،

ص ٤٣٥ . وكذا (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ١٧١ . أو أي تفسير شئت .

في (الناس) العموم لأن الألف واللام فيه تفيدُه (١) وألزمهم جميعاً أمر التقوى لما فيه من صلاح الباطن والظاهر والفوز بالدارين .
ومنه قوله تعالى :

{ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً } (٢)

هذه الآية الكريمة جمعت أموراً عظيمة الشأن منها تكريم العظيم المنان لجنس الملائكة أمناء الحق بهذه الشهادة التي قرنت بشهادته سبحانه وتعالى .

ومن من الملائكة لا يشهد بهذا الحق (وهم حضور لإنزاله أمناء على من كان على يديه تبليغه) (٣) وقد جُمِعوا في أداة التعريف التي تفيد استغراق الجنس فكلهم شهداء (على صدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك) (٤) يا محمد - صلى الله عليه وسلم - وفيه من التسلية والتكريم لرسول الله الشيء العظيم (ولما كان يتوهم أن يفهم من ورود شهادتهم نقصاً نفاه المولى القدير) (٥) تعزيزاً لهذه الشهادة بقوله تعالى :
{ وكفى بالله شهيداً } .

ب - (أل) لتعريف العهد :

ومما يمثل هذا قوله تعالى :

{ ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها
واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً } (٦) .

١ - انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

٢ - الآية (٦٦) .

٣ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ١ ، ص ٥١٥ .

٤ - انظر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٥٩٠ .

٥ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي بتصرف يسير ، ج ٥١ ، ص ٥١٥ .

٦ - الآية (٥) .

لما ذكر سبحانه في الآية السابقة { وآتوا اليتامى } وهو أمر بأن تسلم إليهم أموالهم قابله بهذه في النهي عن إيتاء المال للسفهاء منهم مغبة التفريط فيه على وجه يضرهم في مستقبل حياتهم .

المفردة المعرفة بلام العهد : { السفهاء } يجوز أن يراد بها اليتامى لأن الصغر حالة السفه الغالبة فيكون مقابلاً لقوله تعالى : { وآتوا اليتامى }^(١) (لبيان الفرق بين الإيتاء بمعنى الحفظ والإيتاء بمعنى التمكين ، ويكون العدول عن التعبير عنهم باليتامى إلى التعبير هنا بالسفهاء لبيان علة المنع)^(٢) وإذا صح هذا فالألف واللام للعهد الكنائي أي اليتامى المعهود فيهم السفه خاصة^(٣) أما الخطاب فهو للأولياء فهو أن يؤتوا المبدزين من اليتامى أموالهم مخافة أن يضيعوها^(٤) فنزلت منزلة أموال الأولياء لقوله تعالى : { أموالكم } فكأن أموال اليتامى هي عين أموال الأولياء مبالغة في حملهم على المحافظة عليها^(٥) .

ومنه قوله تعالى :

{ وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً }^(٦) .

عدة كلمات معرفة — بال — ولكن ما يعنينا هي كلمة (القسمة) لأن — أل — بها تدل على العهد الذهني الذي مهدت له الآية السابقة عليها في قوله تعالى : { للرجال نصيب مما ترك الوالدان ... }^(٧) لأن تخصيص

١ — جزء من الآية (٢) .

٢ — انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ .

٣ — ويجوز أن يراد بالسفهاء مطلق من ثبت له السفه سواء كان عن صغر أم عن اختلال تصرف فتكون الآية تعرضت للحجر على السفه الكبير استطراداً للمناسبة وهذا هو الأظهر لأنه أوفر معنى وأوسع تشريعاً / المرجع السابق الصفحة نفسها .

٤ — انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ص ٤٨٤ ، .

٥ — المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٦ — الآية رقم (٨) .

٧ — جزء من الآية رقم (٧) .

أنصباء الورثة هو نفسه القسمة^(١) التي ذكرت هنا وعليه فهذه القسمة معهودة في ذهن السامع ولم يحتج فيها إلى مزيد توضيح لا بموصول وصلته ولا بوصف ولا غير ذلك لما قامت به (ال) العهد . فعجباً لأسلوب الذكر الحكيم !

٦ التعريف بالإضافة :

قال السكاكي : (أما الحالة التي تقتضي التعريف بالإضافة فهي متى لم يكن للمتكلم إلى إحضاره في ذهن السامع طريق سواها ... أخصر ولأن في الإضافة حصول مطلوب آخر مثل أن تغني عن التفصيل أو تتضمن اعتباراً لطيفاً مجازياً أو أن تتضمن نوع تعظيم ، أو نوع تحقير ، أو غرضاً من الأغراض ممكن التعلق بالإضافة)^(٢)

فالإضافة شأن عظيم في كلام العرب ، تراهم يعمدون إليها اختصاراً تلبيةً لحاجة في نفوسهم لسبب أو لآخر^(٣) (ومن شأنها الاختصاص لأنها تتناول الشيء من الجهة التي تختص منها بالمضاف إليه . فإذا قلت : " غلام زيد " تناولت الإضافة الغلام من الجهة التي تختص منها بزيد وهي كونه مملوكاً)^(٤) له . إذن الاختصار والاختصاص مطلبان رئيسيان للإضافة وعنهما تتفرع مطالب بلاغية أخرى كالتي ذكرها

١ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .

وكذا تفسير ابن كثير ، م ١ ، ص ٤٥٦ .

٢ - انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص ٨٩ .

٣ - من أبرز تلك الأسباب قدرة العظيم في تهيئة العرب بلاغياً إرهاباً لنزول القرآن الكريم فيهم وبلغتهم ؛ ليكون اعترافهم بإعجازه حجة على غيرهم في زمانهم والأزمة اللاحقة بهم . وذلك لما فطرت عليه نفوسهم من البلاغة المتمكنة المنبت الخصبة التربة .

راجع في هذا الفصل التمهيدي ،

٤ - انظر (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني ، ص ٣٦٢ .

السكاكي^(١) في مفتاحه وزاد عليها غيره^(٢) . وإليك بعض هذه الأغراض ممثلة في نماذج من سورة النساء المباركة .

أ - من أهم أغراض الإضافة : الاختصار .

ومن أمثله في سورة النساء قوله تعالى :

{ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً }^(٣) .

في الآية موضعان للإضافة يغنيان عن التفصيل : أولهما في قوله عز من قائل : "سبيل الله" ، والآخر في : "الظالم أهلها" ؛ فسبيل الله طرق كثيرة تجمع مجامع البر والخير من إعلاء لكلمة الله سبحانه ونشر دينه ونصرة عباده المستضعفين ، وأمور شتى جمعتها هذه الإضافة في كلمتين في حكم الكلمة الواحدة ، فكان قوله (سبيل الله عام في كل خير)^(٤) . وقد تكرر هذا في القرآن عامة وسورة النساء خاصة ، والهدف البلاغي منه إرادة الإطلاق بقدر ما في سبيل الله من سعة .

١ - انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص ٨٩ .

وانظر كذا (شروح التلخيص) وقد جعلوا لكل غرض أقساماً أخرى كثيرة ، ج ١ ، ص

٣٤٤ .

٢ - زاد المراغي أقساماً مثل أن تتضمن تحريضاً على الإكرام نحو : صديقك عندك . أو تهكماً نحو قوله تعالى : { إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون } الشعراء ، الآية (٢٧) .

انظر علوم البلاغة للمراغي ، ص ١٢١ وما بعدها .

وربما ما ذكره المراغي هو نفسه ما أشار إليه السكاكي بقوله : (اعتباراً مجازياً) وفي نظري أن الأغراض البلاغية لا تحد ولا تضبط ولكن يفسرها السياق دائماً ، والله أعلم وأحكم .

٣ - الآية (٧٥) .

٤ - انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٢٩٤ .

والإضافة الثانية في قوله : " أهلها " أضاف الأهل إلى الضمير العائد على القرية^(١) لتعني ذكر فئات كثيرة في هذا المجتمع الذي غلبته شقوته فراحوا يكيلون العداة وصنوف الأذى لتلك الفئة المستضعفة المتخلفة في مكة زمن الهجرة منها . وأهلها فئات كثيرة ، من سادة متجبرين أو أهل سوق متعسفين أو جيران سوء فاسقين ، كلهم تعاونوا على الإثم والعدوان وجمعتهم هذه الإضافة في اختصار عجيب . وقد علل أحد المفسرين ذكر أهل القرية دون القرية قائلاً : (وفي هذا نكتة بلاغية حسنة ، وهي : أن كل قرية ذُكرت في الكتاب العزيز فالظلم إليها ينسب بطريق المجاز كقوله تعالى : { وضربَ اللهُ مثلاً قريةً كانتَ آمنةً مطمئنةً } إلى قوله : { فكفرتْ بأَنعمِ اللهُ } ، وقوله تعالى : { وكمْ أَهلكنا من قريةٍ بطرتْ معيشتها } . وأما هذه القرية في سورة النساء فينتسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة ؛ لأن المراد بها مكة المكرمة ، فوُقرتْ عن نسبة الظلم إليها تشريفاً لها ، شرفها اللهُ }^(٢) .

ومنه قوله تعالى :

{ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا
إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا ... }^(٣) .

١ - انظر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٥٢٦ .

وكذا الشوكاني في (فتح التقدير) ، ص ٤٨٨ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة

بدون .

وكذا أبي حيان كلهم جعلوا القرية مكة المكرمة .

٢ - انظر (الانتصاف من شبه الكشاف) للإمام ناصر الدين أحمد الإسكندري المالكي

(ت ٦٨٣ هـ) بهامش (الكشاف) ج ١ ، ص ٥٤٢ .

والآيات على التوالي : (١١٢) ، سورة النحل . (٥٨) ، سورة القصص .

٣ - جزء من الآية (٣٥) .

الإضافة المقصودة في : (أهله و أهلها) أغنت كما نرى عن التفصيل المطلوب من هذه الجماعة أو تلك والقصد منها طرح قضية الخلاف بعيداً عن المشاحنات والعواطف لعلها تُحل وتنتهي بسلام .
ومنه قوله تعالى :

{ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى ... }^(١)
فكل قريب داخل تحت هذه الإضافة ووجوب الإحسان له على الإطلاق .

ب - الإضافة بغرض التعظيم :

وهذا كثير جداً في هذه السورة ومما جاء منه قوله تعالى :
{ تَاكَّ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }^(٢) .
أضيفت الحدود إلى أعظم لفظ حتى يتهيب المؤمنون مجاوزتها إيماناً منهم (بأن المكلف لا يجوز له أن يتجاوزها إلى غيرها)^(٣) ومع سعة هذه الحدود إلا أن الإضافة اختصرتها بقدر ما فيها من تعظيم ، فدخل في هذا التركيب الإضافي " حدود الله " كل ما ذكر من أحكام (من أول هذه السورة بل من أول القرآن)^(٤) ، ولا شك في أنها حدود جليلة النفع عظيمة الجدوى وزادها تعظيماً إضافتها إلى لفظ الجلالة (الله) .
ومنه قوله تعالى :

١ - جزء من الآية (٣٦) . وغيره كثير في هذه السورة .

٢ - الآية (١٣) .

٣ - انظر (روح المعاني) للأوسى ، ٢م ، ج ٤ ، ص ٢٣٣ .

٤ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٢١٣ .

{ وإذا جاءهم أمرٌ من الأمنِ أو الخوفِ أذاعوا به ولو ردُّوه إلى الرسولِ وإلى أولي الأمرِ منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتهُ لاتبعتمُ الشيطانَ إلا قليلاً }^(١) .

التركيب الإضافي المقصود : { فضل الله } وأي عظمة تضاهي هذه العظمة فالفضل شيء تعظمه النفوس وناهيك عندما يكون منه سبحانه . أجمع المفسرون على أن هذا الخطاب للمؤمنين^(٢) وقد تألوه في أشياء كثيرة ولكن فضل الله لا يعد ولا يحصى .

وقد يصاحب التعظيم تخويف وتهديد مثل قوله تعالى :

{ يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمسَ وجوهاً فنردّها على أدبارها أو نلغنها كما لغنا أصحابَ السبتِ وكانَ أمرُ اللهِ مفعولاً }^(٣) .

التركيب الإضافي المقصود هنا هو { أمر الله } وقد حمل مع التعظيم لهذا الأمر تخويف وتهديد ووعيد بوقوعه لا محالة .

ج - التحريض على الإكرام :

مثل قوله تعالى :

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكم رقيباً }^(٤) .

الإضافة الموجبة للإكرام في قوله تعالى { ربكم } لأن فيها دليل على

قرب الله سبحانه برحمته من عباده وإكرامه لهم بما يقتضي معنى التربية

١ - الآية (٨٣) .

٢ - انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٣٠٧ .

٣ - الآية (٤٧) .

٤ - الآية رقم (١) .

وهو الغني عن ذلك ، إلا أن أسلوب القرآن لا يترك طريقاً للدعوة إلا سلكه بأروع ما تكون الحجة والبرهان .

ومنه قوله تعالى :

{ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ... }^(١) .

الإضافة تحمل معنى التكريم في قوله تعالى : { رسول الله وكلمته } فكونه كذلك فهو مستحق غاية الإكرام منهم ومن غيرهم فأكرموه لهذا وانتهوا عن غلوائكم التي لا طائل من ورائها إلا الخسران المبين .

د - ومن الإضافة ما حمل معنى التحقير :

في قوله تعالى : { أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت }^(٢) ، ومنه قوله تعالى : { ولا تهنوا في ابتغاء القوم }^(٣) .

هذه الإضافات دلت على تحقير المضاف وحطت من قدره ، وبيان ذلك أن في قوله تعالى : { أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت } حمل هذا التهديد الخزي والعار والتحقير لليهود حيث ذكرهم المولى بتلك اللعنة التي نزلت بأجدادهم لعصيانهم الحق فمسخهم قردة وخنازير ، وهم يعلمون ذلك يقيناً بدليل قوله تعالى : { ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين }^(٤) .

١ - جزء من الآية (١٧١) .

٢ - جزء من الآية (٤٧) .

٣ - جزء من الآية (١٠٤) .

٤ - سورة البقرة ، الآية (٦٥) .

وفي قوله تعالى : { ولا تهنوا في ابتغاء القوم } ، الابتغاء مصدر ابتغى بمعنى الطلب^(١) فإضافة هذا الابتغاء إلى لفظ القوم ينبئ عن التحقير لشأنهم ، إذ تستخدم كلمة القوم في أحد وجوهها للتحقير ، وقد ظهر هذا جلياً في قوله تعالى :

{ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً }^(٢) .

فيذا دلت الإضافة على تحقير المطلوبين وتهوين أمرهم في أعين المسلمين ولا شك أن أعداء الله كذلك لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين بعثاً على تشجيع المؤمنين للقتال ؛ لأن في الجملة كناية عن المبادرة بالغزو^(٣) .

٧- الخروج على مقتضى الظاهر :

وبعد أن صحبنا المعارف كلاً على حدة يتبادر إلى الذهن سؤال : هل تحل إحدى تلك الأنواع محل الأخرى ؟ وما الغرض من ذلك ؟ نجد البلاغيين - رحمهم الله تعالى - قد نبهوا إلى ذلك في دراسة خاصة هي : وضع المضمرة موضع المظهر وعكسه ، وتغيير أساليب الخطاب من حالة إلى أخرى مما يعرف باسم الالتفات^(٤) . وفي سورة النساء شواهد رائعة على بلاغة هذه الأساليب العربية ودقة أدائها للمعنى .

١ - قال الراغب الأصفهاني : الابتغاء حُص بالاجتهاد في الطلب ، فمتى كان الطلب لشيء محمود فالابتغاء فيه محمود، نحو { ابتغاء رحمة من ربك } الإسراء (٢٨) ، { إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى } الليل (٢٠) ، انظر (المفردات) ، مادة (بغى) .

٢ - الآية (٧٨) .

٣ - انظر (التحرير والتوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ١٩٠ .

٤ - انظر (دراسة الالتفات البلاغي ، تراث المصطلح ومعاصرة المفهوم) ، محاضرة بقلم أ.د.عبد العزيز أبو سريع ياسين ، مجلة الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى ، ١٤١٨ هـ - ١٤١٩ هـ ، ص ٨٩ وما بعدها .

أولاً : وضع المظهر موضع المضمرة :

يخرج المظهر موضع المضمرة في مواطن كثيرة في الكلام العربي وفي القرآن الكريم بالذات ، ووراء ذلك أغراض بلاغية تلمح من السياق ، وقد وجد البلاغيون أن لفظ الجلالة في { الله الصمد } في قوله تعالى :
{ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ }^(١) .

يمكن الاستغناء عنه بضميره لسبق ذكره ، ولكن ذكره قوى إسناد الحكم وزاده تأكيداً وتمكيناً في ذهن السامع^(٢) ؛ (لأن الظاهر لما وقع في غير موقعه كان كحدوث شيء غير متوقع فأنثر في النفس تأثيراً بليغاً)^(٣) . واعتبروا هذا غرضاً يمكن أن يكون في كل موضع ، وقد يصحبه أغراض بلاغية أخرى تتبع سياق الأساليب . ومن أمثله في سورة النساء قوله تعالى :

{ فقاتل في سبيلِ اللهِ لا تكلفُ إلاّ نفسكَ وحرّضِ المؤمنينَ عسى اللهُ أنْ يكفَّ بأسَ الذينَ كفروا واللهُ أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً }^(٤) .

موضع الشاهد قوله تعالى : { والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً } حيث ذكر لفظ الجلالة بدل ضميره ؛ ليفيد زيادة تمكين لمعنى البأس والتكليف في نفوس السامعين . وقد ترجم المفسرون ذلك بقولهم : (وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتغليب الحكم وتقوية استقلال الجملة)^(٥) أي جملة التذييل . ومثله قوله تعالى :

١ - الآيتان (١ ، ٢) ، سورة الإخلاص .

٢ - انظر (مواهب الفتاح) لابن يعقوب المغربي ضمن (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٤٥٧ .

٣ - انظر حاشية الدسوقي على شرح السعد ضمن (شروح التلخيص) ، الصفحة السابقة .

٤ - الآية (٨٤) .

٥ - انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٥٥٩ .

وكذا (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٩٧ .

{ فما لكم في المنافقين فنتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهودوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً } (١) .

لا يخفى أن ظهور لفظ الجلالة في قوله : { ومن يضل الله } بدل ضميره يضيف إلى ما هو موجود في الغرض العام غرضاً خاصاً هو التبيين من هداية هذه الفئة الضالة وكل من حقت عليه الضلالة جزاء عمله . ومثله أيضاً قوله سبحانه :

{ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً } (٢) .

فظهر لفظ الجلالة في مقام الاستغفار له وقع عظيم على النفس المؤمنة ، فهو كالدواء الناجع لتلك النفوس العليلة . ولمثل هذه النكتة اللطيفة يظهر لفظ الجلالة في جمل التذييل القرآنية ومنها سورة النساء (٣) .

ومثله مع شدة حاجة السياق لذكره قوله تعالى :

{ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله إليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً } (٤) .

موضع الشاهد : { وأنزل الله عليك الكتاب } ، ظهر لفظ الجلالة تعظيماً لأمر الكتاب ، ودحضاً للجاحدين المعاندين صدق إنزاله منذ عهده الأول وحتى تقوم الساعة ، وتصديقاً لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ،

١ - الآية (٨٨) .

٢ - الآية (١١٠) .

٣ - انظر الآيات (١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ،

٦٤ ، ٧٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٣١ ،

١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٦)

٤ - الآية (١١٣) .

ولمثلة أعيد ذكر لفظ الجلالة في قوله تعالى : { وكان فضل الله عليك عظيماً } .

وقد يذكر الاسم الظاهر بدل الضمير لخصوصية يحملها ذلك الاسم تضيي على السياق معنى خاصاً مقصوداً بعينه مثل قوله تعالى :
 { وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ
 إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً }^(١) .

ظهر اسم الخليل - عليه السلام - للمرة الثانية بدل ضميره تكريماً له وإعزازاً لارتباطه بلفظ الجلالة في : { واتخذ الله إبراهيم خليلاً } ؛ لأنه خص بكرامات تشبه كرامات الخليل عند خليله من بينها التلذذ بذكر اسمه ، و (لتفخيم شأنه ، والتتصيص على أنه الممدوح)^(٢) . ولمثل ذلك جاء ذكر المؤمنين في قوله تعالى :

{ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا }^(٣) .
 ومثله قوله تعالى :

{ أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ... }^(٤) .

وقوله تعالى :

{ أَيْبِتُغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا }^(٥) .

وعلى نقيض ذلك نجد ذكر الشيطان في قوله تعالى :

{ الَّذِينَ آمَنُوا يقاتلونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يقاتلونَ فِي سَبِيلِ
 الطَّاغوتِ فَقاتلوا أولياءَ الشَّيطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيطانِ كانَ ضَعيفاً }^(٦) .

١ - الآية (١٢٥) .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٨٨ .

٣ - الآية (١٤٦) .

٤ - جزء من الآية (١٢٨) .

٥ - جزء من الآية (١٣٩) .

٦ - الآية (٧٦) . ومثلها الآيتان (١١٩ ، ١٢٠) .

كان يغني عن إعادة ذكره القول : " إن كيده " ، ولكن لظهور لفظ الشيطان هنا مغزى جليل حيث الموازنة العقلية بين فريقين متباينين أشد التباين في الغاية والنتيجة : فريق المؤمنين ، وغايتهم في كافة أعمالهم رضا الله سبحانه وتعالى ، فهو - عز جاره - وليهم وناصرهم ، فلا بد أن يكونوا هم الغالبين ؛ لأن عزة الله لا تضاهيها عزة . وعلى النقيض أولياء الشيطان الموصوف سابقاً بالوهن والخذلان حتى قبل كيده بدليل (كان) . ومن هنا كان لظهور كلمة الشيطان بدل ضميره تأكيداً على تلك المعاني التي يتصف بها وتتسحب على متبعيه^(١) .

وكذلك نجد ذكر الكافرين في قوله تعالى :

{ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَوْ نَسْتَحِذُ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا }^(٢) .

إعادة لفظ (الكافرين) في : { ولن يجعل الله للكافرين } مع إمكان الاستغناء عنه بضميرهم إشعاراً باشتراك المنافقين معهم بالكفر ، وتبنيهاً على تأصل النفاق في أنفسهم^(٣) ، وتفسيراً من حالهم . وقريب منه قوله تعالى :

١ - انظر (التفسير الكبير للرازي) ، ج ١٠ ، ص ١٨٤ .

وكذا (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٢٩٦ .

٢ - الآية (١٤١) . ومثله قوله تعالى :

{ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَنَكُمْ

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا } ، الآية (١٠١) .

٣ - ذكر ابن عطية خبراً عن يسيع الحضرمي ، قال : (كنت عند علي بن أبي طالب فقال له رجل : يا أمير المؤمنين أ رأيت قول الله تعالى : { ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً } كيف ذلك وهم يقاتلوننا ويظهرون علينا أحياناً ؟ فقال علي رضي الله عنه : " معنى ذلك : يوم القيامة يكون الحكم " . وبهذا قال جميع أهل التأويل) .

انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا } (١) .

فقله تعالى : { أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ } (أي : أَعْتَدْنَا لَهُمْ ، وَإِنَّمَا وَضَعَ الْمَظْهَرُ مَكَانَ الْمَضْمَرِ ذِمًّا لَهُمْ ، وَتَذْكَيرًا بِوَصْفِهِمْ ، أَوْ لِجَمِيعِ الْكَافِرِينَ وَهُمْ دَاخِلُونَ فِي زِمْرَتِهِمْ دَخُولًا أَوْلِيًّا) (٢) . فَذَكَرُوا بِهَذَا الْوَصْفِ الشَّنِيعِ الْمُؤْذِنِ بِعَلَّةٍ (٣) إِعْدَادَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَنُونَ الْعِظْمَةِ تَشْفِيًّا فِيهِمْ .

ففي كل ما سبق كان يغني الضمير ولكن إعادة الاسم الظاهر له وقع عظيم على النفس لما في الاسم الظاهر من وضوح الدلالة وتأكيد ما لا يوجد في الضمير .

وهكذا نجد أن قدرًا كبيراً من التأثيرات يظل الاسم الظاهر محتفظاً بها ، ولا يستطيع الضمير حملها نيابة عنه ؛ لأنها تتولد حين يقرع اللفظ السمع بجرسه وارتباطاته المختلفة جد الاختلاف ، والتي اكتسبتها في قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف (٤) .

ثانياً : وضع الضمير موضع الاسم الظاهر .

(الأصل لا يُنكر - الضمير - إلا وقد سبقه ما يعود عليه ليكون المقصود بالكلام واضحاً . تقول : " لقيت زيدا وأكرمته " ، فتذكر الضمير

١ - الآيات (١٥٠ ، ١٥١) .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٦٠١ .

٣ - انظر (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٦ ، ص ٥ .

٤ - انظر (خصائص التراكيب) للدكتور محمد أبي موسى ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة .

في أكرمته لأنه سبقه ما يعود عليه ، ولا تقول " لقيته " هكذا ، ابتداء ؛ لأن ذلك ضرب من التعمية والإلباس يناقض القصد من اللغة والبيان (١) .
ولكن لنكات بلاغية يخالف أحياناً الأصل فيوضع المضمّر موضع المظهر ابتداء ، ثم يردف بما يفسره إذا احتيج لذلك وأحياناً يعول على قرينة الحال والعقل (٢) . وأمثله في سورة النساء قليلة جداً ، ويدخل في هذا اللون البلاغي ضمير الشأن والقصة ، وقد خلت سورة النساء المباركة منه تماماً .

ومما جاء فيه الضمير مكان الاسم الظاهر قوله تعالى :

{ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا } (٣) .

قال المفسرون : (فارزقوهم منه) أي : أعطوهم شيئاً من المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة (٤) ، إذن الضمير يعود على المال المقسوم ، أغفل ذكره لكي لا يتعاضم أمره في نفوس الورثة فيجحدوه ولا ينال حاضري القسمة من أولي القربى واليتامى والمساكين منه شيئاً . وأحسب أن هذا الهدف نفسه هو ما وراء التكنية عنه في الآيات السابقة للموضع الذي أشرنا إليه ، أعني قوله تعالى : { مما ترك الوالدان والأقربون } (٥) إذ لم يذكر المال لفظاً ، والله أعلم .
ومنه قوله تعالى :

١ - انظر المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

٢ - انظر (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٤٤٨ وما بعدها .

٣ - الآية (٨) .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٨٧ .

وكذا (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٢١٢ .

٥ - جزء من الآية (٧) .

{ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا } (١) .

الضمير في قوله تعالى : (به) يرجع إلى عيسى - عليه السلام - ،
 (أي : وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى - عليه السلام - قبل أن
 تزهق روحه بأنه عبد الله ورسوله ، ولات حين إيمان لانقطاع وقت التكليف
 ، ويعضده أنه قرئ ليؤمنن به قبل موتهم) (٢) . وإن كان ذكر عيسى - عليه
 السلام - قد مر في سياق سابق ، إلا أن حذفه هنا والاكتفاء بضميره يزيد
 الوحدة الموضوعية ترابطاً والتحاماً وينبه القارئ إلى ذلك ، والله أعلم.
 ومما جاء ظهور الضمير فيه بدل الاسم الظاهر معتمداً على الحال
 والعقل قوله تعالى :

{ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا } (٣) .

فالواو التي هي فاعل (يدعون) ذكرت بدل من الكفرة والمشركين
 بقرينة الحال والعقل . وكذا الضمير الآخر في (من دونه) فهو الله سبحانه
 وتعالى ، ولا حاجة إلى ما يفسره كذلك . كما أن حذفه يحقق ترابطاً قوياً
 بين الآيات لشد انتباه التالي لكتاب الله دائماً .

ثالثاً : الالتفات .

الالتفات لون من ألوان الصياغة العربية يقتضي مخالفة الأصل
 مخالفة معنوية ولفظية ، سواء كانت هذه المخالفة بعد نكر الأصل ثم

١ - الآية (١٥٩) .

٢ - انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٦٠٤ .

وقد أراد أن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا : يا عدو الله
 أتاك عيسى - عليه السلام - نبياً فكذبت به . فيقول : آمنت أنه عبد ونبي ، وتقول للنصراني أتاك -
 عيسى عليه السلام - نبياً فزعمت أنه الله أو ابن الله ، فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه
 إيمانه .

انظر المرجع السابق ، ص ٦٠٤ ، ٦٠٥ .

٣ - الآية (١١٧) .

الانتقال عنه إلى غيره أو تجاوزه مباشرة . وقد حصره جمهور البلاغيين في تغيير أساليب الخطاب الثلاثة فقط بعضها إلى بعض بعد ذكر أحدها ثم الانتقال عنه إلى غيره^(١) . وقد وردت أربع صور منها في سورة النساء المباركة تمثل لها بما يلي :

أ- الالتفات من التكلم إلى الغيبة :

ومنه قوله تعالى :

{ ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً }^(٢) .

والالفتات في قوله تعالى : { إن الله كان على كل شيء شهيداً } بصيغة الغيبة في لفظ الجلالة ، وذلك بعد ورود صيغة التكلم في قوله : (جعلنا) ، والداعي لهذا الالتفات حاجة السياق إلى لفظ الجلالة الجامع لصفات الكمال ، والمقام يقتضي المراقبة والرهبنة^(٣) والتنبيه على أن الشاهد على ما بينكم من تعاقد وصلة هو الله الذي لا تخفى عليه خافية ، فأوفوا بالعهد^(٤) ، وآتوا الذين عقدت أيمانكم نصيبهم من النصر والنصيحة والرأي^(٥) ؛ فهو سبحانه عالم بجميع الأحوال جليها وخفيها^(٦) ، مجازي الجميع كل حسب حاله .

١ - انظر (الالتفات في النصف الأول من القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية) ، رسالة الماجستير للباحثة ، ص ٤٧ .

٢ - الآية (٣٣) .

٣ - انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ٤٧ .

٤ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥١٧ .

٥ - انظر تفسير الطبري ، م ٤ ، ج ٥ ، ص ٣٧ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

وكذا تفسير الرازي ، ج ١٠ ، ص ٨٦ .

٦ - انظر تفسير الزمخشري ، ج ١ ، ص ٥٢٣ . وكذا (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٢٣ .

وقريب منه قوله تعالى :

{ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } (١) .

الالتفات المقصود هنا في قوله تعالى : { وكفى بالله شهيداً } بصيغة الغيبة في لفظ الجلالة بعد ضمير المتكلم في قوله تعالى : (وأرسلناك) ، وظهور لفظ الجلالة عوداً على ذي بدء لمناسبة المقام ، حيث إن الآية جاءت رداً على مزاعم اليهود والمنافقين وتشاؤمهم من النبي - صلى الله عليه وسلم - لما قدم المدينة ودعاهم إلى الإيمان فكفروا أمسك الله عنهم بعض فضله سبحانه جزاء كفرهم ، فقالوا : " ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم هذا الرجل وأصحابه (٢) " ، فقال تعالى في آية سابقة واصفاً مزاعمهم الباطلة :

{ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ... } (٣) .

وأنت هذه الآية لجلاء الحقيقة ، ورد افتراءاتهم ، وتصحيح مفاهيمهم الخاطئة ، والتأكيد على أن الذي أصابهم ما هو إلا جزاء ما كسبت أيديهم كما أخبر قتادة* عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " لا يصيب رجلاً خدش عود ولا عشرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله

١ - الآية (٧٩) .

٢ - انظر تفسير ابن عطية ، ج ٢ ، ص ٨١ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٥٣ .

٣ - جزء من الآية (٧٨) .

* هو قتادة ابن النعمان بن زيد بن عامر الأمير المجاهد أبو عمرو الأنصاري البصري ، من نجباء الصحابة ، هو الذي وقعت عينه على خده يوم أحد ، فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فغمزها له بيده الشريفة فردها ، توفي سنة ثلاث وعشرين بالمدينة .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج ١ ، ص ٦٦ .

عنه أكثر^(١) . وهذه أمور ينكرها اليهود والمنافقون ، ولكن لينكروا ما أرادوا ما دام الله شهيداً على صدقك وعلى رسالتك ، ينصب المعجزات التي من جملتها هذا النص والوحي الصادق ، فكان الالتفات لتربية المهابة وتقوية الشهادة^(٢) ، ولا ينبغي لمن كان الله شاهده إلا أن يُطاع^(٣) .

ومنه قوله تعالى :

{ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلخَائِنِينَ خَصِيماً }^(٤) .

الالتفات في قوله تعالى : { بما أراك الله } ذلك بعد صيغة التكلم في قوله تعالى : { إنا أنزلنا } . والالتفات جاء هنا لعدة أغراض بلاغية منها : تعظيم الحكم الذي سيحكم به النبي - صلى الله عليه وسلم - ؛ لأنه من جهته سبحانه وتعالى ، ووجوب انتظار الوحي ؛ لأنه لا يخرج عن كونه - صلى الله عليه وسلم - بشراً قد تخفى عليه كثير من الحقائق فيقع منه الخطأ^(٥) .

١ - انظر تفسير الطبري ، م ، ٤ ، ج ، ٥ ، ص ١١١ .

وقد ذكره صاحب (كنز العمال) وعزاه إلى البيهقي في (شعب الإيمان) من حديث قتادة مرسلأ ، ج ٣ ، ص ٣٤١ ، حديث رقم (٦٨٤٩) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٥٥ .

وكذا (روح المعاني) ، م ، ٢ ، ج ، ٥ ، ص ٩١ .

٣ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٠٢ .

٤ - الآية (١٠٥) .

٥ - لقد جاء في سبب نزول هذه الآية (أن نفرأ من الأنصار غزوا مع الرسول - صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته ، فسرق درع لأحدهم ، فظن بها رجلاً من الأنصار ، فأتى صاحب الدرع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعي . فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء ، وقال لنفر من عشيرته : إني غيبت الدرع ، وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده ، فانطلقوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : يا نبي الله ، إن صاحبنا بريء ، وإن سارق الدرع فلان ، قد أحطنا بذلك علماً فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس ، وجادل عنه فإنه إن لا يعصمه الله بك يهلك ، فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبرأه وعذره على رؤوس الناس ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ... } . انظر (الدر المنثور) للسيوطي ، ج ٣ ، ص ٦٧٣ . =

وقد عصمه الله عن هذا بقوله : { بما أراك الله } . ومنها تعليم أمته الصبر والتثبت وعدم الأخذ بظواهر الأمور ، واللجوء إلى الله كلما غمض الأمر والتوكل عليه سبحانه ، فهو المعلم ولا تخفى عليه خافية .

ب - الالتفات من الغيبة إلى التكلم :

ومن أمثلته في سورة النساء قوله تعالى :

{ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا } (١) .

الالتفات في هذه الآية عكس اللون الأول ، من لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى : { آتاهم الله من فضله } إلى التكلم في (اعتدنا) ، وهذه النون التي تدل على العظمة أتت بغرض (التهويل والتعظيم لأن عذاب العظيم عظيم وغضب الحليم وخيم) (٢) . وقد نزلت هذه الآية في شأن اليهود الذين كتموا صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (٣) وكانوا يأمررون الأنصار بالبخل (٤) ، فقد استحقوا من الله هذا العذاب المهين المعد من قبله سبحانه ، وقد عابهم بكتمان نعمة الله وما آتاهم من فضله (٥) ، وهو نيب عند الله عظيم ، فقد روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله :

= وكذا (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ .

وانظر (أسباب النزول) لأبي الحسن علي بن النيسابوري ، ج ٢ ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

وقد جاء الالتفات من التكلم إلى الغيبة في هذه الآيات أيضاً : (٤١ ، ٤٢ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ١٣١ ، ١٦٠ ، ١٦٤) .

١ - الآية (٣٧) .

٢ - انظر (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٣٠ .

٣ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٥٢٦ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٢٠ .

٤ - انظر تفسير ابن عطية ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

٥ - انظر تفسير السعدي ، ج ١ ، ص ٣٤٨ ، تقديم محمد زهري النجار ، دار المدني ، جدة ،

السعودية ، الطبعة بدون ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

" إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن تُرى نعمته على عبده " (١) ، ولهذا تغير الأسلوب إلى صيغة التكلم إشعاراً بعظم هذا العذاب لذلك الذنب الكبير .

ومنه قوله تعالى :

{ فليقاتل في سبيل الله الذين يَشْرُونَ الحياةَ الدُّنياَ بالآخرةِ ومن يقاتل في سبيلِ الله فيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فسوفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } (٢) .

موضع الالتفات (نُؤْتِيهِ) بضمير التكلم بعد ذكره سبحانه بصيغة الغيبة في قوله تعالى : { في سبيلِ الله } ، وحكمته إظهار مزيد عناية بهذا الأجر المؤتى من قبله جل جلاله ؛ لذا أسنده إلى نفسه الشريفة ، فلا يكاد يُعلم كم لتناهي سعته ، فهو سبحانه صاحبه والقائم عليه ، وعطاء العظيم عظيم مثله (٣) . ومع ما ذكر ، فيه حض للمؤمنين على الجهاد وبيان لعظيم منزلة المجاهد (٤) .

ومن هذا القبيل قوله تعالى :

{ يا أيُّها الناسُ قدْ جاءكمُ برهانٌ من ربِّكمُ وأنزلنا إليكمُ نوراً مبيناً } (٥) .

الالتفات في (أنزلنا) ، والمتأمل لهذا الالتفات يظهر له به - على اختصاره - أن محمداً النبي الأمي - صلى الله عليه وسلم - كان نفسه برهاناً من الله تعالى ، وحجة قطعية على أحقية دينه ، وأن كتابه القرآن العربي

١ - ذكره صاحب (كنز العمال) في الشعب من حديث أبي هريرة مرفوعاً ، ج ٦ ، ص ٦٤١ ، ومعنى أعتدنا أي : يسرنا وأعددنا وأحضرننا والعتيد : الحاضر . والمهين : الذي يقترن به خزي وذل وهو أنكى وأشد على المعذب .

انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

٢ - الآية (٧٤) .

٣ - انظر (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٨١ .

وكذا تفسير السعدي ، ج ١ ، ص ٣٦٧ وما بعدها .

٤ - تفسير ابن جرير الطبري ، م ٤ ، ج ٥ ، ص ١٠٦ .

٥ - الآية (١٧٤) .

أنزل من العلم الإلهي عليه ، ولم يكن لعلمه الكسبي أن يأتي بمثله ، وإنما أنزل نوراً مبيناً إلى جميع الناس ؛ ليروا بتدبيره حقيقة دين الله الذي يسعدون به في حياتهم الدنيا ، وينالون به في الآخرة ما هو خير وأبقى (١) ، (وقد كان التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار اللطف بهم والإيذان بأن مجيء ذلك لتربيتهم وتكميلهم ... وإسناد إنزاله إليه تعالى بطريق الالتفات لكمال تشريفه) (٢) ووجوب اتباعه على كافة العباد .

ج - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة :

ومنه قول الله تعالى :

{ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً *
يومئذ يودُّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا
يكنمون الله حديثاً } (٣) .

الالتفات المقصود هنا في قوله تعالى : { وعصوا الرسول } بعد
المواجهة بالخطاب في قوله تعالى : { جئنا بك } ، وعلته إيراد ذكره - عليه
الصلاة والسلام - بعنوان الرسالة تشريفاً له وزيادة تقبيح حال مكذبيه ، فإن
حق الرسول أن يؤمن به ويطاع لا أن يكفر به ويعصى (٤) . فتسميته -
صلى الله عليه وسلم - بهذا الاسم لتعليل كاف لوجوب طاعته ولعظم جرم
من عصاه ، وفيه تهويل لأمر عصيانه ، وتفضيح لحاله مما لا يقدر
قدره (٥) .

١ - انظر تفسير المنار ، ج ٦ ، ص ١٠٢ .

٢ - انظر (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٦ ، ص ٤٢ وما بعدها . وقد جاء منه في هذه السورة الآيات
(٥٤ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٧٤) .

٣ - الآيتان (٤١ ، ٤٢) .

٤ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٢٥١ .

٥ - انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٥٢٣ .

وإذا كانت كلمة (رسول) تدل على جنس الرسل فإنه صلى الله عليه وسلم يدخل فيها دخولاً أولياً^(١) .

ومثله قوله تعالى :

{ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً }^(٢) .

لا يخفى أن الالتفات في قوله تعالى : { واستغفر لهم الرسول } ، إذا لم يقل : واستغفرت لهم ، إجلالاً للرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وأنهم إذا جاءوك فقد جاءوا من خصّة الله برسالته وأكرمه بوحيه وجعله سفيراً بينه وبين خلقه ، ومن كان كذلك فإن الله لا يرد شفاعته ، وهذا ما دعا إلى العدول عن لفظ الخطاب إلى لفظ المغايبة^(٣) تفخيماً لشأن تلك الشفاعة ، وإيراداً لعلة قبولها .

وقريب منه في الصورة والغرض قوله تعالى :

{ وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو رثوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمة الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً }^(٤) .

بصيغة الغائب عن الرسول في قوله تعالى : { وإلى الرسول } ،

وذلك بعد مخاطبته في قوله تعالى :

١ - انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

٢ - الآية (٦٤) .

٣ - انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج ١٠ ، ص ١٦٢ .

وكذا (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ .

وكذا (من أسرار البلاغة في القرآن) للدكتور محمود شيخون ، ص ١٨ ، مكتبة الكليات

الأزهرية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

٤ - الآية (٨٣) .

{ ويقولون طاعةً فإذا برزوا من عندك بيّت طائفةً منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيّتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً * أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً } (١) .

وكان مقتضى السياق : ولو ردوه إليك ، بدل قوله تعالى : { ولو ردوه إلى الرسول } ، فلم هذا العدول ؟

قيل فيه : (والالتفات لما أن عنوان الرسالة من موجبات الرد والمراجعة إلى رأيه - عليه الصلاة والسلام -) (٢) وأنه من أحق حقوقه أن يرد إليه في كافة الأمور في حياته وإلى ما جاء به من عند الله سبحانه وتعالى بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، كما نبهت الآية إلى وجوب طاعة الحكام والعلماء ، وأن طاعتهم في غير معصية الله سبحانه امتداد لطاعته هو جل جلاله .

وقد يكون الالتفات من الخطاب إلى الغيبة بقصد التحقير أو إظهار السخط والتعنيف ، ومن ذلك قوله تعالى :

{ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً } (٣) .

بدأت الآية بخطاب مباشر لعموم الحكم الذي تضمنه هذا المقطع من الآية ، مبيناً سبحانه وتعالى (أنه لا خلاص لهم من الموت ، والجهاد موت

١ - الآيتان (٨١ ، ٨٢) .

٢ - انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٥٥٧ .

وكذا (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٩٣ .

وكذا تفسير السعدي ، ج ١ ، ص ٣٧٧ .

٣ - الآية (٧٨) .

مستعقب للسعادة الآخرة ، فإذا كان لا بد من الموت ، فبأن يقع على وجه يكون مستعقباً للسعادة الأبدية كان أولى من أن لا يكون كذلك (١) .

ثم أعقب هذا كلام يخص اليهود والمنافقين (٢) ، وقيل إنه خاص بالمنافقين (٣) ، وفيه من الاستتكار الشديد ما يجعلهم غير أهل لمخاطبته سبحانه لهم ، فهم أحقر من ذلك ومستحقون البعد عن حضرة الله جل جلاله (٤) وكذا أوليائه .

د - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب :

ومما جاء في سورة النساء من هذا اللون من الالتفات قوله تعالى :
 { وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً * فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً } (٥) .

ونلك بعد قوله تعالى : { واستغفر لهم الرسول } في الآية السابقة عليها ، فالالتفات من الغيبة في قوله تعالى : { واستغفر لهم الرسول } إلى الخطاب في قوله تعالى : { فلا وربك } ، والسر فيه في مناسبة لفظة (رب) وإضافتها لضميره - صلى الله عليه وسلم - زيادة تأكيد على حاجتهم جميعاً لتحكيمه - صلوات الله وسلامه عليه - في كافة أمورهم فأنت المرابي لهذا الغرض من لدن البارئ المصور ، ولا أحد يبلغ منزلتك هذه

١ - انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج ١٠ ، ص ١٨٧ .

وكذا تفسير السعدي ، ج ١ ، ص ٣٧٣ .

٢ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٠٠ .

٣ - انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج ١٠ ، ص ١٨٨ .

وكذا تفسير النسفي ، ج ١ ، ص ٢٣٨ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

٤ - مما يحمل هذا الغرض أيضاً الآية (٤٧) .

٥ - الآيتان (٦٤ ، ٦٥) .

مهما كان ، ولهذا فمن عدلٍ عنك إلى سواك في الحكم فقد عدلَ عن الكمال إلى النقص ، وهذا ما يوجب إخراجَه من الإيمان ، ففعله هذا دليل عليه في عدم ثقته بك وبمن ربّك لهذه المهام العظام . وهذا الحكم لا يقتصر على معاصري النبي - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - بل يدخل فيه كافة الخلق في كل زمان ومكان ؛ لأنّ قضاء شريعته - عليه الصلاة والسلام - قضاؤه . وقد (أقسم بإضافة الرب إلى كاف الخطاب تعظيماً للنبي - صلى الله عليه وسلم -) (١) .

ومنه قوله تعالى :

{ مَنْ يَطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ

حَفِظًا } (٢) .

موضع الالتفات الأول (٣) في هذه الآية الكريمة في قوله تعالى : { فما أرسلناك } بضمير الخطاب (الكاف) ، وذلك بعد ذكره - صلى الله عليه وسلم - بصيغة الغائب في قوله تعالى : { ومن يطع الرسول } . فالالتفات كما ترى من الغائب للمخاطب . وبالتأمل في هذه الآية المباركة نجد أن للالتفات فائدة عظيمة جداً يبرزها العلم بسبب نزولها ، ذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (" من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله " فقال المنافقون : ألا تسمعوا إلى ما يقول هذا الرجل ، لقد قارف الشرك وهو نهى أن يعبد غير الله تعالى ، ما يريد إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى عليه السلام . فنزلت) (٤) ، أي : من أعرض عن

١ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٢٨٤ .

٢ - الآية (٨٠) .

٣ - في الآية التفات آخر من الغائب أيضاً في لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى : { فقد أطاع الله } إلى المتكلم في قوله تعالى : { فما أرسلناك } بضمير (نا) العظمة كما يسميها المفسرون .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٥٥ .

وكذا (روح المعاني) ، ج ٢ ، ص ٥٩١ .

وكذا (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٠٤ .

الطاعة فأعرض عنه لأننا إنما أرسلناك رسولاً مبلغاً لا حفيظاً مهيمناً تحفظ أعمالهم عليهم وتحاسبهم عليها ، فهذا عملنا نحن المرسلين . وفي توجيه الخطاب له - عليه أفضل الصلاة والسلام - تبيكت للمنافقين المدعين على الرسول تلك الدعاوى الباطلة .

هذه هي الأنواع التي وردت من الالتفات في سورة النساء فقط ، أما النوعان الآخران من الالتفات على رأي الجمهور :

فالأول من التكلم إلى الخطاب : ومثاله في غير سورة النساء قوله تعالى :

{ قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } (١) .

الالتفات المقصود في قوله تعالى : { ثم إلى ربكم مرجعكم } بعد قوله تعالى : { أغير الله أبغي رباً } . وكان مقتضى السياق : ثم إلى ربي مرجعكم . ولكن أراد المولى العلي العظيم أن يفاجئهم بحقيقة غيبها الشيطان عنهم ، فقد يكون في ذلك إعادة رشدهم وإيقاظ قلوبهم قبل أن تصل إلى درجة الموت لينقذها سبحانه من برائن العدو اللعين - أعاذنا الله منه - وأعوانه . وقد سبق هذا الالتفات المنبه أمراً من أعظم الأمور وهو الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى ، مع ما فيه من إسناد ضميرهم إلى الرب ، وذلك (لتأكيد الوعد وتشديد الوعيد أي إلى مالك أموركم رجوعكم يوم القيامة) (٢) . فكان هذا الالتفات من التكلم إلى الخطاب معبراً سرياً إلى النفوس طائعتها وعاصيها .

وكذا أخرجه الحاكم في مسنده ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

١ - الآية (١٦٤) ، سورة الأنعام .

٢ - انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

والنوع الثاني الالتفات من الخطاب إلى التكلم ، ومثاله من غير

سورة النساء كذلك قوله تعالى :

{ واستغفروا ربَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ }^(١) .

الالتفات في قوله تعالى : { إِنَّ رَبِّي } بعد مخاطبتهم بقوله تعالى :

{ واستغفروا ربكم } . وكان حق الظاهر : إن ربكم رحيم ودود ، فعند

الاستغفار والتوبة التي تخصهم وحدهم أضاف كلمة (رب) إلى ضمير

خطابهم ليهز نفوسهم ويذكرهم بربوبية الله تعالى عليهم ويقربهم من الله

زلفى ، دليلاً على يقينه الثابت بصفات ربه ، وشاهداً على صدق كلامه .

وهذا شعيب نبي الله الذي سمي (خطيب الأنبياء) لحسن مراجعته لقومه^(٢)

يستجد بالالتفات ليوضح مكنون نفسه ويفصح عما بها من أغراض .

تلك هي الأغراض البلاغية العجيبة التي يحققها الالتفات مما لا غنى

للمقام عنها ، والله أعلم .

١ - الآية (٩٠) ، سورة هود .

٢ - انظر (فتح القدير) للشوكاني ، ج ٢ ، ص ٥١٨ .

وكذا (المعاني في ضوء أساليب القرآن) للدكتور عبد الفتاح لاشين ، ص ٢٦١ ، دار

المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ م ، حيث أورد هذه الآية مثلاً لهذا اللون من

الالتفات .

المطلب الثاني : هيئة التنكير .

كما أن لتعريف المفردة القرآنية أهدافاً بلاغية ، فلتتكيرها مثل ذلك . وهي بتتكيرها تتجه إلى معانٍ لا تحققها المعرفة .
وقد عالج الشيخ عبد القاهر الجرجاني طرفاً مهماً من هذه القضية .
منها أن النكرة تدل أصلاً على واحد من الجنس ، وقد يوجهها السياق إلى الجنس دون الواحد^(١) .
أما إذا وصفت النكرة سواء كانت من أسماء الأجناس أو أسماء المعاني فإنها تتنوع بهذه الصفة في معناها (كأن النكرة نفسها قد تعددت بتعدد صفاتها)^(٢)
وآيات سورة النساء خير مجال لتوضيح هذا ، مع ما فيها من أغراض بلاغية جليلة .

أولاً : النكرة دون وصف :

وهي لتحقيق الجنس أو لذكر واحد فيه . وكلا الأمرين يحمل أغراضاً بلاغية يحددها السياق . فتحقيق الجنس يكون غالباً للمبالغة في الوصف والإيهام بالكثرة وذلك لأن المبالغة هدف من أهداف التنكير . يقول الله تعالى :

{ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً }^(٣) .

كلمة " رقيباً " نكرة غير موصوفة قال فيها العلماء - رحمهم الله - :

١ - انظر هذا في (دلائل الإعجاز) ، ص ١٤٢ وما بعدها .

٢ - انظر المرجع السابق ، ص ١٩٣، ١٩٢ .

٣ - جزء من الآية (١) .

رقيب فعيل بمعنى فاعل^(١) للمبالغة ، وهي صفة ثابتة للرحمن تجري هنا مجرى التعليل للأمر بالتقوى^(٢) .

فمعنى رقيب : النظر بالبصر أو البصيرة إلى أمر ما ليتحققه على ما هو عليه ، ويقترن بذلك حفظ ومشاهدة وعلم بالحاصل مع الرقبة^(٣) . واستعمالها في صفات الله بمعنى الحفيظ^(٤) ؛ فهو مراقب جميع أحوالكم وأعمالكم^(٥) .

وعندما يخبر بهذه الكلمة نكرة وبهذا الأسلوب المؤكد لا بد أن تمتزج في النفس معانٍ كثيرة منها الخوف من هذا التهديد والوعيد ، ومنها الأمن والراحة والاستقرار النفسي وهو نقيض الأول ، والسبب في هذا ؛ شعور المؤمن بأنه سبحانه كما هو رقيب علينا فهو كذلك رقيب لنا^(٦) . وهذا جانب من جوانب عظمة القرآن : اجتماع الضدين في لفظة واحدة وبأسلوب لا يشعر المتلقي بالتناقض . وهنا نرى أنه قد اجتمعت مبالغة الصيغة ومبالغة تحقيق الجنس بسبب التكرير مع اجتماع الضدين في كلمة واحدة لتعلل الأمر المتكرر بالتقوى في هذه الآية .

ومنه قوله تعالى :

{ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا }^(٧) .

١ - انظر (روح المعاني) ، ٢م ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٧٧ .

٣ - انظر تفسير (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٥ .

٤ - انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

٥ - انظر (تفسير ابن كثير) ، ج ١ ، ص ٤٤٩ .

٦ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٥ .

٧ - الآية (١٦) .

فجاءت كلمة : " تواباً " للإطلاق الموهوم بالكثرة مبالغة في قبول التوبة ، و " رحيماً " واسع الرحمة وهو تعليل للأمر بالإعراض^(١) .

وقد تجلت المبالغة بوضوح في قوله تعالى :

{ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فرددّها على أديبارها أو نلغنها كما لغنا أصحاب السبوت وكان أمر الله مفعولاً }^(٢) .

قال الألويسي فيها : (وفي التتكير وجوه تهويل للخطب مع لطف وحسن استدعاء)^(٣) ، فنكر " وجوهاً " لإرادة المبالغة المفيدة للتكثير مع الإشعار بأنه أمر مهول وخطب عظيم تتخلع له القلوب ، وهو عذاب عظيم من القادر سبحانه . وأصل الطمس محو الأثر وإزالة الأعلام (قال ابن عباس - رضي الله عنهما - نجعلها كخف البعير أو كحافر الدابة . وقال قتادة والضحاك^(*) نعميها لقوله تعالى : " فطمسنا أعينهم ")^(٤) .

وفي تتكيرها أمر دقيق آخر وهو اللطف بالمخاطبين لعدم إسنادها إليهم وذلك حسن استدعاء لهم إلى الإيمان^(٥) .

ويحمل التتكير هنا - بجانب ما ذكر - ضرباً من الغرابة والندرة لهذا اللون من العذاب الذي لم يعهد لأحد رؤيته ، وهو غرض عجيب من أغراض التتكير .

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٩٦ .

٢ - الآية (٤٧) .

٣ - انظر (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٤٩ .

* هو أبو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين التميمي المعروف بالأحنف ، كان من سادات التابعين ، وقد اختلف في سنة موته ما بين سبع وستين وسبع وسبعين للهجرة .

انظر (وفيات الأعيان) ، ج ٢ ، ص ٤٩٩ وما بعدها .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٣١ .

والآية : { فطمسنا أعينهم } من سورة القمر ، جزء من الآية (٣٧) .

٥ - المرجع السابق .

ومنه كذلك ما يأتي فيه التكرير للتفطيع مع الإيهام بالكثرة والمبالغة في الوصف ، كقوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا }^(١) .

فـ " ظلماً " التي وقعت حالاً لفاعل^(٢) " يأكلون " دلت على معنى التفطيع ، وكلمة " ناراً " كذلك للتفطيع والإيهام بالكثرة ، " وسعيراً " أي ناراً من النيران مبهمة الوصف^(٣) ، تضافرت هذه النكرات الثلاث على إبراز الصورة بأفطع ما يكون عليه الخطب تنفيراً من هذا الأكل الحرام الذي يقع فيه اليتيم فريسة سهلة لأولئك الظلمة .

وقد تعددت أغراض تحقيق الجنس بتعدد النكرات في قوله تعالى :

{ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا }^(٤) .

جاءت أولاً كلمة " نحلة " نكرة لتوضح غرضاً بلاغياً ولغويّاً في آن واحد ، فنحلة من نحلّة كذا إذا أعطاه عن طيب نفس^(٥) وهو أخص من الهبة^(٦) إكراماً منه سبحانه وتعالى للمسلمة ، وانتصابها إمّا لأنها مصدر أغنى عن فعله أو على أنها حال^(٧) ، وكلا الموضعين يحتاج للنكرة .

كما وجهها بعضهم على أنها مفعول له ، أي أعطوهن ديانةً وشريعةً^(٨) . والتعبير عن إيتاء المهور بـ " نحلة " مع كونها واجبة على

١ - الآية (١٠) .

٢ - انظر (التحرير والتوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ٢٥٤ .

٣ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٥١ .

٤ - الآية (٤) .

٥ - انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

٦ - انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (نحل) .

٧ - انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٨٢ .

٨ - انظر المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

الأزواج لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا وطيب خاطر^(١) . ولولا تنكيرها لما صحَّ لغوياً أن تعطى هذه المعاني مجتمعة .

أما تنكير كلمة " شيء " ^(٢) فأفاد معنى التقليل ، وقد قرنت بنكرة أخرى هي " نفساً " ، نكرت لتنفيذ معنى التمييز ^(٣) الذي يحمل معه الشرط . يقول الزمخشري : (وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط حتى بنى الشرط على طيب النفس فقيل " فإن طبن " ولم يقل : فإن وهبن وسمحن إعلماً بأن المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب طيبةً ، وقيل : " فإن طبن لكم عن شيء " ولم يقل : فإن طبن لكم عنها ، بعثاً على تقليل الموهوب) ^(٤) .

ومما نكر للمبالغة في الوصف كلمتا " هنيئاً مريئاً " ، والهنيء : كل ما لا يلحق فيه مشقة ، ولا تعب وأصله في الطعام ، يقال : هنيء الطعام فهو هنيء ^(٥) . وقيل الهنيء الذي يلذه الأكل . والمريء ما تحمد عاقبته ، ونصبهما على أنهما صفتان للمصدر أي أكلاً هنيئاً مريئاً ، أو على أنهما حالان من الضمير المنصوب أي كلوه وهو هنيء مريء ، وقد يوقف على كلوه ويبتدأ : هنيئاً مريئاً على الدعاء وعلى أنهما صفتان أقيمتا مقام المصدر ^(١) . فكان التنكير للمبالغة في رفع الحرج عن هذا الأكل ؛ بل والترغيب فيه بصيغة الأمر في (كلوه) ووصفه باللذة وحسن العاقبة . والله أعلم وأحكم .

١ - انظر المرجع السابق . وكذا (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٤٥ .

وكذا (الدر المصون) ، ج ٥ ، ص ١٩٣ .

وكذا (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) للدكتور محمد أبو موسى ، ص ٩٨ .

٢ - كلمة (شيء) في هذه الآية نكرة موصوفة بشبه الجملة (منه) ، وقد نكرت هنا لتعلقها في السياق بكلمة (نفساً) .

٣ - انظر (معجم إعراب ألفاظ القرآن الكريم) ص ٩٨ .

٤ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٤٥ .

٥ - انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (هنا) .

٦ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٨٣ .

ومنه ما جاء فيه تحقيق الجنس لإفادة التقليل كقوله تعالى :

{ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً }^(١) .

الآية بها عدة نكرات ولكن الكلمة التي تعطي معنى التقليل قوله تعالى : " رشداً " . والرشد : انتظام الفكر وصدور الأفعال على نحوه بانتظام^(٢) ، وتكثيرها ليدل على أنه نوع من الرشد ومخيلة من مخايله حتى لا ينتظر به تمام الرشد^(٣) ؛ فيكون للولي فرصة لإمساك مال اليتيم مدة أطول ، وهذا فيه مظنة الاستيلاء ، كما أن وجود كمال الرشد في أحد يعز وقوعه^(٤) ، فالمبادرة في الدفع عند أول بادرة رشد هي المقصد الأساسي من هذا التكثير الذي يدل على التقليل . والشاهد عليه التعبير بلفظة (آنستم) لما في معنى الكلمة من الدقة وكذا التأكيد بقوله تعالى : { ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا } .

وقد اجتمع تحقيق الجنس ونكر واحد منه في قوله تعالى :

{ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا }^(٥) .

الآية الكريمة وردت بعد التأكيد على حرمة أموال اليتامى . قرن الله - سبحانه وتعالى - حرمة ذلك بحرمة الظلم والجور الواقع على الزوجات ومردده عدم التحرج من كثرة التعداد الذي يؤدي إلى العجز عن أداء

١ - الآية (٦) .

٢ - انظر (التحرير والتتوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٤ ، ص ٢٤٣ .

٣ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٤٨ .

٤ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ١٩٧ .

٥ - الآية (٣) .

حقوقهن المشروعة ، فيقع الميل لبعضهن والظلم والجور على الأخريات .
وهنا تأتي النكرة لتساعد على توضيح ذلك المغزى ، فالكلمات : " مثى
وثلاث ورباع " نكرات لا تتعرف^(١) لما لها من العدلين : عن صيغتها وعن
تكررها ، وهي حال^(٢) من " طاب " .

وتقديره : فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين وثلاثاً
ثلاثاً وأربعاً أربعاً^(٣) فانظر كيف أغنت النكرة عن هذا الشرح والتطويل
باستعمال لفظ مبين لجنس العدد .

ومثله تكبير لفظة " واحدة " مع تضمناها حكماً جديداً ثقيلاً على نفوس
المكثرين ، فنكرت بغرض تعيين واحد من الجنس لإفادة التقليل^(٤) ، أي :
فانكحوا واحدةً على قراءة النصب^(٥) أما على قراءة الرفع فواحدة كافية^(٦)
أو فالمقنع واحدةً أو فحسبكم واحدة^(٧) ، وهذا فيه إشارة إلى الإلزام بالحكم
الجديد الذي لا عهد للمخاطبين به والله أعلم وأحكم .

وقد جاءت الإشارة إلى توضيح مزية الواحدة في قوله تعالى : { ذلك
أدنى ألا تعولوا } . أي لا تظلموا وتجوروا أو تتحملوا أعباء كثيرة وثقيلة
بكثرة عيالكم .

١ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٧ .

٢ - انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ١٦٣ .

٣ - انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج ١ ، ص ٢٤٤ .

٤ - مر معنا معنى التقليل في الآية (٦) عند تحليل قوله تعالى : { فإن أنستم منهم رشداً ... } ص ١٠٢ من هذا البحث .

٥ - انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٤ ، ص ٢٢٥ .

٦ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٧ .

٧ - انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

ثانياً : النكرة المقيدة بالوصف :

والنكرة إذا وصفت تعلق الحكم فيها بالوصف فيكون تكبيرها ووصفها لتقرير هذا الوصف في الذهن^(١) . يفهم من هذا أمران : الأول أن النكرة تدل على جنس المنكر ، والثاني أن إتباع النكرة بوصف يثبت الحكم الذي يحمله الوصف لهذه النكرة .

وقد جاء مثل هذا كثيراً في سورة النساء . أول هذه المواضع وقفة جديدة مع الآية الأولى ، يقول عز وجل :

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً }^(٢) .

الكلمات : " نفس واحدة ، ورجالاً ، ونساءً ، ورقيباً"^(٣) " جميعها أتت في هيئة النكرة فما سر ذلك ؟

أما " نفس واحدة " فقليل فيه : النفس هي روح آدم^(٤) - عليه السلام - أو ذاته^(٥) بدليل قوله تعالى : { أخرجوا أنفسكم }^(٦) ، وقوله تعالى : { ويحذركم الله نفسه }^(٧) والنكرة تدل أصلاً على واحد من الجنس ، وهنا وصفت النكرة بأنها واحدة تأكيداً على انفرادها بأصل البشر . وعليه فلا

١ - هذا ما أشار إليه عبد القاهر في (دلائل الإعجاز) ، ص ١٩٢ .

وكذا (بدائع الفوائد) لابن القيم ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

وكذا (البلاغة القرآنية) للدكتور محمد أبو موسى ، ص ٣١٥ وما بعدها .

٢ - الآية (١) .

٣ - مر معنا تحليل النكرة (رقيباً) في النكرة دون وصف .

٤ - انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (نفس) .

٥ - انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (نفس) .

٦ - الآية (٩٣) ، سورة الأنعام .

٧ - الآية (٣٠) ، سورة آل عمران .

مجال لتعريف هذه اللفظة مطلقاً ، ولو جربنا ذلك لأطفأنا وهج تلك اللفظة الأخاذ ، والله أعلم وأحكم .

وفي تنكير " رجالاً ونساءً " يقول الإمام البقاعي : (ولما كان المبتوث قبل ذلك عدماً وهو الذي أوجده من العدم نكر لإفهام ذلك)^(١) ، فنكتة التنكير عنده هي الإشارة إلى إيجاد هذه النكرات ولم تكن من قبل شيئاً فهو سبحانه مبتدعها ومنشئها من لا شيء .

أما علة التنكير عند غيره فهي الدلالة على الكثرة قال أبو السعود : (كثيراً نعت لـ " رجالاً " مؤكداً لما أفاده التنكير من الكثرة)^(٢) ثم قال : (ونساء أي كثيرة وترك التصريح بها اكتفاءً بالوصف المذكور)^(٣) يقصد وصف الرجال .

وكلا الوجهين وارد ، وهو غرض بلاغي نبيل ، فإن كان الابتداع فالحال تؤيده ؛ فالخالق - سبحانه - هو الذي ابتدع أبا البشر وأهم ، ثم جعل نسلهم من أسباب واهية بقدرته على الخلق والتصوير .
وإن قصد المغزى الثاني فواقع البشر ينطق به من هذه الحشود التي تكاد الأرض تضيق بها مع فناء حشود أخرى عبر العصور .

ومنه ما جاء في قوله تعالى :

{ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً }^(٤) .

١ - انظر (نظم الدرر) ، ج ٥ ، ص ١٧٩ .

٢ - انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٤٧٦ .

٣ - المرجع السابق .

٤ - الآية (٢) .

اللفظة موضع الدراسة قوله تعالى : " حوباً " وهي تعني الإثم^(١) ،
وتتكررها مع وصفها بـ " كبيراً " يدل على عظم هذا الإثم إلى حد لا يقدر
قدره إلا الله - سبحانه وتعالى - ، وكفى به وعظاً مبيناً وتهديداً غليظاً حتى
يحاط باليتيم وكل ما يخصه بسياج منيع من حماية الرب الرحيم .

منه قوله تعالى :

{ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم
فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً }^(٢) .

والكلمات موضع الدراسة : " قياماً"^(٣) ، قولاً معروفاً " . ومعنى
" قياماً " : أي تقومون بها وتنتعشون ولو ضيعتموها لضعتم^(٤) ونصبها على
أنها حال من العائد المحذوف أي : خلقها وأوجدتها في حال كونها قياماً^(٥)
وهذا ما اقتضى تتكثيرها .

أما ما كان التتكير فيه أشد وضوحاً من التعريف فهو في قوله تعالى:
" قولاً معروفاً " فقد حقق التتكير مع الوصف بعده صورة ذهنية لهذا القول
إشارة إلى أن هذا القول قد تعارفتم عليه ، وسكنت النفوس به وأحبته لحسنه
عقلاً وشرعاً^(٦) حتى صار معروفاً لديكم ، أو أن هذا القول يحمل معنى
المعروف لما فيه من تطيب النفوس وجبر الخواطر .

١ - انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (حوب) .

قال أبو حيان : وأصل الحوب الزجر للإيل فسمي حوباً لأنه يزجر عنه .

انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ١٥٠ .

٢ - الآية (٥) .

ومما جاء على شاكلتها قوله تعالى : { ذريةً ضعافاً } وكذا قوله تعالى : { قولاً سديداً } في

الآية (٩) .

٣ - كلمة (قياماً) نكرة غير موصوفة .

٤ - انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

٥ - انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج ٢ ، ص ٣١٠ ، بتصرف يسير .

٦ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

ومما جاء تعلق حكم النكرة فيه بالوصف قوله تعالى :

{ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلَّ منه أو كثر نصيباً مفروضاً }^(١) .

كلمة " نصيب " نكرت لأنها شروع في حدث جديد لم يعهده العرب في جاهليتهم ، فهو (استئناف ابتدائي جار مجرى النتيجة لحكم إيتاء أموال اليتامى ، ومجرى المقدمة لأحكام المواريث)^(٢) . وفيه مغزى تربوي عظيم قصد به تهيئة النفوس لتمكن تلك الأحكام بالتدريج^(٣) .

وقوله تعالى : " نصيباً مفروضاً " نصب على أنه مصدر مؤكد أو على الحالية أو على الاختصاص^(٤) ، ونكرت اللفظة إشعاراً بتعلق الحكم بالوصف أي نصيباً مقطوعاً مفروضاً^(٥) عليكم فيجب الامتثال به دون هوادة .

ونخرج من هذا إلى أن اللفظة العربية بعامية ، وفي القرآن الكريم وسورة النساء بخاصة تحمل في تكثيرها أهدافاً بلاغية كثيرة ومتنوعة مع إرادة الجنس أو ذكر واحد منه ، منها : معنى المبالغة والإيهام بالكثرة والتهويل والتفطيع ، وكذا التعظيم والندرة والغرابة ، وقد تحمل اللفظة معنى التقليل وقد يصحبه التحقير أو السخرية ، كما تتعلق النكرة بحكم الوصف المصاحب لها . وحصر ذلك في هذه السورة يحتاج إلى دراسة خاصة به ، ولكن حسبنا ما قدمناه لضيق المقام .

١ - الآية (٧) .

٢ - انظر (التحرير والتتوير) ، ج ٤ ، ص ٢٤٧ .

٣ - المرجع السابق الصفحة نفسها .

٤ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .

وكذا (تفسير أبي السعود) ، ج ١ ، ص ٤٨٧ .

وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٢١١ .

٥ - انظر (تفسير أبي السعود) ، ج ١ ، ص ٤٨٧ .

المطلب الثالث : بلاغة الأفراد والتثنية والجمع .

إن هذا الموضوع من الأهمية بمكان في توضيح المعنى والبلوغ به إلى غاية بعيدة^(١) . والمتأمل في اللفظة القرآنية من هذه الجوانب يرى العجب في تمكن كل لفظة من موضعها الأصيل بحيث لو استبدلت بغيرها اختل مفهوم السياق العام للنص الذي وردت فيه اللفظة ، مع أن ظاهر الأمر يدل على غير ذلك ، فتارة يكون الظاهر مقتضياً الجمع ، ولكن اللفظ القرآني أثر الأفراد ، وتارة يكون العكس^(٢) وهو بهذا لم يخرج عن طريقة العرب في كلامها فقد جاء في شعر ذي الرمة :

ومية أحسن الثقلين وجهاً وسالفة وأحسنه قذالاً^(٣)

قال معلقاً عليه أبو الفتح ابن جني^(*) : (فأفرد الضمير - في أحسنه - مع قدرته على جمعه . وهذا يدل على قوة اعتقادهم أحوال المواضع وكيف ما يقع فيها . ألا ترى أن الموضع موضع جمع ، وقد تقدم

١ - لم تقف أمهات كتب البلاغة وفقة جادة ومتخصصة مع هذا الموضوع مثلما وقف فيه أبو الفتح ابن جني في خصائصه ، ولكن قد تعثر على بعض لمحات طفيفة تشير إليه في ثنايا أبحاث أخرى . وذلك مثل (المفتاح) للسكاكي ، و (الإيضاح) للقزويني ، و (شروح التلخيص) ، و (البديع) لابن المعتز ، و (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني .

٢ - انظر (الاتجاه البلاغي في تفسير البيضاوي) للدكتور محمد لطفي عبد التواب ، ص ٨٠ .

٣ - البيت في (الخزانة) ، ج ٤ ، ص ١٠٨ ، وفي (الكامل) ، ج ٦ ، ص ١٨٠ ، وفي الديوان ، ص ٤٣٦ .

والسالفة : أعلى العنق ، والقذال : مؤخرة الرأس فوق القفا . انظر (الخصائص) ، ج ٢ ، ص ٤٢١ .

* هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي المشهور ، ولد قبل الثلاثين والثلاثمائة ، كان إماماً في العربية له تصانيف كثيرة في النحو والصرف ، منها (الخصائص) ، و (سر صناعة الإعراب) ، و (المنصف شرح تصريف المازني) وغيرها ، توفي سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة ببغداد .

انظر (وفيات الأعيان) ، ج ٣ ، ص ٣٤٦ وما بعدها .

في الأول لفظ الجمع - أحسن الثقلين - فترك اللفظ وموجب الموضع إلى الإفراد ، لأنه مما يؤلف في هذا المكان (١)

وأظن أن اختياره للإفراد في (أحسنه) دون الجمع ليس فقط لأنه مما يؤلف في هذا المكان على حد تعبير ابن جني ، ولكن ليدلك بالإفراد على معنى بلاغي دقيق . فكأنه يقول : لو تفقدت الثقلين فرداً فرداً لوجدت أن الممدوحة أحسن فرد فيهم . ولذلك كان الإفراد أعمق معنى من الجمع .

وأعجب من ذلك تلك النكات البلاغية المقصودة في القرآن الكريم يلحظها المتأمل في علاقة أجزاء السياق بعضه ببعض . ولندلل على ذلك من سورة النساء المباركة .

قال الحق تبارك وتعالى :

{ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يَدْخُلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ } (٢)

الآية الأولى تزف البشرى للمسلمين (بجمع الفائزين بدخول الجنة في قوله تعالى " خالدين " تبشيراً بكثرة الواقف عند هذه الحدود ولأن منادمة الإخوان من أعلى نعيم الجنان) (٣) ، وقد خلق الإنسان اجتماعياً يحن إلى الكثرة ، فجعلها المولى دليل رحمته وتفضله على من أطاعه ورسوله .

وبالمقابل جعل الانفراد دليل نل ورهبة وعقاب (فأفرد العاصي في النيران في قوله " يدخله ناراً خالداً فيها " لأن الانفراد المقتضي للوحشة من العذاب والهوان) (٤) . وقيل : (أفرد خالداً هنا وجمع خالدين فيها لأن أهل الطاعة أهل الشفاعة ، وإذا شفع في غيره دخلها والعاصي لا يدخل النار به

١ - المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٢ - الآيتان (١٣ و ١٤) .

٣ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٢١٤ وما بعدها .

٤ - المرجع السابق .

غيره فبقي وحيداً^(١) . وهكذا كان للجمع مغزى وللإفراد آخر لا يسد أحدهما عن صاحبه .

ومنه قوله تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيحاً }^(٢) .

دل الجمع في اسم الإشارة (أولئك) وفي الموصول (الذين) وفي الضمير الواقع مفعولاً به في (لعنهم) على أن الكلام عن جماعة اليهود^(٣) الذاهبين إلى المشركين بحثاً عن النصره ، وكان الثمن ضياع دينهم - أعاننا الله من سوء المصير - فاستحقوا بذلك أن يجعلوا مثلاً لكل ملعون بقوله تعالى : { ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً } . (ومن) تحتل معنى الجمع والإفراد ومع إفادتها معنى العموم كانت واسطة في المعنى بين الجمع السابق وبين الأفراد في جعل الحكم قاعدة عامة تنسحب على كل من استحق لعنة الله . وقد أكد الاشتراك بين معنى الجمع ومعنى الأفراد صيغة (فعيل) في نصيراً ، بالإضافة إلى تكرير اللفظة الذي يوجهها إلى معنى الجنس ، فتضافر السياق على إبراز معنى الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى والحاجة إليه عند عدم وجود أي نصير مهما عظم الخطب وجد البحث وامتداد الزمان . وكما قال الألويسي : (وفيه دلالة على حرمانهم الأبدي)^(٤)

١ - انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ١٩٢ .

٢ - الآيتان (٥١ و ٥٢) .

٣ - انظر (جامع البيان) لابن جرير الطبري ، م ٤ ، ج ٥ ، ص ٨٥ وما بعدها .

وكذا (التفسير الكبير) للرازي ، ج ١٠ ، ص ١٢٨ وما بعدها .

٤ - انظر (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٥٦ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٣٦ .

من النصره إذا لم يطلبوها من الله - سبحانه وتعالى - . وفي هذا أيضاً
بشارة بنصره المؤمنين على عدوهم ، والله أعلم وأحكم .

وفي الآية التالية وقفة رائعة بين الجمع والإفراد . يقول الله سبحانه
وتعالى :

{ وُدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ
أَوْلِيَاءَ حَتَّى يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا }^(١) .

قال - عز من قائل - : { لَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ } (فجمع أولياء
لمراعاة جمع المخاطبين فإن المراد نهى أن يتخذ واحد من المخاطبين ولياً
واحداً منهم أي إذا كان حالهم ما نكر من ودادة كفركم فلا تولوهم)^(٢)
{ حَتَّى يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، ويتبين بذلك للجميع صحة نواياهم وإلا
(فجانبوهم مجانية كلية ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصره أبداً)^(٣) . فجمع في
الأولى لتعداد الأولياء بتعداد المخاطبين أو تعداد الأولياء لكل فرد منهم
وذلك قبل نفاقهم ، أما بعد ذلك فالنهى عن موالاتهم أشد ، فلا تتخذوا منهم
ولا ولياً واحداً حتى ولو كان هذا الواحد للجماعة بأسرها . فأفرد مبالغة في
التحذير من ولايتهم بعد كشف سترهم . ولا يخفى أن صيغة المضارع
(ولا تتخذوا) دليل على استمرار هذا النهي ، وتكرارها أفاد زيادة تأكيد^(٤)
النهي عن مثل ذلك .

١ - الآية (٨٩) .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٦٣ .

٣ - انظر المرجع السابق . وكذا تفسير الطبري ، م ٤ ، ج ٥ ، ص ١٢٤ .

٤ - انظر (روح المعاني) للألوسي ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ١٠٩ .

ولنتأمل قوله تعالى :

{ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ
إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا }^(١) .

من الواضح أن صيغة الجمع في " الذين كفروا ، إن الكافرين كانوا " قد تحولت إلى صيغة المفرد في آخر الآية ، حيث قال سبحانه وتعالى :
{ عَدُوًّا مُبِينًا } ، فما وجه هذا التغيير؟

قال أبو البقاء : (عدواً في موضع أعداء . وقيل : عدو مصدر على
فَعول مثل القبول والولوع ؛ فلذلك لم يجمع)^(٢) . والظاهر أن المراد من
إفراد اللفظة إرادة الجنس وبهذا تكون دلالتها على معناها أعم من
الجمع^(٣) .

وقال أبو حيان : (عدو وصف يوصف به الواحد والجمع قال
سبحانه " هم العدو" . ومعنى مبيناً أي مظهراً للعداوة بحيث إن عداوته ليست
مستورة ولا هو يخفيها ، فمتى قدر على أذية فعلها)^(٤) .

وانظر إلى بلاغة الجمع في هذه الآية الكريمة . قال الله تعالى :

١ - الآية (١٠١) .

٢ - انظر (التبيان في إعراب القرآن) للعكبري ، ج ١ ، ص ٣٨٦ .

وكذا (روح المعاني) للأوسى ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ١٣٤ .

٣ - ذكر مثل هذا الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي
صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } المؤمنون ، الآية (١ و ٢) . فقال : (لقد وحدت - يعني الصلاة - أولاً لبقاء
الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت) . انظر (الكشاف) ، ج ٣ ، ص ١٤٠ .

وكذا (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) للدكتور محمد أبو موسى ، ص ٢٧٥ .

وذكر مثل هذا البيضاوي في تفسيره لقوله تعالى : { وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ

أَقْلَامٍ } لقمان ، الآية (٢٧) . قال - رحمه الله - : (وتوحيد شجرة لأن المراد تفصيل الأحاد)
انظر ج ٧ ، ص ١٤١ .

وكذا (الاتجاه البلاغي عند البيضاوي) للدكتور محمد لطفي عبد التواب .

٤ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٣٩ . و { هم العدو } جزء من الآية (٤) من سورة

المنافقون .

{ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً }^(١) .

نزلت هذه الآية وما بعدها في طعمة بن أبيرق سرق درعاً ورمى به غيره ، ثم ذهب نفر من أهله إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متظلمين لاتهامه بذلك فرد رسول الله - عليه أفضل الصلاة والسلام - عنه التهمة ثقة به وبقومه ، فعاتبه ربه - سبحانه وتعالى - بهذه الآية عتاباً شديداً^(٢) .

والخائن في هذه القضية واحد هو طعمة ؛ لكن الآية أتت بصيغة الجمع (باعتباراه واعتبار من شهدوا له بالبراءة من قومه ... فكانوا شركاء في الإثم خصوصاً من يعلم أنه هو السارق . أو جاء الجمع ليتناول طعمة وكل من خان خيانتته فلا يتخاصم لخائن قط ولا يجادل عنه)^(٣) .

ولا يخفى أن نهياً موجهاً للرسول - صلى الله عليه وسلم - يخص كل فرد من أمته على مبدأ التشريع مع إرادة تعميم الأمر لأن الحدود قضية شرعية لا هوادة فيها . وحديث فاطمة المخزومية الشهير أكبر شاهد على ذلك^(٤) .

وقد يكون الأفراد دليل عذاب والجمع دليل رحمة . انظر معي إلى قوله سبحانه وتعالى :

١ - الآية (١٠٥) .

٢ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ١٠٨ وما بعدها .

وكذا (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٧٤٣ .

٣ - المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٤ - روت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أن أسامة كلم النبي - صلى الله عليه وسلم - في امرأة فقال : " إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف ، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة فعلت ذلك لقطعتم يدها " .

رواه البخاري في صحيحه ، ج ٨ ، ص ١٩٩ .

{ أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً * والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن صدق من الله قبيلاً }^(١) .

إفراد جهنم زيادة في التضييق على من يستحقها ، فهم يتمنون أن يجدوا عنها محيصاً ؛ ولكن أنى يجدون ذلك ؛ وبالمقابل وسع المولى سبحانه على المؤمنين العاملين الصالحات فجعلهم ينتقلون بين جنات فرحين بما آتاهم من البقاء الدائم والوفاء بالوعد { ومن صدق من الله قبيلاً } ، وزاد الصورة سعة تكرير كلمة جنات ووصفها بتلك الصفات .

وتأمل بلاغة الإفراد في قوله تعالى :

{ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً }^(٢) .

الآية تحمل نداء لجماعة من المؤمنين وتخاطبهم بصيغة الجمع في كافة التفاصيل التي حملتها عدا نقطة واحدة في قوله تعالى : { أو جاء أحد منكم من الغائط } ولو شاكلت السياق لكان المقطع : أو جئتم من الغائط ؛ ولكنه القرآن ، لا تفوته كبيرة ولا صغيرة في مطابقة الواقع ، والواقع الملموس للفطرة السوية يؤكد الحاجة إلى الانفراد في هذا الموطن ولذا سمته العرب بيت الخلاء ، فعجباً لهذه الدقة المتناهية في كتاب { لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد }^(٣) .

١ - الآيتان (١٢١ و ١٢٢) .

وقد مر مثل هذا في الآيتين (١٣ و ١٤) في نفس المبحث .

٢ - الآية (٤٣) .

٣ - الآية (٤٢) ، سورة فصلت .

ومن روائع المزاجية بين المفرد والمثنى قوله تعالى :

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً }^(١) .

لقد وصف المولى نفسه بأنه خالقنا من نفس واحدة ، وذلك باعتبار الأصل ، ثم جاءت الجملة الثانية لتفصيل ما أجمل ، فذكر سبحانه أنه بثّ منهما تصويراً للواقع ولعمق الصلة بين الاثنين وشدة حاجة أحدهما للآخر ، فكان للإفراد موقعه البلاغي ، كما كان للتثنية مثل ذلك .

المطلب الرابع : بلاغة التذكير والتأنيث .

لا يخفى أن وراء تذكير اللفظة أو تأنيثها حاجة معنوية يقتضيتها سياق الحدث ، وهو أمر طبيعي قد درج عليه العرب ؛ ولكن ما يثير الانتباه ظهور أحدهما بدل الآخر . وعندها تتدخل البلاغة محاولة كشف النقاب عن بعض الأسباب مستعينة بمجريات الحدث وأجزاء السياق . وإليك بيان ذلك في أمثلة من سورة النساء .

ونحن دائماً على موعد مع أول آية في هذه السورة العظيمة ؛ لنؤكد على حسن الاستهلال وبراعة المطلع الذي يصل إلى حد الإعجاز . قال الحق تبارك وتعالى :

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً }^(١) .

لاشك أن المقصود بـ (نفس واحدة) هو آدم عليه السلام . وهنا يطرح نفسه سؤال : ما وجه ذكره بهذه التسمية وفيها دلالة ظاهرة على التأنيث يؤكدتها الوصف بـ (واحدة) ، وعود الضمير المؤنث عليها في (زوجها) ؟

أولا تغني عنها أية كلمة مذكرة مثل روح أو رجل أو مخلوق أو ذكر أو ما شابه ذلك ؟

أعتقد أن الإجابة على هذا السؤال دونها الحيطة والحذر الشديدين ، وإلا لماذا لم تقف كتب اللغة أو البلاغة أو التفسير أو الإعجاز وقفة واضحة

معها ، بل كل ما ذكر بشأنها قولهم : إن هذه النفس هي آدم عليه السلام^(١) ، وزاد الرازي : (إلا أنه أنت الوصف على لفظ نفس)^(٢) .
ولكنني - مستعينة بالله - أقول : إن كلمة نفس كلمة ذات دلالات كثيرة منتسبة في لغة العرب ، منها ما هو حسي وما هو معنوي ، والمتتبع لهذه الدلالات وما يتفرع عنها يجد الجواب المطلوب بإذن الله تعالى .
فمن دلالاتها : الروح ، العقل ، الدم ، الشيء الذي يكون به التمييز ، والشخص ، والأخ ، والإنسان جميعه ، وعين الشيء وكنهه وجوهه ، وكذلك الوقت . جميعها دلالات حسية . أما دلالاتها المعنوية فهي : العزة ، الهمة ، والأنفة^(٣) .

وقيل : سميت النفس نفساً لتولد النَّفس منها واتصاله بها^(٤) ، ومن مادتها النَّفس : وهو الفرج من الكرب ، وفي الحديث : " لا تسبوا الرياح فإنها من نفس الرحمن " أي أنها روح ينفس بها على المكرويين^(٥) .
معان كثيرة تتولد من هذه المادة تدل جميعها على الخير الذي يتفضل به الخالق العظيم على المخلوق الضعيف ، قد عرفتها العرب جميعها ؛ ولذا سجد الصادقون منهم لرب هذا القرآن المعجز .

١ - انظر (لسان العرب) ، مادة (نفس) .

وكذا (معجم مقاييس اللغة) لابن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون ، مادة (نفس) .

وكذا (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (نفس) .

وكذا (تفسير ابن كثير) ، ج ١ ، ص ٤٤٩ .

وكذا (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

٢ - انظر (التفسير الكبير) ، ج ٩ ، ص ١٦٠ .

٣ - انظر (لسان العرب) ، مادة (نفس) .

٤ - انظر المرجع السابق .

٥ - انظر (معجم مقاييس اللغة) ، مادة (نفس) وكذا اللسان ، وكذا مفردات الراغب الأصفهاني .

لم أعثر على هذا اللفظ فيما بين يدي من كتب الصحاح ، ولكن أخرج الإمام أحمد في مسنده بسنده إلى أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوا واسألوا الله خيرها واستعيذوا به من شرها " ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ .

لما مر لا بد أن نسلم أن كلمة نفس بما فيها من تأنيث هي الممكن في مقام الخلق وطلب التقوى ومتانة الصلة بين الخالق والمخلوق .
 كما أنني ألح بارقة أخرى وإن كانت ثانوية في صلة هذه الكلمة المؤنثة ، وهي تسمية السورة التي كانت بمثابة الديباجة الرائعة .
 وهذه العلاقة المتينة نفتقدها لو أبدلت كلمة نفس بما يدل على المذكر ، فهي عنوان بارز على أن هذه السورة نزلت تكريماً وتشريفاً وإنصافاً للنساء ، فسبحان القائل : { وليس الذكر كالأنثى }^(١) تنويهاً بأهمية دورها وعظم قدرها .

ومما جاء مؤنثاً لهدف بلاغي قوله تعالى :

{ إن يدعو من دونه إلا إناثاً وإن يدعو إلا شيطاناً مريداً }^(٢) .
 قالت أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها - في إناثاً :
 أوثاناً^(٣) ، وقال ابن جرير^(*) : قال المشركون للملائكة بنات الله - تعالى الله علواً كبيراً - ، فصوروا آلهة وقالوا هؤلاء يشبهون بنات الله الذي نعبد ، يعنون الملائكة^(٤) . وهذا التفسير شبيه بقوله تعالى : { أفرأيتم اللات والعزى }^(٥) ، وقوله تعالى : { وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتب شهدتهم ويسألون }^(٦) . إذ جعلوا أنفسهم

١ - الآية (٣٦) ، سورة آل عمران .

٢ - الآية (١١٧) .

٣ - انظر تفسير ابن كثير ، م ١ ، ص ٥٥٦ .

* هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري ، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين من الهجرة ، ومن أشهر مصنفاته (جامع البيان في تفسير القرآن) .

انظر (التفسير والمفسرون) ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

٤ - انظر تفسير (جامع البيان) لابن جرير الطبري ، م ٤ ، ص ١٧٩ وما بعدها .

وكذا تفسير ابن كثير ، م ١ ، ص ٥٥٦ .

٥ - الآية (١٩) ، سورة النجم .

٦ - الآية (١٩) ، سورة الزخرف .

للإنسان عباداً وهم يأنفون من أن يكونوا لهم أولاداً^(١) ، فكان ذلك منتهى السخف منهم ، فجاءت الآية إظهاراً لتناقض حالهم ، ودليلاً على ضلالتهم ، وإقراراً لسفه عقولهم ؛ خصوصاً وأن (مادة " أنت " و " وثن " يلزمها في نفسها الكثرة والرخاوة والفرقة ، وكل تلك المعاني في غاية البعد عن رتبة الإلهية)^(٢) . وأعجب من ذلك أن يكون هذا صادراً من العرب ، وقد علم الناس حال المرأة بينهم^(٣) ، فجاءت إنثاءً بدل أوثاناً لما ذكر من أغراض بلاغية ، ثم أوضحت الآية أن حقيقة ما يدعون أضل وأسفه لأنها أوهام زينها الشيطان لغوايتهم .

ثم لا ننسى صيغة المضارع في قوله تعالى { يدعون } الدالة على استمرار سفههم حيناً بعد حين ، وإن تغيرت الأسماء لهذه المعبودات الباطلة.

ومما وصف فيه المذكر بكلمة مؤنثة لنفس الهدف قوله تعالى :

{ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً ... }^(٤) .

وأحسب أن مادة (كل) تدل على الإعياء والضعف الذي هو بالمؤنث أنسب وأقرب ؛ لذا سمت العرب من مات ليس له ولد أو والد يُشَدُّ بهما عضده كلاله^(٥) . وإن كثرت الجدل فيها إلا أنها في النهاية ذات صلة كبيرة بما يدل على الضعف والانكسار ، فالتأنيث فيها أولى وأبلغ وإن دلت على رجل .

١ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٤٠٤ .

٢ - انظر المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٤٠٥ .

٣ - انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ٢٠٣ .

٤ - جزء من الآية (١٢) .

٥ - انظر (اللسان) ، مادة (كل) .

وبالمثل قد يكون لتقديم هيئة التذكير حاجة بلاغية ملحة يتطلبها السياق أو الحالة النفسية ، أو بلغة البلاغيين القدامى : " مراعاة مقتضى الحال " . وهذه الآية في الموارد تبرهن ذلك . قال تعالى :

{ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ... } (١) .

المقام مقام وصية للميراث بعد الموت ، أي خطب عظيم تتجرعه النفس البشرية ولا تكاد تسيغه ؛ لأنه الموت ، مفارقة الحياة بكل ما فيها من عزيز وغال ، وهل أعز على النفس من المال ؟ وقد قيل قديماً : المال سوى الروح . ولنا أن نعجب من أسلوب الذكر الحكيم مقرين بقلب يملؤه اليقين أنه كلام رب العالمين المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور . اسمع هذا الأسلوب الذي ينساب بلطف وتحن ورفق : { يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين } بادئاً بالذكر تلطفاً بهم ومجارة لما انطوت عليه دخائلهم ؛ إذ الذكر في عرف العربي القديم أعز على النفس من الأنثى لاعتبارات كثيرة كانت هي ملابسات حياتهم آنذاك .

ثم من طرف خفي توجههم الآية إلى مراعاة حق الإناث الذي كان ضائعاً من قبل بقوله تعالى : { فإن كن نساءً فوق اثنتين ... } إشارة صريحة على أن لهن في الميراث حقاً .

وحسبنا ما ذكر في هذا المبحث رجاء أن يدل على ما لم تتمكن الدراسة من مناقشته لضيق المقام وكراهة التكرار . والله أسأل التوفيق والإخلاص فهو ولي ذلك والقادر عليه .

المبحث الثاني

بلاغة المفردة القرآنية في سورة النساء

من حيث مادتها

المطلب الأول : أدوات الشرط .

المطلب الثاني : أدوات النفي .

المطلب الثالث : حروف العطف .

المطلب الرابع : حروف الجر .

المبحث الثاني : بلاغة المفردة القرآنية في سورة النساء من حيث مادتها

مدخل :

إذا كان الآن قد حان وقت الوفاء بما تم الوعد به من دراسة بلاغة المفردة القرآنية في سورة النساء من حيث مادتها ، فإن هذا المبحث سيدرس مادة المفردة من حيث تنوعها بين الشرط ، والنفي ، والعطف ، والجر ، وإذا كان لقائل أن يقول : فأين تنوع الكلمة إلى الاسمية والفعلية ؟ فأني أقول : لقد مضى - ضمناً - في المبحث الأول دراسة تنوع الكلمة ، بل تعدد صورها من حيث الاسمية ، أما دراستها من حيث كونها فعلاً ، فذلك حديث نظم الجملة الذي هو موضوع الفصل الثاني بما يشتمل عليه من مباحث ، إن شاء الله .

المطلب الأول : الإعجاز البلاغي في أدوات الشرط .

من بديع مواطن الإعجاز البلاغي الدقة في اختيار أدوات الشرط في آيات الذكر الحكيم لما بين تلك الأدوات من فروق اعتادت الأذن العربية تمييزها ، وهو مما بهر البلغاء من عصر نزول القرآن وحتى الآن .
وستتناول الدراسة بعض^(١) هذه الأدوات لتحظى بشيء من نكاتها البلاغية في الجملة القرآنية من سورة النساء بحول الله وقوته .

أولاً : (إذا) و (إن) :

من المعلوم بلاغياً أن (إذا) تستعمل في ما هو محقق الوقوع و(إن) في ما يخالطه الشك^(٢) ويتبع هذا الكثير من المعاني مثل اليقين والكثرة والتأكيد وشدة الرجاء وصدق الرغبة ؛ وما إلى ذلك من استعمالات (إذا) وعكس تلك المعاني وغيرها^(٣) من استعمالات (إن) حسب ما يقتضيه الحدث الذي يدور عليه السياق .

وإذا استعملت إحدى الأداتين مكان الأخرى كان ذلك لنكتة بلاغية أيضاً^(٤) وإليك برهان ذلك فيما يلي من الآيات : قال تعالى :

{ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ... }^(٥) .

١- مثل : (إذ) و (إن) و (لو) وذلك لتنوع أغراضها البلاغية .

٢- انظر (الإيضاح) للخطيب القزويني ، ص ٥٧ ، وكذا (شروح التلخيص) ، ج ٢ ، ص ٣٥ وما بعدها . وكذا (البلاغة فنونها وأفنانها) د. فضل حسن عباس ، ص ٣٢٨ وما بعدها ، وكذا (خصائص التراكيب) د. محمد أبو موسى ، ص ٢٥٧ وما بعدها .

٣- مثل ندرة الوقوع ، والتبكيك ، والسخرية ، والزجر .

٤- قد يظن المستعجل أن استعمال إحداهما بدل الأخرى ضعف في الأسلوب ولكن بإنعام النظر يتضح أن وراء ذلك مغزىً بلاغياً عميقاً خصوصاً عندما تؤخذ الناحية النفسية بعين الاعتبار .

٥- جزء من الآية (٦) .

لقد احتوت هذه الآية المباركة أداتي الشرط (إذا) ، و (إن) .
 ووقعت كل منهما في موقعها المعجز . وبيان ذلك أن تحري بلوغ اليتيم
 مبلغ الرشد أمر حتمي لا غنى عنه حتى لا يدفع إليه ماله قبل ذلك فيكون
 مظنة التضييع ؛ وذلك لعدم اكتمال دعائم الرشد فيه لصغر أو سفه ؛ ولكن
 في الأمر مزلقاً خطراً حيث قد يتساهل الأوصياء في زمن الدفع لحاجة في
 أنفسهم فيلحق باليتيم الظلم ، والله سبحانه وتعالى تعهد حمايته ؛ ولذا جاء
 جواب الشرط الأول شرطاً ثانياً منبهاً إلى المسارعة إليه ب (إن) التي
 اشترطت إيناس الرشد مُكرراً فتضافر السياق مؤكداً على المبادرة في ذلك
 بـ (إن) التي تدل على احتمالية وجود الرشد ، وكلمة (أنستم) الدالة
 على ظهور أول بواده ، و التنكير الذي يدل على وجود أي بادرة منه
 مهما صغرت ؛ لأن (أول أحوال الرشد قد يقارنها السفه باعتبار أثر
 الصبا)^(١) ، ولذا افتتحت الآية بالأمر بابتلائهم ثم إذا ظهرت بوادر الخير
 تسلم إليهم باقي أموالهم .

فكانت (إذا) على بابها للتأكيد على الشرط ، كما جاءت (إن) على
 بابها للاحتمال والظن وهكذا (جاء القرآن على طريقة القوم في كلامهم
 وخاطبهم بما يخاطبون به أنفسهم)^(٢) ليصل بذلك إلى الأعماق فينصاعون
 له طائعين .

ومما جاء على شاكلته قوله تعالى :

{ فَإِذَا أَحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ
 مِنَ الْعَذَابِ ... }^(٣) .

جاءت الآية في شأن الإماء المؤمنات ، شدد المولى في وصف
 حالتهم بالإحصان ب (إذا) وزاده تشديداً وتأكيداً بدخولها على الفعل

١- انظر (روح المعاني) ، ٢م ، ٤ ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ .

٢- (خصائص التراكيب) د. محمد أبو موسى ، ص ٢٦٨ .

٣- جزء من الآية (٢٥) .

الماضي ، وقلل احتمال إتيانهم الفاحشة بعد ذلك وهن مسلمات تنبيهاً على أن ذلك الخلق غير متوقع منهن .

ولأن (إذا) تأتي في مقام التأكيد للأمر المقطوع بوقوعه فقد جاءت كثيراً في بيان الأحكام الشرعية، ومنها حكم الصلاة ، اسمع رعاك الله قوله تعالى :

{ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ... } (١) .

لما كان أصل (إذا) الجزم بالوقوع كان الغالب في الفعل المستعمل معها أن يكون بلفظ الماضي لإشعار المضي بتحقق الوقوع الذي يناسب مفاد (إذا) (٢) وهكذا ترى زمن الفعل في معظم الآيات الواردة معها .
ومنه قوله تعالى :

{ فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا } (٣) .
ومنه قوله تعالى :

{ إِنِ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا } (٤) .
فقد أكدت (إذا) حال كسلهم وهو دليل صادق على نفاقهم . ومنه في غير الصلاة قوله تعالى :

{ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ... } (٥) .

وقوله تعالى :

١ - جزء من الآية (١٠٢) .

٢ - انظر (مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح) لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص ، ج ٢ ، ص ٤٠ .

٣ - الآية (١٠٣) .

٤ - الآية (١٤٢) .

٥ - جزء من الآية (١٨) .

{ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً }^(١) .

وقوله جل شأنه :

{ وإذا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً }^(٢) .

وقوله :

{ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتُم في سبيلِ اللهِ فتبَيَّنوا ولا تقولوا لِمَنْ ألقى إليكم السلامَ لستَ مؤمناً تبتغونَ عرضَ الحياةِ الدُّنيا فعندَ اللهِ مغنمٌ كثيرةٌ ... }^(٣) .

وقوله عز من قائل :

{ وقد نزلَ عليكم في الكتابِ أنْ إذا سمعتم آياتِ اللهِ يُكفَرُ بها ويُستهزأُ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره إنكم إذا مثلهم إنَّ اللهَ جامعُ المنافقينَ والكافرينَ في جهنمِ جميعاً }^(٤) .

في كل ما سبق يتبادر إلى الأذن نبرة الحزم والتأكيد ؛ فهي أمور عظام لا مجال معها للتلطف أو الشك ، فناسب معها أداة الشرط (إذا) ؛ مراعاة لما اعتادت عليه الأذن العربية من كلامهم ودخلت الأداة على الفعل الماضي لما سبق ذكره .

وبالمقابل نجد (إن) تدل على الأمر غير المقطوع بوقوعه وإن

وردت مع غيره فلمغزى بلاغي يدل عليه السياق ، تأمل قوله تعالى :

{ فإن خفتُم ألا تعدلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانكم ... }^(٥) .

١ - الآية (٦١) .

٢ - الآية (٨٦) .

٣ - جزء من الآية (٩٤) .

٤ - جزء من الآية (١٤٠) .

٥ - جزء من الآية (٣) .

عبر سبحانه بأداة الشك حثاً على الورع^(١) وقليل من الأمة من يخاف
عدم العدل وإلاّ فالأكثر يقدمون على التعداد دون مبالاة بهذا الشرط الصعب
يل تدفعهم إليه رغبات أخرى . ومما شاكله قوله تعالى :

{ فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا... }^(٢) .

وطيب النفس في هذا الأمر مما يندر وقوعه . ومنه قوله تعالى :

{ فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَ تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلاً... }^(٣) .

لأن الطاعة الكاملة من الزوجة مظنة الشك لذا جعل الله بهذه الأداة
تصويراً دقيقاً لواقعهن ، لو استبدلت بـ (إذا) لكان أمر الطاعة صعب
المسلك خصوصاً وأن من شيم الخير في الرجل الترفق بأهله ، وأنه ما
أكرمهن إلاّ كريم وما أهانهن إلاّ لئيم ، وهذا ما يؤكد آخر الآية .

ومثله في الاحتمالية كذلك وقوع الطلاق لذا قال تعالى :

{ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا عَلِيمًا }^(٤) .

ومثله كثير في هذه السورة المباركة وفي القرآن بشكل عام .

ومما يؤكد معنى الاحتمالية والفرض في (إن) استعمالها في آيات
المواريث حيث تُفرض الحالة ولا يُجزم بوقوعها لأنها مثال يُقاس عليه
الواقع وليست حكاية عن واقعة بعينها ، ومن ذلك قوله تعالى :

{ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا

النِّصْفُ وَلِأَبْوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ

يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ

... }^(٥) .

وكذا قوله تعالى :

١ - انظر (نظم الدرر) للإمام البقاعي ، ج ٥ ، ص ١٧٩ .

٢ - جزء من الآية (٤) .

٣ - جزء من الآية (٣٤) .

٤ - الآية (١٣٠) .

٥ - جزء من الآية (١١) .

{ ولکم نصف ما ترک أزواجکم إن لم یکن لهن ولدٌ فإن کان لهن ولدٌ فلکم الربع مما ترکن من بعد وصية یوصین بها أو دین ولهن الربع مما ترکتم إن لم یکن لکم ولدٌ فإن کان لکم ولدٌ فلهن الثمن مما ترکتم من بعد وصية توصون بها أو دین وإن کان رجلٌ یورث کلالةً أو امرأةً وله أخٌ أو أختٌ فکل واحدٍ منهما السدسُ فإن کانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فی الثلث } ... (١) .

کلها كما ترى حالات یفترض وقوعها ولذا ناسب معها (إن) لتؤكد بلاغة القرآن العظیم ، ودقته المتناهية فی كافة الأمور وأنه نزل بلسان عربي مبين .

وقد تستعمل (إن) فی مقام القطع بوقوع الشرط - وهو مقام (إذا) - لنکته وهدف بلاغي^(٢) لا یصعب علی متأمل تصیده ، من مثل قوله تعالى :

{ واللاتی یأتین الفاحشة من نسائکم فاستشهدوا علیهن أربعاً منکم فإن شهدوا فأمسکوهن فی البيوت حتی يتوفاهن الموتُ أو یجعل الله لهن سبيلاً } (٣) .

والشاهد : { فإن شهدوا فأمسکوهن } وردت (إن) بدل (إذا) لأن المقام مقام تشريع والیقین مطلوب لما یترتب علیه من الحد الشرعي ، لكن الداعي لمثل هذا الخروج فی استعمال (إن) ندرة توفر هذه الشهادة لما فی الأمر من خفاء یرجح الشک ، ومما یقوي هذا الاحتمال مضاعفة عدد الأشهاد إلى حد الأربعة مع أن الشهادة عادةً تقبل باثنين عدول وحسب ، وفيه لطف من الرحمن الرحيم بعباده فهو حلیم ستار حتی مع العصاة رجاء

١ - جزء من الآية (١٢) .

٢ - كالتجاهل لاستدعاء المقام إياه ، وكعدم جزم المخاطب ، أو تنزیله منزلة الجاهل لمخالفته مقتضى العلم ، وكالتوبيخ علی الشرط ، وكتغليب غير المتصف بالشرط علی المتصف به .

راجع (شروح التلخیص) ، ج ٢ ، ص ٤٣ ، وما بعدها .

٣ - الآية (١٥) .

التوبة والإنابة إليه سبحانه ، ولذا أردفت الآية بقوله سبحانه : { فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً }^(١) .

وتأتي (إن) بدل (إذا) للتبكيك و الزجر و الندرة و الاستغراب ومنه قوله تعالى :

{ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج و آتيتم إحداهن قطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتناً وإثماً مبيناً }^(٢)

وهذا زجر للأزواج وفيه منة عظيمة على الزوجات المؤمنات حيث إن البائسة خسرت الزوج وهي مصيبة لا يقدر قدرها إلا المطلع على ما في الصدور ، فكيف لو حرمت كذلك المال وتعرضت للحاجة والعوز ؟ لا شك أن في مثل هذا منهجاً تربوياً يعالج من طرف خفي حتى يترفع عنه من كان يراعي الله في العشرة . وقد زاد الأسلوب غرابة دخول (إن) على الماضي .

ومما جاء على شاكلته مع اختلاف الهدف قوله تعالى :

{ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً }^(٣) .

مع أن الحكم مقطوع بوقوعه لا محالة وهذا يقتضي وجود (إذا) إلا أن (إن) تدل على أن هذا الاجتناب مطلب عزيز ونادر ولا يتأتى إلا بمجاهدة النفس والصبر عليها ؛ ولذا كان الجزاء عليه عظيماً .

وقد تستعمل (إذا) مكان (إن) إذا أردت أن تصور الكلام مشكوكاً في حصوله ، غير متيقن منه ، وكأنه محقق الوقوع وهو قليل نادر^(٤) . ولكن لم أخط بهذا اللون في هذه السورة المباركة " النساء " .

١ - الآية (١٦) .

٢ - الآية (٢٠) .

٣ - الآية (٣١) .

٤ - انظر (البلاغة فنونها وأفانها) د . فضل حسن عباس ، ص ٣٤٣ .

ثانياً : (لو) :

وهي تفيد تعليق حصول مضمون الجزاء بحصول مضمون الشرط مع القطع بانتفائهما في الزمن الماضي ؛ ولذا قيل عنها إنها حرف امتناع لامتناع ونادراً ما تدخل على المضارع وتكون لهدف استمرار الفعل وقتاً بعد وقت^(١) .

ومن أمثلتها في سورة النساء قوله تعالى :

{ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذريةً ضعافاً خافوا عليهم فلينقوا الله وليقولوا قولاً سديداً }^(٢) .

قال الزمخشري : (معناه وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذريةً ضعافاً وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسيهم)^(٣) . إذن الآية تصور حالة افتراضية بغرض (التخويف بالحالة التي لا يبقى معها مطمع في الحياة ولا في الذب عن الذرية الضعاف وهي الحالة التي وإن كانت من الدنيا إلا أنها لقربها من الآخرة ولصوقها بالمفارقة صارت من حيزها ومعبراً عنها بما يعبر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من الترك)^(٤) .

وسر اختيار (لو) في هذا السياق هو القطع بانتفاء الحدث^(٥) والخوف على الذرية الضعاف وهذه حالة نفسية فطرية لا ينفك منها أحد ولهذا يكون معنى الانتفاء أقرب للواقع كما أن الآية تشير إلى أن ترك الذرية أغنياء يقلل حالة الضعف لأن اليتيم الغني أقوى بماله وإن كان ضعيفاً ، وإلا ، للزم حصول الجواب قبل الشرط وهذا محال .

١ - راجع (شروح التلخيص) ، ج ٢ ، ص ٦٨ ، وما بعدها أو ما شئت من كتب البلاغة .

٢ - الآية (٩) .

٣ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٥٠ ، وكذا (التفسير الكبير) للفخر الرازي ، ج ٩ ، ص ١٩٨ .

٤ - انظر (الكافي الشافي) للإمام العسقلاني على الكشاف ، ج ١ ، ص ٢٥٠ .

٥ - لأن مفادها عدم تحقق جملتها ، انظر (البلاغة فنونها وأفنانها) د. فضل حسن عباس ، ص

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى :

{ وما أرسلنا من رسولٍ إلا ليطاعَ بإذنِ الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفرَ لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً } (١) .

نزلت توبيخاً للمنافقين وتوعداً لهم بعدم المغفرة ، ولكنها جاءت بأسلوب الشرط ليكون ذلك بياناً لسبب غضب المولى عليهم وهو رحمن رحيم ، (فلو استقاموا حينئذٍ من غلوائهم لعلموا أن إرادتهم أن يتحاكموا إلى الكفار والكهنة جريمة يجب الاستغفار منها ولكنهم أصروا واستكبروا . وفي ذكر " لو " وجعل " لوجدوا الله تواباً رحيماً " جواباً لها إشارة إلى أنهم لما لم يفعلوا فقد حرموا الغفران) (٢) فظلموا بذلك أنفسهم لأنهم أضاعوا على أنفسهم نعمة لا تقدر بقدر فاستغفار من سمي باسم الرسالة (٣) منة لم يستحقوها لعظم جرمهم .

وما أشد بهاء (لو) في قوله تعالى :

{ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً } (٤) .

(لو) هنا جعلت المحك الرئيس للتأمل في هذا الغرض الذي يفضي إلى حقيقة ناصعة البيان لا يختلف فيها اثنان ، فالشرط المقطوع بانتفائه هو كون هذا القرآن من مصدرٍ آخر غير الله سبحانه وتعالى ، فلو فرض هذا

١ - الآية (٦٤) .

٢ - انظر (التحرير والتتوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ١١٠ .

٣ - في الآية الكريمة التفات رائع من أسلوب الخطاب في قوله تعالى : { جاءوك } إلى الغائب في قوله : { واستغفر لهم الرسول } تقيماً لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيماً لاستغفاره وتبنيهاً على أن شفاعته في حيز القبول . انظر تفسير (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٤٤ ، وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

٤ - الآية (٨٢) .

الشرط لكان الجواب وجود اختلاف كثير (في المعنى بالتناقض والتخلف عن الصدق في الإخبار بالمغيبات أو بعضها ، وفي النظم بالتفاوت في الإعجاز ، فإذا علموا أنه من عند الله بهذا الدليل القطعي)^(١) الذي وصلوا إليه بأنفسهم بعد تأمل رُسُخَ الإيمان في نفوسهم و (حفظوا سرائرهم كما يحفظون علانيتهم لأن الأمر بالطاعة مستور فيه السر والعلن)^(٢) ، والقصد من هذا الشرط لفت الانتباه إلى أمر يفضي بهم إلى حقيقة مصدر القرآن الكريم أي (ألا يتدبرون انتفاء الاختلاف منه فيعلمون أنه من عند الله ... هذا استدلال وجيز وعجيب قصد منه قطع معذرتهم في استمرار كفرهم ، ووصف الاختلاف بالكثير في الطرف الممتنع وقوعه بمدلول (لو) ليعلم المتدبر أن انتفاء الاختلاف من أصله أكبر دليل على أنه من عند الله)^(٣) فـ (لو) ربطت هذين الأمرين لتدل على عدم تحقق وقوعهما وأن قرآننا منزله عنهما فهو كلام الله .

ومن أمثلة دخول (لو) على الفعل المضارع - وهو خلاف الأصل - بغرض الاستمرار قوله تعالى :

{ وَدَوَّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ
أَوْلِيَاءَ حَتَّى يَهَابُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيَاءَ وَلَا نَصِيرًا }^(٤) .

لقد ترجمت (لو) الحالة النفسية للكفار على مدى الزمان ، فأقصى ما يتمنونه ارتداد أمة الإسلام إلى الحضيض الذي يغوصون هم فيه ؛ فجملة

١ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٣٤٠ .

٢ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٣٤٠ .

٣ - انظر (التحرير والتنوير) لابن عاشور ، ج ٥ ، ص ١٣٨ .

٤ - الآية (٨٩) .

الشرط " تكفرون " وجوابه " فتكونون " (١) ودخول (لو) على المضارع تصور محاولاتهم المستمرة حيّة شاخصة للعيان ، وفي اختيار (لو) دليل على أن أمنيّتهم هذه ضربٌ من المستحيل فهيئات هيئات أن يتخلى المسلمون عن دينهم ، فدونه ضرب الرقاب وفيه تبذل الأرواح والمهج رخيصة طائعة طلباً لما عند الكريم المنان .

١ - لقد تردد في كثير من التفاسير رأي مخالف في (لو) حيث جوّزوا فيها وجهين ، أحدهما : أن تكون مصدرية وعندها لا تحتاج إلى جواب . والثاني : أن تكون على بابها ويكون فعل الشرط تكفرون ولكنهم تكلفوا في تقدير جوابه فقالوا : ودوا كفركم لو تكفرون كما كفروا لسروا بذلك . فجعلوا الجواب " لسروا " وبهذا التقدير تصبح الجملتان تحملان المعنى نفسه وهذا لا يتناسب مع بلاغة القرآن الكريم مع ما فيه من تكلف ،

وممن قال بهذا الرأي : الزمخشري ، ج ١ ، ص ٢٨٨ .

وكذا أبو حيان ، ج ٣ ، ص ٣١٤ .

وكذا الرازي ، ج ١ ، ص ٥٦٢ .

وكذا البقاعي ، ج ٥ ، ص ٣٥٥ .

وكذا الألويسي م ٢ ، ج ٥ ، ص ١٠٩ .

وكذا السمين الحلبي ج ٢ ، ص ٤٠٨ .

أما من سكت عنه : ابن عطية ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

وابن كثير ج ١ ، ص ٥٣٤ .

والظاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ١٥١ .

المطلب الثاني : النفي .

وهو من أعلى ضروب البلاغة ، كثير الفوائد ، عذب الموارد . وقد تكلم فيه أرباب علم الكلام وأرباب علم البيان^(١) لما له من نكات بلاغية تتبع من تنوع أدواته وإن كان للنفي هذه المزية في سائر كلام البلغاء فما ظنك في كلام رب البلاغة وأربابها .

أولاً : (لا) :

وهي أكثر أدوات النفي استعمالاً لصلاحيتها في نفي الاسم والفعل ونفي الحدث بشكل عام ماضياً وحاضراً ومستقبلاً^(٢) وقد ترددت في هذه السورة ستاً وأربعين مرة ، منها هذه الآيات .
لنتأمل دقة اختيارها في قوله تعالى :

{ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً }^(٣) .

هذا الجزء ورد في آية طويلة وضعت القواعد الأصيلة في علم المواريث ابتدأها سبحانه فوضح فيها الحقوق ؛ ومن هنا أكد بهذه الجملة الاعتراضية أن العنصرين محبوبان وكذلك النفع منهما ، ولكن أيهما أقرب نفعاً ؟ أمر مجهول لا يديره إلا العليم الحكيم ، إن حق على البشر الاستسلام لما قضاه سبحانه فكان استخدام النفي لعدة التسليم ووجوب الالتزام ، والتأكيد على أن قضاء الله هو الأصلح .

وكان اختيار (لا) من بين أدوات النفي لتناسبها مع السياق في نفي الحكم ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، وصلاحية دخولها على الفعل وانسجامها صوتياً مع حرف الميم قبلها وهو حرف مغلق وحرف التاء بعدها وهو

١ - انظر (الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان) المنسوب لابن القيم ، ص ١٨٢ .

٢ - انظر (معجم الأدوات النحوية) للدكتور محمد التونجي ، ص ٩٨ وما بعدها .

٣ - الآية رقم (١١) .

قريب المخرج من الميم^(١) فكانت وصلة تنفيس بينهما لانفتاحها وسهولة نطقها .

أما قوله تعالى :

{ وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مطرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً }^(٢) .

دخلت (لا) على الاسم وعملت فيه عمل (إن) من حيث الحركة الإعرابية ، وإن كانت تناقضها من حيث المعنى ، فهي لتوكيد النفي كما أن (إن) لتوكيد الإثبات .

والجناح : هو الإثم^(٣) أو الحرج^(٤) ، ودخول النفي المباشر عليه وهو المسند إليه في الجملة دلّ على نفي جنس الإثم قليله وكثيره وهذا رحمة واسعة من رب رحيم خفف عنهم بوضع الأسلحة في حال الأعدار المذكورة في الآية .

ويتضح مقدار هذا التخفيف بمقارنة الآية بسابقتها في قوله تعالى :

{ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جَنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً }^(٥) .

١ - حرف اللام من الحروف الذلّقية التي تخرج من رأس اللسان مع ما فوق أصول الثنايا العليا .

وحرف التاء من الحروف النطعية التي تخرج من ظهر طرف اللسان وما يحاذيه من النطق

الأعلى وهو الجلدة المغطية لأصول الثنايا العليا .

انظر (سر صناعة الإعراب) لابن جني ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

وحرف الميم من الحروف الشفهية التي تخرج بانطباق الشفتين .

انظر (سر الصناعة) ج ١ ، ص ٤١٣ ، ج ٢ ، ص ١٥١ .

٢ - الآية : (١٠٢) .

٣ - انظر تفسير البقاعي (نظم الدرر) ، ج ٥ ، ص ٣٧٨ .

٤ - انظر تفسير (روح المعاني) ، ج ٢ ، ص ٥ ، ج ٥ ، ص ١٣١ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٨٦ .

٥ - الآية (١٠١) .

فالحكم المخفف فيه قصر الصلاة في معمعة المعارك مع الحذر المنصوص عليه في صلاة الخوف^(١) ، أما الآية موضع الدراسة فالغرض مختلف لاختلاف الموقف ، والنفي فيه للجنس قاطبة بدخوله على الاسم .
ومثله قوله تعالى : { فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ }^(٢) . في عدم تحريم الربيبة التي لم يدخل بأمرها .
وكذا قوله تعالى : { وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ }^(٣) . وذلك في مهور النساء .
وجميعها نفت جنس الإثم قاطبة رحمة من الله .

ثانياً : (لم) :

وهي ثاني أداة في الأهمية بعد (لا) والسبب يعود إلى مرونتها من حيث المعنى مع أنها تختص بالفعل المضارع لتحول معناه إلى الزمن الماضي ، إلا أنها تنفي الحدث من الماضي إلى الحاضر مع إمكانية تغييره في الزمن الحاضر ، فيصح قولنا : لم يحضر المسؤول ثم حضر وذلك ما تفقده أداة النفي (لَمَّا) فالنفي بها يكون ساري المفعول من الماضي إلى الحاضر ، (ولهذا جاز " لم يكن ثم كان " ولم يجز " لما يكن ثم كان " بل يقال " لما يكن وقد يكون ")^(٤) .

وقد تردت (لم) في سورة النساء أربعاً وعشرين مرة نقتطف منها الأمثلة الآتية متلمسين مواطن الإعجاز بحوله وقوته . قال عز من قائل :

١ - راجع في هذا أي تفسير على سبيل المثال : (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٣٧٨ وما بعدها .
وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٧٦ وما بعدها . وكذا تفسير (روح المعاني) ، ج ٢ ، ص ١٣١ وما بعدها .

٢ - جزء من الآية (٢٣) .

٣ - جزء من الآية (٢٤) .

٤ - راجع في هذا (مغني اللبيب) لابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٧٧ وما بعدها .

{ ومن لم يستطع منكم طويلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ... } (١) .

أداة النفي (لم) نفت الاستطاعة في الماضي مع احتمال وجودها في المستقبل (٢) ؛ ولهذا كان استعمالها فيه من الدقة البلاغية الشيء الكثير حتى (لما) المشتركة معها في كثير من الأحكام لا تفي بما وفت به لأن النفي — (لما) لا ينقطع والسياق يعبر عن حالة مؤقتة يتوقع تغييرها عندما يوسع (٣) الله على عبده فيتمكن من الاقتران بالمحصنات . ولهذا ختمت الآية بقوله تعالى : { فإن تصبروا خير لكم والله غفورٌ رحيم } .

وقد جاء في هذا المعنى قوله تعالى :

{ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً } (٤) .

{ فلم يقاتلوكم } حكم يخص الماضي ويصل إلى الحال ؛ ولكنه قد يتغير مستقبلاً . والمهادنة معهم في حال سلمهم واجب ديني (٥) ، أما إذا ظهر منهم خلاف ذلك ، عندها يكون قتالهم واجباً دينياً أيضاً بدليل الآية التي تليها :

١ — جزء من الآية (٢٥) .

٢ — انظر (مغني اللبيب) ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

٣ — قال ابن عطية : الطول هنا السعة من الحال . انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

٤ — الآية (٩٠) .

٥ — إن هذا الحكم كان أول الإسلام قبل أن يستحكم أمر الطاعة من الناس ، ثم لما تقوى الإسلام

نسخت بما في سورة براءة . ذكر هذا ابن عطية في (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

وذكر الزمخشري وأبو السعود أن هذا كان أول الإسلام حيث عاهد النبي صلى الله عليه

وسلم بعض القبائل على عدم الأذى والنصرة عليه .

انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٣٨٨ .

وكذا (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٥٦٣ .

{ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلمَ ويكفوا أيديهم فخذوهم
واقتلوهم حيثُ ثقتُموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً }^(١) .

ومنه قوله تعالى :

{ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبةً من الله ... }^(٢) .

وذلك في القتل الخطأ فالنفي من الماضي إلى الحال ؛ ولكنه قد يتغير
الحال قبل البدء في الكفارة فعندها يلزمه الحكم الأول وهو تحرير رقبة
مؤمنة ، وإن عز هذا الأمر في زماننا .

وقد تفيد (لم) تأكيد النفي كقوله تعالى : { لم يلد ولم يولد }^(٣) ،

وجاء منه في سورة النساء مواضع كثيرة منها قوله تعالى :

{ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن

الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً }^(٤) .

فعبارة النفي تقتضي أن هؤلاء محتوم عليهم الكفر من أول أمرهم إلى

آخره ، وذلك لترددهم بين الكفر والإيمان . فنفي المغفرة هنا أشد وأكد ؛

لأن كل من كفر كفراً واحداً ووافى عليه فقد قال الله تعالى فيهم إنه لا يغفر

لهم ، ولم يقل : لم يكن الله ليغفر لهم . فتأمل الفرق بين العبارتين فإنه من

دقيق غرائب الفصاحة التي في كتاب الله تعالى ، كأن قوله : { لم يكن الله }

حكم قد قرر عليهم في الدنيا وهم أحياء^(٥) وهو ساري المفعول لم يتغير بعد

ذلك .

ومما جاء على هذا النمط قوله تعالى :

١ - الآية (٩١) .

٢ - جزء من الآية (٩٢) .

٣ - الآية (٣) ، سورة الإخلاص .

٤ - الآية (١٣٧) .

٥ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

{ والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً }^(١) .

ثالثاً : (ليس) :

كلمة دالة على نفي الحال وتنفي غيره بقريضة ، وهي فعل ناقص في أرجح الأقوال^(٢) . وقد وردت أربع مرات فقط في هذه السورة المباركة . أولها قوله تعالى :

{ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً }^(٣) .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن : ما مناسبة هذه الأداة للسياق ؟ وهل يغني عنها استبدالها بأداة أخرى مثل : لا توبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال ... ، أو أية أداة أخرى من أدوات النفي ؟ لقد نفت هذه الآية أن يكون تائباً من لم يتب إلا مع حضور الموت^(٤) ، وهذا المعنى استشف من معنى (ليس) التي ينفي بها الحال ، فقد قرر بها حكم شرعي هو : من كانت توبته حال تلبسه بالموت فهي باطلة ، أما أمره إن كان مؤمناً عاصياً فالإله^(٥) ، أما إن كان كافراً فمصيره إلى الجحيم . أعاننا الله جميعاً منها . وهذا المعنى لا يتأتى إلا بحضور (ليس) دون غيرها من أدوات النفي .
ومنه قوله تعالى :

١ - الآية (١٥٢) .

٢ - انظر (مغني اللبيب عن كتب الأعراب) لابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٩٣ .

٣ - الآية (١٨) .

٤ - انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

٥ - انظر المرجع السابق .

{ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبیتوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا ... } (١) .
 فقد نفوا بـ (ليس) حال إيمانه عند إلقائه تحية الإسلام ، فعاتبهم الله سبحانه ونهاهم عن ذلك وطلب منهم أن يقبلوا منه ما أظهره ويعاملونه بموجبه (٢) .

ومنه قوله تعالى :

{ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً } (٣) .
 وكذا قوله تعالى :

{ ليس بأمانيتكم ولا أمانيتي أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجزأ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً } (٤) .
 جميع هذه المواضع دلت فيها (ليس) على نفي الحال إلا الأخيرة ، فالنفي فيها يمتد إلى الاستقبال وذلك يقيد الشرط الذي جاء بعده .

رابعاً : (لن) :

اتفق المشتغلون بالنحو والبلاغة والتفسير على أن (لن) حرف نصب ونفي واستقبال (٥) ولكنهم اختلفوا في الغرض البلاغي المستخلص من النفي بها دون غيرها . فقال سيبويه إنها تنفي المضارع من غير أن يشترط أن يكون النفي بها أكد من النفي بـ (لا) . وذهب الزمخشري إلى أن (لن) لتأكيد ما تعطيه (لا) من نفي المستقبل ، كما ينسب إليه أنها تفيد تأييد النفي ، وردّ عليه بأنها لو كانت للتأييد لم يقيد نفيها باليوم في قوله

١ - الآية (٩٤) .

٢ - انظر تفسير (روح المعاني) ، ٢م ، ٥ج ، ص ١١٨ .

٣ - الآية (١٠١) .

٤ - الآية (١٢٣) .

٥ - انظر (مغني اللبيب عن كتب الأعراب) لابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

تعالى : { فلن أكلم اليوم إنسياً } ، ولم يصح التوقيت في قوله تعالى : { قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى } . وأغرب الزمكاني فقال : إن (لن) تنفي ما قرب ولا يمتد معنى النفي فيها . وردده عليه أبو حيان^(١) . ولكن عند تأمل مواضعها الأربعة التي وردت في سورة النساء وجدت أنها جميعاً تعطي معنى تأكيد النفي في الحال والاستقبال أي : معنى تأبيد النفي . اسمع قوله تعالى :

{ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتدروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً }^(٢) .

فقد أكدت (لن) نفي استطاعة العدل على الدوام وإن كان توخي الحرص والمقاربة مطلوباً . ويؤكد هذا ذيل الآية الكريمة ، كما يؤكد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : " اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك " ^(٣) .

ونجد نفس الصورة في قوله تعالى :

{ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً }^(٤) .

فقد أكد المولى نصر المؤمنين على الكافرين في كل زمان ومكان وحتى تقوم الساعة . وما تلاحظه اليوم من غلبة الكافرين على المؤمنين فمرده ضعف الإيمان أو انعدامه في بعض الأحيان فيمن ينتسبون إلى الإسلام .

١ - انظر (همع الهوامع شرح جمع الجوامع) للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٤ .

والآيات جزء من الآية (٢٦) ، سورة مريم . والآية (٩١) ، سورة طه . على التوالي .

٢ - الآية (١٢٩) .

٣ - انظر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٥٦٥ .

٤ - جزء من الآية (١٤١) .

وكذا يظهر تأييد النفي الدائم في قوله تعالى :

{ وَمَنْ يَضِلِ اللهُ فَلَئِنْ تَجَدَّ لَهُ سَبِيلًا }^(١)

ويتأكد الرأي أكثر بقوله تعالى :

{ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقْرَبُونَ وَمَنْ

يَسْتَنْكِفُ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرُ فَيُحْشِرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا }^(٢) .

فهل ترى في هذه المواضع إلا تأكيد النفي في الحاضر والمستقبل ،

أي تأييد النفي على الدوام ؛ ولكن تبقى حجة المعارضين^(٣) ظاهرة لوجود

ما يؤيدها في كتاب الله .

وللتوفيق بين الرأيين نقول : إن (لن) تكون في الأعم الأغلب لنفي

الحال والاستقبال ، وتأتي أحياناً لتأييد النفي بمساعدة المقام . ويؤكد هذا ما

جاء في هذه السورة المباركة . والله أعلم وأحكم .

١ - جزء من الآية (١٤٣) .

٢ - الآية (١٧٢) .

٣ - لما قاله الزمخشري في أن (لن) لتأكيد نفي الحال والاستقبال دون تأييد النفي .

انظر (همع الهوامع) للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٤ .

المطلب الثالث : العطف .

أولاً : حرف (الواو) :

أشهر حروف العطف دوراناً في النصوص العربية الفصيحة وعلى رأسها القرآن الكريم ، ومن المتعارف عليه أن العطف بالواو يفيد التشريك في الحكم^(١) ؛ ولذا لا يتوخى معه الترتيب مثل الفاء وثم ، مع ما فيه من خصوصيات أخرى تُثري المعنى البلاغي ستكشف عن نفسها في مواطن التحليل بإذن الله تعالى . تأمل قوله تعالى :

{ فاتكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا }^(٢) .

واختيار العطف بحرف الواو دون (أو) لغرض بلاغي دقيق شرحه الزمخشري - رحمه الله - قائلاً : فإن قلت : فلم جاء العطف بالواو دون (أو) قلت : كما جاء بالواو في المثال الذي حذوته لك ولو ذهبت تقول اقتسموا هذا المال درهمين درهمين أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة علمت أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة ، وليس لهم أن يجمعوا بينهما فيجعلوا بعض القسمة على ثنية وبعضه على تثليث وبعضه على تربع . وأذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذي دلت عليه الواو ، وتحريره أن الواو على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها من النساء على طريق الجمع إن شاءوا متفقين فيها ، محظوراً عليهم ما وراء ذلك^(٣) .

١ - يقول السيوطي : وهي لمطلق الجمع أي من غير تقييد بحصول الحدث من الشريكين في زمان أو سبق أحدهما .

انظر (همع الهوامع) ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

٢ - جزء من الآية (٣) .

٣ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٤٥ .

فأثبت الزمخشري أن الواو هنا أصلت حكماً شرعياً لا يثبت إلا بها ، وهو جواز الجمع بين أنواع القسمة في مجتمع المخاطبين كل حسب رغبته إلى الحد المباح لهم . ولو قيل (أو) للزم نوع واحد من الجمع لو اختاره رجل من القوم لزم الجميع في ذلك العصر وانسحب الحكم على بقية العصور لأن (أو) تفيد التخيير في الحكم بخلاف (الواو) التي تفيد التشريك فيه .

ومما جاء فيه حرف (الواو) مصوراً الأحداث أصدق صورة قوله تعالى :

{ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم وكفؤا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً } (١) .

في هذه الآية الكريمة تردد حرف (الواو) مرات عديدة ، فما سر ذلك ؟ إننا نجد في عطف الجمل الواقعة شرطاً كما نجده في عطف الجمل الواقعة جواباً ففي قوله تعالى : { فإن لم يعتزلوكم } الاعتزال ليس وحده المطلوب لتحقيق الأمن بل ربما اعتزلوكم ولكن ما زال أذاهم يلاحقكم بطريقة أو بأخرى . إذن لا بد أن يشرك مع الشرط ما يحقق الأمن التام فجاء العطف بالواو في { ويلقوا إليكم السلم وكفؤا أيديهم } . وهي ألفاظ متقاربة معناً و زمناً^(٢) ولكن لكل منها خصوصية في الكشف عن الموقف بدقة متناهية .

١- الآية (٩١) .

٢- انظر (مغني اللبيب) ، ج ٢ ، ص ٣٥٥ .

وقال : ويجوز أن يكون بين متعاطفيها تقارب أو تراخ ويقصد المهلة الزمنية .

وكذا (همع الهوامع) ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

ثم لماذا العطف بـ (الواو) دون غيرها ؟ والسر أنه يفيد التشريك في الحكم دون ترتيب أو مهلة ؛ وهذا ما يحتاجه الموقف الحازم هنا ، أمور ينبغي أن تأتي متلازمة في الشرط وفي الجزاء ثم يتم المعنى بقوله تعالى :
 { وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً } .

ثانياً : (الفاء)^(١) :

وهي من الكثرة بمكان وفائدتها التشريك مع الترتيب والتعقيب دون مهلة وقد ترددت عشرات المرات في سورة النساء وأختار من ذلك قوله تعالى :

{ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيلٍ حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منكم من الغائطٍ أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتميموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً }^(٢) .

١ - قال ابن هشام : ترد على ثلاثة أوجه ، أحدها أن تكون عاطفة ، وتفيد ثلاثة أمور : أحدها : الترتيب ، وهو نوعان : معنوي كما في (قام زيد فعمرو) وذكرى ، وهو عطف مفصل على مجمل ، نحو قوله تعالى : { فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه } (البقرة / ٣٦) الأمر الثاني : التعقيب ، وهو في كل شيء تحسبه . ألا ترى أنه يقال : تزوج فلان فولد له ، إذا لم يكن بينهما إلا مدة الحمل ، وإن كانت متطوالة . الأمر الثالث : السببية ، وذلك غالب في العاطفة جملة أو صفة .

فالأول نحو قوله تعالى : { فوكزه موسى فقضى عليه } .

الثاني نحو قوله تعالى : { لآكلون من شجر من زقوم فمائلون منها البطون فشاربون عليه

من الحميم } .

انظر (مغني اللبيب) ، ج ١ ، ص ٦١ وما بعدها .

وكذا في كتاب (معاني الحروف) للرماني ، تحقيق عبد الفتاح شلبي ، ص ٤٣ .

وكذا في (همع الهوامع) للسيوطي ، ج ١ ، ص ١٣٠ وما بعدها .

٢ - الآية (٤٣) .

الفاء العاطفة في قوله تعالى : { فلم تجدوا ماءً } إما بفقده أو العجز عن استعماله^(١) . وقد (عطف ما بعدها على الشرط " إن كنتم " ، وقال أبو البقاء : على " جاء " لأنه جعل " جاء " عطفاً على " كنتم " فهو شرط عنده)^(٢) . والسبب الحقيقي لجواز التيمم انعدام الماء مع تحقيق ما يوجب استعماله^(٣) فأوردت (الفاء) الترتيب مع التعقيب وأيضاً حملت معنى السببية .

ومما جاء فيه هذا الحرف دالاً على السببية قوله تعالى :

{ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ
اِخْتِلَافًا كَثِيرًا }^(٤) .

هذه (الفاء) التي أتت في سياق الاستفهام الإنكاري عطف الآية بما فيها من معانٍ عظيمة^(٥) على الآية السابقة^(٦) ، وربطت بينهما برباط متين^(٧) ، حيث أن الأولى تتحدث عن المنافقين وتكشف خباياهم وما يختلج

١ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ .

٢ - انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج ٢ ، ص ٣٧٠ .

وكذا (التبيان في إعراب القرآن) للعكبري ، ج ١ ، ص ٣٦١ . أي المعطوف على الشرط شرط آخر واستقامة المعنى يؤيد رأيه .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٢٥ .

وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٤٢ .

٤ - الآية (٨٢) .

٥ - توجب التأمل في القرآن وتؤكد صلته بالله سبحانه وتتوه بإعجازه وبصدق مبلغه وصحة نبوته صلى الله عليه وسلم وتوجب تدبره والعمل بما فيه .

٦ - قوله تعالى : { ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً } (النساء / ٨١) .

٧ - ذكر المفسرون أن (الفاء) للعطف على مقدر أي : يعرضون عن القرآن فلا يتدبرون فيه ليعلموا كونه من عند الله بمشاهدة ما فيه من شواهد هذا الوحي الصادق ، والنص ناطق بنفاقهم المحكي على ما هو عليه .

انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٥٦ .

في نفوسهم المريضة ، فأرشدهم الله عز وجل إلى الدواء الشافي ألا وهو تدبر القرآن وكفا به شافياً .

كما نجد للألوسي رأياً حقيقياً في هذا العطف يقول : (لعله جواب سؤال نشأ من جعل الله تعالى شهيداً ، كأنه قيل : شهادة الله تعالى لا شبهة فيها ولكن من أين يعلم أن ما ذكرته شهادة الله تعالى محكية عنه ؟ فأجاب سبحانه بقوله : { أفلا يتدبرون القرآن } (١) وفي هذا الرأي أيضاً نجد (الفاء) توضح السببية .

ومنه قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } (٢) .

سبحان من له العظمة الكاملة ، لم يطلب منهم الإيمان بما جاء به نبي الهدى - صلى الله عليه وسلم - إلا بعد أن أكد لهم أنه الحق الذي لا مرء فيه ، وأنه من المحسن عليكم بربوبيته ، وأن الحامل له الرسول المعهود (٣) لديكم بصدقه وأمانته ، وهذا سبب كافٍ لأن تؤمنوا (٤) .

ثالثاً : (ثم) :

وهي تتوسط بين الواو والفاء لأنها تفيد التشريك في الحكم مثل الواو وتفيد الترتيب وهذا ما تفيد الفاء (٥) ، وتزيد عنهما بالمهلة .

١ - انظر (روح المعاني) للألوسي ، ٢م ، ج ٥ ، ص ٩٢ .

٢ - الآية (١٧٠) .

٣ - لأن الألف اللام في (الرسول) للعهد الذهني .

٤ - قال أبو السعود : (فآمنوا) للدلالة على إيجاب ما قبلها لما بعدها ، ج ١ ، ص ٦١١ .

وكذا الألوسي ، ٢م ، ج ٥ ، ص ٢٣ .

وكذا البقاعي ، ج ٥ ، ص ٥١٧ .

٥ - فضلاً انظر (مغني اللبيب) لابن هشام ، ج ١ ، ص ١١٧ .

وكذا (همع الهوامع) للسيوطي ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

وفي المجال التطبيقي على القرآن الكريم نجد الزمخشري في تفسيره قد استوحى لـ (ثم) أصلين يرجعها إليهما غالباً . الأول : الاستبعاد وذلك إذا كان ما بعد (ثم) أمراً مستبعد الوقوع بالنسبة لما قبلها ، أو بعبارة أخرى إذا كان ما قبل (ثم) من الأحداث والأفعال مهيناً لعدم حصول ما بعدها . والثاني : بيان البعد بين الأمرين ، إذ المراد أن الأمرين من جنس واحد لكن ما بعد (ثم) أعلى مرتبة في هذا الجنس وأبلغ مما قبلها^(١) ، مثل قوله تعالى :

{ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا }^(٢) .

وفي ذلك نظر ، حيث إن ابتداء خلق آدم عليه السلام دون نظير سابق ، ومن طين ، آية هي أعظم الآيات ، فإنشاء الشيء من عدم أبدع من إنشائه على نظير .

والاستبعاد مثل قوله تعالى :

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا }^(٣) .

والآية توضح أن لا أحد أشد ظلماً ممن أعرض عن الهداية واستحب العمى على الهدى^(٤) بعد أن يسر الله له أسباب تذكر العاقبة ، ولكنه بدل أن يرتدع انهمل في الشهوات انهمالاً ألهاه عن تذكرها ، وكان مع إتاحة فرصة التذكر خليقاً به أن يرتدع ؛ ولذا استبعد منه هذا الأمر .

وهذا الأمر الذي أشار إليه الزمخشري يدل على حسه البلاغي الدقيق كما يدل على أن أداة العطف (ثم) لم تقتصر على التشريك مع الترتيب والتراخي بل تتعداه إلى نواح بلاغية أخرى .

ومما يوضح الأغراض البلاغية للعطف بـ (ثم) قوله تعالى :

١ - انظر (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) تأليف الدكتور محمد أبي موسى ، ص ٢٩٠ وما بعدها .

٢ - سورة الزمر ، جزء من الآية (٦)

٣ - سورة السجدة ، جزء من الآية (٢٢) .

٤ - انظر تفسير (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٧ ، ص ٢٠٢ .

{ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } (١) .

تتحدث الآية عن أناس يعملون السوء بجهالة ، والجهالة : عدم العلم أو عدم الرشد ، إذن لم تتعمد قلوبهم هذا السوء بدليل قوله تعالى : { ثم يتوبون من قريب } .

واختيار حرف العطف (ثم) فيه الكثير من الدقة الواقعية ؛ لأنه أعطى معنى التراخي في زمن عمل السوء والتوبة ، وحتى لا تتشعب الأذهان في مدى هذه المهلة تسعفنا الآية لتحدد هذه المهلة الزمنية بقوله تعالى : { من قريب } . هذا بعينه ما وصفه الزمخشري بأنه بيان البعد بين الأمرين وما بعد (ثم) أعلى مرتبة مما قبلها (٢) .

وقال عزم قائل :

{ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا } (٣) .

حرف العطف (ثم) حقق معنى التشريك في الحكم في هذه الآية الكريمة التي بدأت باسم الاستفهام " كيف " المستعمل في التهويل ، وهو مشروع في بيان غائلة جنایاتهم ، أي : كيف يكون حالهم (إذا أصابتهم مصيبة) بافتضاحهم بظهور نفاقهم بسبب ما عملوه من جنایات من جملة التحاكم إلى الطاغوت والإعراض عن حكمك ، (ثم جاءوك) للاعتذار عما صنعوا من القبائح ، وهو عطف على إصابتهم . والمراد تفضيع حالهم وتهويل ما دهمهم من خطب واعتراهم من شدة الأمر عند إصابة المصيبة

١ - الآية (١٧) .

٢ - انظر (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) للدكتور أبي موسى ، ص ٢٩٠ .

٣ - الآية (٦٢) .

وعند المجيء للاعتذار^(١) ، والاعتذار أشد على النفس من المصيبة ، فهي إذن حكاية عنهم ، وقد وجهها ابن عاشور إلى الوعيد مستقبلاً .

قال : (وهذا وعيد لهم لأن " إذا " للمستقبل ، فالفعلان بعدها وهما (أصابتهم) و (جاءوك) مستقبليان ، وهو مثل قوله تعالى : { لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً } (٢) .

ومنه قوله تعالى :

{ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً } (٣) .

بدأت الآية الكريمة بنفي أصل إيمان المنافقين ، وهذا ما أفاده تقديم حرف النفي (لا) ثم إتباعه بالقسم وجوابه .

قال ابن عطية : (إنما قدم (لا) على القسم اهتماماً بالنفي وإظهاراً لقوته) (٤) . فالمقصود تعليق إيمانهم على تحكيمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشاجرتهم واستسلامهم التام في قبول حكمه عن طيب نفس ورضاهم هذا أعلى وأعظم منزلة من التحكيم نفسه وهذا ما يؤكد البقاعي بقوله : (ولما كان الإذعان للحكم بما يخالف الهوى في غاية الشدة على النفس أشار إليه بأداة التراخي) (٥) . المعبرة عن أن ما بعدها أعلى مما قبلها لأن ما بعدها هنا هو مخالفة الهوى والإذعان بما يطابق رغبة النفس .

١ - انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٤٣ .

٢ - انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ١٠٧ .

والآيتان (٦٠ ، ٦١) من سورة الأحزاب .

٣ - الآية (٦٥) .

٤ - انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

٥ - انظر (نظم الدرر) ، ج ٥ ، ص ٣١٦ .

ومنه قوله تعالى :

{ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعاً كَثِيراً وَسِعَةً
وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مَهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ
أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفوراً رَحِيماً }^(١) .

في هذه الآية الكريمة لم يعلق الحكم بالهجرة على الانفراد ، بل بها
مقروناً إليها أن يدركه الموت عليها^(٢) فصار الموت هنا كالهديّة للمهاجر
لأنه سبب الوصول إلى النعيم المقيم الذي لا يُنال إلا بالموت ، وحيء
بـ (ثم) بدل الواو تكميلاً لهذه الدقيقة وإن كانت مرتبة الخروج دون هذه
المرتبة^(٣) .

ومنه في هذه السورة قوله تعالى :

{ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً
مَبِيناً }^(٤) .

ولا يخفى أن رمي البريء بما كسب الجاني من خطيئة أعظم إثماً
من اقترافها وثمة معنى دقيق نوّه به الجرجاني^(٥) وهو أن حرف العطف
(ثم) دمج الجملتين بحيث أصبح الشرط من مجموعهما معاً بدليل أفراد
الجزاء فيهما وهذا معنى دقيق لأدوات العطف ينبغي التنبه له .

ثم تأتي (ثم) لمعنى بديع آخر وهو استبعاد ما بعدها عقلاً وعرفاً
لما قبلها^(٦) ومن أمثلته في سورة النساء قوله تعالى :

{ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا
مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهراً فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ بظلمهم ثم

١ - الآية (١٠٠) .

٢ - انظر (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر ، ص ٢٤٦ .

٣ - انظر (روح المعاني) ، ٢م ، ج ٥ ، ص ١٢٨ .

٤ - الآية (١١٢) .

٥ - انظر (دلائل الإعجاز) ، ص ٢٤٦ .

٦ - انظر (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) للدكتور أبي موسى ، ص ٢٩٠ .

اتخذوا العجلَ من بعد ما جاءتهمُ البيناتُ ففعلونا عن ذلكَ وآتينا موسى سلطاناً مبيناً { (١) } .

فبعد أن عاقبهم الله على تجرئهم عليه سبحانه وتعالى بقولهم : أرنا الله جهرة ؛ أخذتهم الصاعقة وأماتهم الله ثم أحياهم ، بعد هذا الأمر المهول كان من المتوقع التسليم التام والإيمان الراسخ إلا أنهم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات . فكان ذلك أفضع دلالة على جرمهم لأن (الخبال بعد فرط البيان أجدر بالتبكيث) (٢)

ومثله في غير هذه السورة قوله تعالى :

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خَدُّوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ... } (٣) .
فكان توليهم بعد تلك المعجزات وأخذ الميثاق مستبعداً عقلاً و عرفاً .

رابعاً : (أو) :

وهي تضيف معانٍ بلاغية جميلة على السياق خلاف الربط وقد اخترت من سورة النساء مواضع تترجم أهم تلك المعاني على كثرتها واختلافها (٤)

١ - الآية (١٥٣) .

٢ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٤٥٦ .

٣ - الأيتان (٦٣ ، ٦٤) من سورة البقرة .

٤ - راجع كتاب (معاني الحروف) للرماني ، ص ٨٠ وما بعدها .

وجاء في (مغني اللبيب) لأبن هشام : (أو) حرف عطف ذكر له المتأخرون معاني

انتهت إلى اثني عشر :

الأول : الشك نحو (لبثنا يوماً أو بعض يوم) جزء من الآية (١٩) من سورة الكهف .

الثاني : الإبهام ، نحو (قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله و إنما أو إياكم لعلى

هدى أو في ضلال مبين) جزء من الآية (٢٤) من سورة سبأ .

الثالث : التخيير ، مثل (خذ من مالي ديناراً أو درهماً) .

الرابع : الإباحة ، نحو (تعلم الفقه أو النحو) =

=الخامس : الجمع المطلق كالواو ، نحو قول جرير :

نحو قوله تعالى :

{ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً }^(١).
 معنى (أو) أصلاً أن تكون لأحد الأمرين^(٢) ولكنه يخرج إلى معان بلاغية كثيرة قد تخرج إلى اثني عشر معنى^(٣) . والمعنى الذي خرج له هنا هو التقسيم حيث جعل الله سبحانه وتعالى أمام المجاهد غايتين^(٤) بمعنى أنه يجب عليه أن يوطن نفسه لإحدى الحسينيين ولا يخطر بباله القسم الثالث أصلاً^(٥) ولا تسأل عن حماس مقاتل يتمثل في نفسه هذا الفوز العظيم ،

جاء الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربّه موسى على قدر
 هكذا رواه ابن هشام في المغني ، وقد وجد في الديوان ص ٣٠٠ بهذه الصورة :
 نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربّه موسى على قدر .

وعليه فلا شاهد في البيت .

السادس : الإضراب شرط أن يتقدمها نفي ، نحو (ما قام زيد أو ما قام عمرو) ،
 أو يتقدمها نهي ، نحو (لا يقيم زيد أو لا يقيم عمرو) .
 السابع : التقسيم ، نحو (الكلمة اسم أو فعل أو حرف) .
 الثامن : أن تكون بمعنى (إلا) في الاستثناء وهذه تنصب المضارع بعدها بإضمار أن
 كقولك (لأقتنه أو يسلم) .
 التاسع : أن تكون بمعنى (إلى) وهي كالتي قبلها في انتصاب المضارع بعدها بأن
 مضمرة ، نحو (لأزمنك أو تقضييني حقي) .
 العاشر : التقريب ، نحو (ما أدري أسلم أو ودع) .
 الحادي عشر : الشرطية ، نحو (لأضربنه عاش أو مات) أي : إن عاش بعد الضرب
 أو مات .

الثاني عشر : التبويض ، نحو (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى)

١ - الآية (٧٤) .

٢ - انظر (مغني اللبيب) لابن هشام ، ج ١ ، ص ٦١ .

٣ - المرجع السابق .

٤ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

٥ - انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٤٩ . والأمر الثالث هو التولي يوم

الزحف وهو من الكبائر .

وتتراءى أمام ناظريه مشاهد الجنة جزاءً في الحالين ، وياله من أسلوب
تربوي من أنجح الأساليب لم يكتشف في عالم الغرب إلا مؤخراً .

وقد تأتي (أو) للإباحة ؛ كقوله تعالى :

{ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ
إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا } (١) .

نفت الآية الخير عن كثير من نجواهم أو متناجيهم ، فعلم من مفهوم
الصفة أن قليلاً من نجواهم فيه خير موضح أو مفصل في ثلاثة أمور :
الصدقة ، والمعروف ، والإصلاح بين الناس (٢) . ولعل السر في إفراد هذه
الأقسام الثلاثة بالذكر أن عمل الخير المتعدي إلى الناس إما لإيصال المنفعة
أو لدفع المضرة (٣) فعدّد على النحو السابق لفرط العناية بها لما مرّ ذكره
ولا يخفى أن الذي أسهم في إيضاح هذا النسج البديع هو حرف العطف
(أو) .

ثم يظهر معنى التخيير جلياً في قوله تعالى :

{ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفَوْهُ أَوْ تَعْفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا
قَدِيرًا } (٤) .

فالتخيير قائم بين إيداء الخير أو إخفائه فكلاهما في علم الله سواء
ويجزى به سبحانه وتعالى عفوه ومغفرته . ثم عطف عليهما بقوله تعالى :

١ - الآية (١١٤) .

٢ - انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور بتصريف يسير ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ .

٣ - انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٥٨٤ .

وقد ذكر ذلك ابن مالك بقوله :

خَيْرٌ، أَيْحَ، قَسَمٌ - بَأَوْ - وَأَبْهَمَ

وَأَشْكُكُ، وَإِضْرَابٌ بِهَا أَيْضاً نَمِي

وعلق ابن عقيل قائلاً : والفرق بين الإباحة والتخيير : أن الإباحة لا تمنع الجمع ، والتخيير

يمنعه . انظر (شرح ابن عقيل إلى ألفية ابن مالك) ، ج ٢ ، ص ٢١٢ - ٢١٣ ، تحقيق محمد محي

الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، طبعة جديدة منقحة ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .

٤ - الآية (١٤٩) .

{ أو تعفوا عن سوء } تنبيهاً على منزلته واعتداداً به وإن كان مندرجاً في إبداء الخير وإخفائه ولذلك أتى سبحانه وتعالى بصفة العفو والقدرة منسوبة له تعالى ليقتدى بسنته ويتخلق بشئ من صفاته تعالى (١) .

وكل هذه المتعاطفات في تذييل الآية تجلب رضا الرب مجتمعة أو متفرقة ونكرت (لزيادة الترغيب) (٢) ، كقوله تعالى :

{ إن تُبَدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وتَوْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ... } (٣) .

وكلاهما خير، لأن الإبداء فيه حث للغير وتحفيز للهمم وتذكير للساهي . والإخفاء فيه صدق نية وثقة بما عند الله من ثواب ، والله أعلم وأحكم .

١ - انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ .

٢ - (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٦ ، ص ٧ .

٣ - جزء من الآية (٢٧١) من سورة البقرة .

المطلب الرابع : حروف الجر .

من المواضع البلاغية المعجزة الاختيار الدقيق لحروف الجر ؛ ذلك لما لهذه الحروف من أثر على بلاغة السياق الواردة فيه . وهي كثيرة جداً ولكن حسبنا بعض الأمثلة لتكون دليلاً على الباقي :

أولاً : حرف الجر (من) :

وقد استخدم في لغة العرب لمعاني شتى^(١) ، من ذلك قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا }^(٢) .

لقد تكرر حرف الجر (من) في هذه الآية ثلاث مرات وتكراره هذا تأكيد على أمر غاية في الأهمية ، وهو توثيق الصلة المصرح بها في آخر الآية . ففي كل مرة ذكرت (من) كانت لابتداء الغاية وذلك توحيد لأصل الناس وإن بعدت بهم المشقة في هذا الزمان . وقد أكده المفسرون (فقال ابن عباس ومجاهد^(*) والسدي^(*) وقتادة : إن الله تعالى خلق آدم وحشاً في

١ - قال ابن هشام : تأتي على خمسة عشر وجهاً : أحدها ابتداء الغاية ، والثاني التبعية ، والثالث بيان الجنس ، والرابع التعليل ، والخامس البذل ، والسادس مرادفة (عن) ، والسابع مرادفة (الباء) ، والثامن مرادفة (في) ، والتاسع موافقة (عند) ، والعاشر مرادفة (ربما) ، والحادي عشر مرادفة (على) ، والثاني عشر الفصل ، والثالث عشر الغاية ، والرابع عشر التنصيص على العموم ، والخامس عشر تأكيد العموم . انظر (مغني اللبيب) ، ج ١ ، ص ٣١٨ وما بعدها .

٢ - الآية (١) .

* هو الإمام مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي ، شيخ القراء والمفسرين ، مات ساجداً سنة ثنتين ومئة . انظر (تهنيت سير أعلام النبلاء) ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

* هو أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الحجازي السدي ، إمام المفسرين ، مات سنة سبع وعشرين ومائة للهجرة .

انظر (تهنيت سير أعلام النبلاء) ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

الجنة وحده ثم نام فانتزع الله أحد أضلاعه القُصِيرِي من شماله ، وقيل من يمينه فخلق منه حواء (١) .

وذا دليل كافٍ على أن (من) هنا لابتداء الغاية وإن قال بعضهم أنها تعني الجنس ، أي خلق من جنسها زوجها . قال ابن عطية : (واللفظ يتناول المعنيين ، أو يكون لحمها وجواهرها من ضلعه ، ونفسها من جنس نفسه) (٢) .

وكذا القول في قوله تعالى : { وبثّ منهما } ، وابتداء الغاية من أهم مقاصد هذا الحرف وإن وردت له مقاصد أخرى .
أما قوله تعالى :

{ وآتوا النساء صدقاتهنّ نحلةً فإن طبن لكم عن شيءٍ منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً } (٣) .

(من) هنا تفيد التبويض باتفاق كثير من المفسرين . وانفرد ابن عطية برأي خاص فقال : (تتضمن الجنس هاهنا ، ولذلك يجوز أن تهب المهر كله ، ولو وقفت (من) على التبويض لما جاز ذلك) (٤) .

والراجح أنها للتبويض . قال الزمخشري : (وقيل فإن طبن لكم عن شيءٍ منه ولم يقل فإن طبن لكم عنها بعثاً لهن على تقليل الموهوب) (٥) .

١ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٤ . وكذا (فتح القدير) للشوكاني ، ج ، ص ٤٢٢ .

٢ - انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ٤ .

٣ - الآية (٤) .

٤ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٩ .

٥ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

وكذا تفسير البيضاوي ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .

وكذا (الاتجاه البلاغي في تفسير البيضاوي) للدكتور محمد لطفي عبد التواب ، ج ١ ،

ص ٩١ .

وكذا (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ١٦٧ .

وكذا (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

وهذا لأن المرأة عاطفية فقد تضر بنفسها ، فنبهها سبحانه لكبح جماح عاطفتها (فبنى الشرط على طيب النفس فقيل : إن طبن ولم يقل فإن وهبن أو سمحن ، إعلماً بأن المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب طيبةً)^(١)

ثانياً : حرف الجر (في)^(٢) :

ومثاله في هذه السورة قوله تعالى :

{ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً }^(٣) .

تتحدث الآية الكريمة عن أموال المحجور عليهم^(٤) أي (اجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا وتتربحوا فيها حتى تكون نفقاتهم من الأرباح لا من صلب المال)^(٥) . فكانت (في) هنا عبارة عن ظرف

١- ممن ذكر أن (من) للتبويض الشوكاني في (فتح القدير) ، ص ٤٢٥ .

وكذا أبو السعود ، ج ١ ، ص ٤٨٣ .

وكذا السيوطي في (الدر المنثور) ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٤٣٢ .

وكذا البقاعي في (نظم الدرر) ، ج ٥ ، ص ١٩٣ . وقد ألمح إلى معنى جميل فقال : أن

الهاء في منه تعود على الصداق ، ولم يقل منها - أي الزوجة - لئلا يُظن أن الموهوب لا يجوز إن كان صداقاً كاملاً فقال (منه) .

١ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

٢ - وله عشر معانٍ من أهمها وأكثرها مداولة : الظرفية مكانية وزمانية وقد تمثلنا في قوله تعالى :

{ ألم ، غلبت الروم ، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين {

(الروم / ٤١) والثاني المصاحبة نحو قوله تعالى : { ادخلوا في أمم } (الأعراف / ٣٨) ، والثالث

التلليل نحو قوله تعالى : { فلنكنن الذي لمنتني فيه } (يوسف / ٣٢) .

انظر (مغني اللبيب) لابن هشام ، ص ١٦٨ .

٣ - الآية (٥) .

٤ - انظر (للتحرير والتتوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ .

٥ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٨٤ .

وكذا (روح المعاني) للأكوسي ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .

مجازي^(١) لاستمرارية رزقهم . ويتضح هذا المعنى أكثر بمقارنة الآية بقوله تعالى :

{ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا }^(٢) .

فالرزق في الثانية لا شك أنه من أصل المال الموروث ، وهو أمر عارض وبسيط مقارنة بما قبله ، ولا مجال لإنمائه لتقيده بوقت القسمة ولذا استخدم حرف يفيد التبعية أما في الآية موضع الدراسة فالأمر مختلف تماماً لحاجة اليتامى الطويلة لمالهم ، فمن الله عليهم بهذا الإرشاد الذي أفصح عنه حرف الجر (في) .
وقريب منه قوله تعالى :

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا }^(٣) .

حرف الجر (في) جاء يوضح معنيين مختلفين الأول في قوله تعالى : { ما في قلوبهم } ، فهي للظرفية المكانية ، وإن كان ذكر القلب واحتوائه على الأسرار بحد ذاته شيئاً مجازياً ، إذ هل يُراد بالقلب تلك العضلة الضاخة لدم الإنسان في عروقه أم شيء آخر ؟ الله أعلم به .
أما قوله تعالى : { قل لهم في أنفسهم } فهو تركيب عجيب . ترى ماذا يعني ؟ وهل (في) هنا للسببية فيكون المعنى : قل لهم بسبب أنفسهم المطوية على النفاق هذا رأي^(٤) . أي : قل لهم في أنفسهم خالياً بهم لأن النصيحة في السر أنجح وفيه أدخل^(٥) فتصبح (في) للظرفية المكانية ؟

١ - انظر (معني اللبيب) لابن هشام ، ص ١٦٨ .

٢ - الآية (٨) .

٣ - الآية (٦٣) .

٤ - انظر (الدر المصون) للسمين ، ج ٢ ، ص ٣٨٣ .

٥ - وهذا رأي الزمخشري وهو رأي صائب ، انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

والحق أنها تحتاملهما وتحتمل معنى أدق لاقتترانها بقوله تعالى :
 { قولاً بليغاً } أي يصل إلى الأعماق ويتغلغل داخل أنفسهم ليقتلع جذور
 انفاق فهي إذن للظرفية المجازية والله أعلم وأحكم .

وربما تأتي (في) دالة على السببية^(١) مثاله في سورة النساء قوله
 تعالى :

{ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ... }^(٢) .

أليست هذه الوصية التي خصوا بها بسبب الأولاد ، والمعنى صحيح
 لو قيل يوصيكم بهم أو بسببهم ولكن اختيار (في) هنا يشير إلى مغزى
 بلاغي يتلاءم مع الجو الأسري حيث أعطاه صورة الوعاء والوالدين
 والأبناء وسطه وهو يحويهم في قراره ، كما قال الرماني : (في) عملها
 الجر ومعناها الوعاء^(٣) .

ثالثاً : حرف الجر (على) :

معناه الأصلي " الاستعلاء " ، ولكنه يدل على معان أخرى كثيرة
 بجانب هذا المعنى الأصلي والبلاغيون يقولون إنه خرج من معناه إلى معنى

١ - هذا المعنى لم يذكره أحد صراحة فيما بين يدي من كتب ، مع وجوده في كثير من الأمثلة
 القرآنية انظر على سبيل المثال (معاني الحروف) للرماني ، ص ٩٦ .

وكذا (مغني اللبيب) لابن هشام الذي عدد لحرف الجر (في) عشرة معاني ولم يذكر
 السببية منها بل جعلها بمعنى (الباء) ونوه بها قائلاً : وليس منه قوله تعالى : { يذروكم فيه } خلافاً
 لزماعه بل هي للسببية أي يكثركم بسبب هذا الجعل . انظر (ج ١ ، ص ١٦٩ . والآية من سورة
 الشورى رقم (١١) . وقد تبعه السيوطي في (الهمع) وذكر الآية السابقة أيضاً ،
 انظر ج ٢ ، ص ٣٠ .

٢ - جزء من الآية (١٢) .

٣ - انظر (معاني الحروف) تحقيق الدكتور / عبد الفتاح شلبي ، ص ٩٦ .

كذا أو كذا^(١) والقضية محتملة كلا الوجهين ، وسنرى في الأمثلة التالية ما ينبئ عن ذلك ، والله ولي التوفيق .

قال تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا }^(٢) .

جاء حرف الجر (على) ليمثل معناه الأصلي بما فيه من التمكن والسيطرة والعظمة والتهديد والحرص معاني كثيرة مصاحبة للاستعلاء لكن المفسرين اتفقوا على أنها للاستعلاء^(٣) .

واختلفوا في قوله تعالى :

{ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا }^(٤) .

١ - انظر (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة ، ص ٥٧٣ - ٥٧٨ .

وكذا (معاني الحروف) للرماني ، ص ١٧ وما بعدها .

وكذا (همع الهوامع) للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

٢ - جزء من الآية (١) .

٣ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، قال : وفي أداة الاستعلاء ضرب من التهديد ، ج ٥ ، ص ١٧٦ .

أما كثيرون من المفسرين لم يقف عندها لأنهم يرون أنها على بابها وهو الاستعلاء ، انظر على سبيل المثال (الكشاف) ج ١ ، ص ٢٤٢ .

وكذا (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ١٥٩ .

وكذا (فتح القدير) للشوكاني ، ج ١ ، ص ٤١٩ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٧٧ .

وكذا (الدر المنثور) للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ .

وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

وكذا (التحرير والتنوير) لابن عاشور ، ج ٤ ، ص ٢١٨ .

٤ - الآية (٧) .

موضع الخلاف { إنما التوبة على الله } منهم من يرى أنها على بابها^(١) ومنهم من يرى أنها بمعنى (عند) أي : عند الله ، وقال الحسن : بمعنى (من) أي إنما التوبة من الله^(٢) .

والأولى أن تكون على بابها (لأن كلمة (على) للدلالة على التحقق البتة بحكم جري العادة وسبق الوعد حتى كأنه من الواجبات عليه سبحانه)^(٣) ففضل على عباده بقبولها رحمة منه ومن هنا فهو حرف استعلاء مجازي بمعنى التعهد والتحقق كقولك : (عليّ لك كذا) ولا شيء موجب على الله إلا وجوب وعده بفضله^(٤)

قال ابن عطية : (إخباره تعالى عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء سمعاً وليس وجوباً)^(٥) . ومنه قوله تعالى :

{ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَآغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا }^(٦) .

أي : وجب بمقتضى وعده وفضله^(٧) لا بحسب الاستحقاق عدلاً^(٨) فأعطى الحرف معنى الاستعلاء المجازي .

١ - الزمخشري وإن ظهر مذهبه الاعتزالي في قوله : إنما التوبة والغفران واجب على الله لهؤلاء ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٥٦ . وقد اتفق معه أبو حيان ولكنه أوضح اعتقاده في مسألة قائلاً : أن الله لا يجب عليه شيء من جهة العقل . انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ١٩٧ . وهذه المسألة الاعتقادية بيّنها ابن القيم في (بدائع الفوائد) ، ج ١ ، ص ٣١٧ .

٢ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ١٩٧ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٩٦ .

٤ - انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٤ ، ص ٢٧٨ .

٥ - انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

٦ - الآية (١٠٠) .

٧ - انظر (روح المعاني) ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

٨ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٣٧٧ .

رابعاً : حرف الجر (عن) :

والأصل في معناه المجاوزة ولكن قد يخرج عنها لمعان أخرى
تصاحب المجاوزة^(١) .

ومما جاء على أصله قوله تعالى :

{ فَإِنْ طِبَّنْ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا ... }^(٢) .

قال البيضاوي^(*) : (المعنى فإن وهبن لكم من الصداق عن طيب
نفس ، لكن جعل العمدة طيب النفس للمبالغة ، وعدها بـ(عن) لتضمن

١ - مثل الاستعانة التي هي للباء ، نحو قوله تعالى : { وما ينطق عن الهوى } (النجم / ٣) ، أي
بالهوى .

وكذا التعليل مثل قوله تعالى : { وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها
إياه } (التوبة / ١١٤) . أي : إلا لموعدة وعدها إياه .

وكذا تأتي بمعنى (على) أي تفيد الاستعلاء مثل قوله تعالى : { وإنما يبخل عن نفسه }
(محمد / ٣٨) ، أي على نفسه .

وكذا تأتي (عن) بمعنى البذل ، نحو قوله تعالى : { واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس
شيئاً } (البقرة / ٤٨) . أي : بدل نفس .

وكذا تأتي بمعنى (بعد) نحو قوله تعالى : { لتركين طبقاً عن طبق } (الانشقاق / ١٩)
أي بعد طبق .

ولكن البصريين أكدوا أنه للمجاوزة في كل الأحوال ولو كانت له معاني تلك الحروف لعدم
مطابقتها لها في جميع أحوالها .

انظر (مغني اللبيب) لابن هشام ، ج ١ ، ص ١٤٧ وما بعدها . وكذا (معاني الحروف)
للرمانى ، ص ٩٤ . وكذا (همع الهوامع) للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

والحق الظاهر بالأمثلة أن (عن) للمجاوزة أولاً ، ثم مصاحبة ذلك المعنى الذي يفيد
الحرف الآخر في بعض الأحيان ، وهذا ما بينته دراسة آيات سورة النساء المتضمنة هذا الحرف ،
مثل : (٤ ، ١٦ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٨١ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ،
١٢١ ، ١٥٣ ، ١٦٧ ، ١٧٢) .

٢ - جزء من الآية (٤) .

* هو الإمام القاضي أبو الفتح عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد بن البيضاوي الفارسي ، قاض
متحر في قضائه الخير ، توفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج ٣ ، ص ١٠ .

معنى التجافي والتجاوز^(١) أي تجاوزت هذه الهبة نفسها وتعدتها إلى نفسه^(٢) دون إكراه .

ومما جاء يحتمل فيه معنى آخر مع المجاوزة قوله تعالى :

{ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا }^(٣)

(عن) هنا في (عنكم) تفيد المجاوزة المعنوية (فإنه تعالى خفف عن هذه الأمة ما لم يخفف عن غيرها من الأمم الماضية)^(٤) . ويصح معنى الاستعلاء بجانب المجاوزة أي يخفف عليكم لأن أمور الشرع تستعلي الإنسان وتحكم قياده ، وهي ثقيلة الحمل ، فتجاوزت هذه الأحكام الثقيلة أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى غيرها من الأمم ليكون ديننا دين يسر تكريماً لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأمته .

ومما صحب المجاوزة فيه معنى آخر قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ

تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا }^(٥) .

حرف الجر (عن) أفاد السببية أو التعليل ، ولذا فالتجارة الناتجة عن تراضٍ استثنيت من الأكل بالباطل^(٦) . وقد تفي لام التعليل بالعرض ولكن اختيار (عن) يعمق هذا الرضا حيث يدل على امتلاء النفس به ، وتجاوزه إلى الطرف الثاني ، فيمتزج رضا الطرفين منتجاً تلك الصفقة التي تُكَلِّل برضا الله سبحانه وتوفيقه .

١ - انظر تفسير البيضاوي ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .

وكذا (الاتجاه البلاغي في تفسير البيضاوي) للدكتور / محمد لطفي عبد التواب ، ص ٩١ .

٢ - لأن : جرت الطريق وجاز الموضع سار فيه وسلكه .

انظر (اللسان) ، مادة (جوز) .

٣ - الآية (٢٨) .

٤ - انظر (روح المعاني) للألوسي ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ١٤ .

٥ - الآية (٢٩) .

٦ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٤١ .

وأما ما جاء بمعنى البذل ففي قوله تعالى :

{ وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا } (١) .

فالمجازة صحبت معنى البذل ، أي لا تجادل بدل الذين يختانون أنفسهم ، لكن (عن) صورت عمق الحماس الذي يدافع به عن المبدل عنه فيتعداه إليه .

وتأمل قوله تعالى :

{ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا } (٢) .

(عن) هنا يحمل معنى الظرفية أي بمعنى (في) ولكن (في) لا يفي بما يفي به (عن) الذي يصور محاولات العدول والهروب قبل الدخول لما في جهنم من أهوال ترى من مكان بعيد .

١ - الآية (١٠٧) .

٢ - الآية (١٢١) .

خامساً : حرف الجر (الباء) :

ومعناه الخاص هو الإلصاق الذي قصره عليه سيبويه^(*)(١) مع أن بعضهم عدد لها معاني كثيرة^(٢) ترددت في كثير من كتب الأولين نذكر منها ما وجد في سورة النساء المباركة ، مثل قوله تعالى :

{ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا }^(٣) .

ذكر حرف الجر (الباء) ثلاث مرّات في النص السابق الأولى منها في قوله تعالى : { بأموالكم } ودل هنا على معنى الاستعانة وهي إحدى معانيه الأصلية ، والمعنى : فاستعينوا بأموالكم التي رزقكم الله بها على أحد سبيلي الحلال (التزوج والشراء)^(٤) .

* هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، كان أعلم المتقدمين والمتأخرين في النحو ، صاحب (الكتاب) ، توفي سنة مائة وسبع وسبعين للهجرة .

انظر (وفيات الأعيان) ، ج ٣ ، ص ٤٦٣ .

١ - انظر (المساعد على تسهيل الفوائد) شرح ابن عقيل على كتاب التسهيل لابن مالك ، تحقيق وتعليق الدكتور محمد كامل بركات ، ج ٢ ، ص ٢٦١ . دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

وكذا (المغني) لابن هشام ، ج ١ ، ص ١٠١ .

٢ - أوصلها ابن هشام في (المغني) إلى أربع عشرة مسألة وهي : الإلصاق ، التعدية ، الاستعانة ، السببية ، المصاحبة ، الظرفية ، البديل ، المقابلة ، المجاوزة ، الاستعلاء ، التبويض ، القسم ، الغاية ، التوكيد ، ج ١ ، ص ١٠١ وما بعدها .

اتفق معه في بعضها الرماني في كتاب (معاني الحروف) ، ص ٣٦ وما بعدها .

واتفق معه في أكثرها ابن عقيل في (المساعد على تسهيل الفوائد) ، ج ١ ، ص ٢٦١ وما

بعدها .

٣ - الآية (٢٤) .

٤ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٣٦ .

وكذا (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٢١٦ .

أما الموضع الثاني في قوله تعالى : { فما استمتعتم به } فهو دال على السببية أي (فآتوهن أجورهن من أجله أي من أجل ما استمتعتم به)^(١) .

أما الموضع الثالث : { فيما تراضيتم به } فدل حرف الجر فيه على معنى الاستعلاء المجازي ، أي ما تراضيتم عليه . وكذلك يحتمل فيه معنى السببية أي فيما تراضيتم بسببه ، ولكن الأول أظهر وللمتأمل أن يلحظ معنى الإلصاق مصاحب تلك المعاني جميعها وهو ما أكده سيبويه رحمه الله .

ومما جاء فيه حرف الجر (الباء) بمعنى الاستعلاء قوله تعالى :
 { يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ
 وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا }^(٢) .

أي ما يروونه من أهوال ذلك اليوم يجعلهم يتمنون لو يعودوا أمواتاً كما كانوا وتسوى عليهم الأرض^(٣) وإن كانوا من قبل في عذاب القبر إلا أنهم يروونه نعيماً لما ينتظرهم .
 أما قوله تعالى :

{ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يَحْرَقُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّأَ بَأْسَنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا }^(٤) .

{ لِيَّأَ بَأْسَنَتِهِمْ } يحمل الحرف معنى الاستعانة حيث استخدموا هذه الجارحة التي وهبهم الله إياها في معصيته سبحانه أي : (فتلاً بها وصرفاً

١ - المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢١٨ .

٢ - الآية (٤٢) .

٣ - انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٢٣ .

وكذا (روح المعاني) ، ٢م ، ج ٥ ، ص ٣٤ .

٤ - الآية (٤٦) .

للكلام عن نهجه إلى نسبة السب (١) الذي قصدوه ؛ لأن قولهم : ({ اسمع غير مسمع { كلام ذو وجهين يحتمل الشر بأن يحمل على معنى اسمع حال كونك غير مسمع كلاماً أصلاً بصمم أو موت أي مدعواً عليك بلا سمعت أو غير مسمع كلاماً ترضاه) (٢)

وكذا في { راعنا } (جعلوها للسب بالرعونة أي الحمق أو بإجرائها مجرى ما يشبهها من كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها) (٣) .
والموضع الثاني في قوله تعالى : { لكن لعنهم الله بكفرهم } أي استحقوا لعنة الله بسبب كفرهم (٤) .

وقريب منه قوله تعالى :

{ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبِصَدِّهِمْ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا } (٥) .

(الباء) في الموضعين للتعليل الذي ترتب على الظلم والصد أن حرمت عليهم الطيبات (٦) وقد قدم السبب على المسبب تنبيهاً على فحش الظلم وتقبيحاً له وتحذيراً منه (٧) .

كما تخرج (الباء) إلى معنى (مع) وخير ما يمثله قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا
لَّكُمْ ... } (٨) .

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

وكذا (روح المعاني) للألوسي ، ٢م ، ج ٥ ، ص ٤٧ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

٤ - المرجع السابق .

وكذا (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ .

٥ - الآية (١٦٠) .

٦ - انظر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٥٨٥ .

٧ - انظر تفسير (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ .

٨ - الآية (١٧٠) .

أي جاءكم ومعه الحق من ربكم متلبساً به في كل ما يقول ويفعل .

وقد يأتي هذا الحرف زائداً وله مواضع في زيادته يقررها النحاة^(١)

ومما جاء منه في هذه السورة قوله تعالى :

{ فْتَيْمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً

غفوراً }^(٢) .

زيدت (الباء) هنا في المفعول به^(٣) أي امسحوا وجوهكم وأيديكم ،

والغرض البلاغي منها هو إفادة معنى التأكيد حتى يكون المسح حقيقياً على

أو في صورته . والحاجة ماسة في هذا العمل إلى الإلصاق الذي هو المعنى

الأصلي للحرف .

وكذا وردت زيادتها في فاعل (كفى) كثيراً ، منها قوله تعالى :

{ والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً }^(٤) .

قال فيها أبو السعود : (و) الباء (مزيدة في فاعل (كفى) لتأكيد

الاتصال الإسنادي بالاتصال الإضافي)^(٥) فقد تقوى وتأكد اتصال الفعل

بالمسند إليه (الله) بهذا الاتصال الزائد بـ (الباء) لتقوية الحكم بهذه

١ - يقول ابن هشام في (المغني) عند تعداده معاني (الباء) : (الرابع عشر التوكيد وهي زائدة ،

وزيادتها في ستة مواضع) ثم أخذ يعدد ويمثل لذلك نلخص من كلامه ما يلي : أنها تراد في الفاعل

والمفعول والمبتدأ والخبر والحال والتوكيد بالنفس والعين والزيادة الإيضاح . انظر (مغني اللبيب)

، ج ١ ، ص ١٠٦ وما بعدها .

وكذا كتاب (معاني الحروف) للرماني ، ص ٣٦ وما بعدها .

٢ - جزء من الآية (٤٣) .

٣ - قال السمين الحلبي : وهذه (الباء) تحتمل أن تكون زائدة ، وبه قال أبو البقاء ويحتمل أن

تكون متعدية . لأن سيبويه حكى : (مسحت رأسه وبرأسه) ، ج ٢ ، ص ٣٧٠ .

٤ - الآية (٤٥) .

٥ - تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٢٧ .

وكذا (روح المعاني) للأكوسي ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٤٥ . وزاد بقوله : (الباء) إلصاقية .

(الباء) الزائدة لغرض توكيد الكفاية^(١) ، وهي الاتصال الإسنادي الأصلي في التركيب .

المغزى البلاغي من هذا التركيب هو زيادة التشويق إلى معرفة تفصيل ما أجمل في نسبة الفعل إلى فاعله ، لأن الفعل يطلب فاعلاً ولا بد أن يصل إليه فتأتي (الباء) بما فيها من معنى الإلصاق تؤكد اتصال الأول بالثاني^(٢) .

ومثله قوله تعالى :

{ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا }^(٣) .

فقوله : { وكفى بالله وكيلاً } ، يقول الزجاج^(*) في معرض حديثه عن قوله تعالى : { وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً }^(٤) وهو موضع مشابه تماماً قال : دخلت (الباء) فالكلام بمعنى الأمر ، وإن كان لفظه لفظ الخبر^(٥) .

١ - انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٤ ، ص ٧٣ .

٢ - انظر (البرهان) للزركشي ، ج ٤ ، ص ٢٥٢ . تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، جامعة أم القرى ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١هـ - ١٩٧٣م .

٣ - الآية (٨١) .

* هو الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي ، نحوي زمانه ، وله تأليف جمة ، منها (معاني القرآن) ، توفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة .

انظر (تهنيت سير أعلام النبلاء) ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

٤ - الآية (٣) من سورة الأحزاب .

٥ - انظر (معاني القرآن وإعرابه) للزجاج ، ج ٤ ، ص ٢١٣ ، تحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

سادساً : حرف الجر (إلى) :

ومعناه انتهاء الغاية مطلقاً زماناً أو مكاناً ولكنه يخرج كغيره إلى معان أخرى فينوب عن بعض حروف الجر الأخرى بقريضة المضمون^(١) ويبقى دائماً معنى الانتهاء ملازماً له وإلا لاستغني عن استعماله بذلك الحرف المبدل عنه .

وبتتبعي لمواطنه في سورة النساء اخترت هذه الطائفة من الأمثلة لتدل على غيرها ، قال المولى عز وجل :

{ وَاَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا }^(٢) .

في قوله تعالى : { إلى أموالكم } وجوه :

أحدها : أن (إلى) بمعنى (مع) كقوله تعالى : { إلى المرافق } وقوله تعالى : { من أنصاري إلى الله } والعرب تقول : (الذود إلى الذود إيل)^(٣) .

١ - انظر (المساعد على تسهيل الفوائد) لابن عقيل ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ وما بعدها .

وقال ابن هشام في (المغني) : (إلى) حرف جر له ثمانية معان : انتهاء الغاية ، والمعية ، التبيين ، مرادفة اللام ، موافقة (في) ، الابتداء ، موافقة (عند) ، والثامن التوكيد . انظر ، ج ١ ، ص ٧٤ وما بعدها . وكذا (معاني الحروف) للرماني ، ص ١١٥ وما بعدها . وكذا (الهمع) للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

٢ - الآية (٢) .

٣ - والذود في (اللسان) و (مجمع الأمثال) يضرب في اجتماع القليل إلى القليل حتى يؤدي إلى الكثرة ، والذود : القطيع من الإبل من الثلاث إلى التسع .

انظر (مجمع الأمثال) لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد إبراهيم النيسابوري الميداني ، المثل (١٤٥٦) ، ص ٢٧٧ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، الطبعة بدون .

الثاني : أنها على بابها وهي ومجروها متعلقة بمحذوف على أنها حال ، أي مضمومة أو مضافة إلى أموالكم^(١) .

والثالث : (أن يضمن (تأكلوا) معنى (تضموا) فإنه قيل : ولا تضموها إلى أموالكم آكلين)^(٢) .

والأظهر والأوفق لمضمون الآية أنها لانتهاه الغاية حيث ربطت معنى الأكل بالأموال وجعلت أموال اليتامى في مقدمته ليصل الأكل بعد انتهائها إلى أموال الأوصياء وكأنه طوقان مَحَقَّ أموال اليتامى ووصل إلى ما بعدها وهذا يمثل أبشع صور الشره والطمع والظلم وأشنعها وكل معنى تنفر منه النفس المؤمنة السوية .

ومنه قوله تعالى :

{ ألم ترَ إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يشترُونَ الضلالةَ ويريدون أن تضلُّوا السبيلَ }^(٣) .

معنى الآية التنبية والتعجب من حال هؤلاء اليهود^(٤) و (رأى) هنا عامية وضمنت معنى ما يتعدى بـ (إلى) فلذلك لم يتعدَّ الحرف إلى مفعولين وكأنه قيل : ألم ينته علمك إلى كذا ؟

قال أبو حيان : (رأيت) يتعدى بنفسه دون الجار ، لكن لما استعير قولهم : ألم تر لمعنى ألم تنظر عدى تعديته ، وقلمًا يستعمل ذلك في غير التقرير^(٥) .

١ - انظر (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة ، ص ٥٧١ .

والآيات الواردة على التوالي : جزء من الآية (٦١) سورة المائدة ، جزء من الآية (٥٢) سورة آل عمران .

٢ - انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ .

٣ - الآية (٤٤) .

٤ - انظر تفسير الطبري ، م ٤ ، ج ٥ ، ص ٧٤ .

٥ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ . في معرض تفسير لقوله تعالى : { ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف } ، الآية (٢٤٣) ، سورة البقرة .

فضمن العامل معنى يناسب التعدي بـ (إلى) .

وقد تكرر هذا الأسلوب في سورة النساء في خمسة مواضع^(١) واستعمال (إلى) هنا يتناسب معنواً مع عمق الرؤية التعجبية حتى تصل بالخطاب إلى أقصى الغايات وهو من باب التشهير بهؤلاء المتعجب من حالهم ؛ فجعلوا عبرة لكل متعظ وذلك لأنه إذا عدّي رأيت بـ (إلى) اقتضى معنى النظر المؤدي إلى الاعتبار^(٢) فأخذ (إلى) معنى الغاية المعنوية المتضمنة الزمان أو المكان .

وانظر حفظك الله إلى أهمية (إلى) في الآية الكريمة التالية وما فيها من أحكام شديدة الخطر على الإسلام والمسلمين . قال تعالى :

{ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَفْتُمُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا }^(٣) .

حرف الجر (إلى) تكرر مرتين الأولى في قوله تعالى : { يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق } فـ (إلى) عدّي بها الفعل (يصل) إلى مفعوله وقد أفادت غاية البلوغ إلى الأمن والأمان لهؤلاء القوم المستثنين^(٤) ممن قال فيهم الحق تبارك وتعالى :

١ - وهي قوله تعالى : { ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ... } ، الآية (٤٩) .
وقوله تعالى : { ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب ... } ، الآية (٥١) .
وقوله تعالى : { ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ... } ، الآية (٥٩) .
وقوله تعالى : { ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ... } ، الآية (٧٧) .
وجميعها تدل على الوصول إلى أقصى حالات الاعتبار بحال المتعجب منهم .

٢ - انظر مفردات الراغب الأصفهاني ، مادة (رأى) .

٣ - الآية (٩٠) .

٤ - انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٣١٥ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٦٣ .

{ فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم }^(١) .

وسبب استثنائهم هو وصولهم إلى القوم المعاهدين فلهم من الأمان مثل ما لأولئك^(٢) والمعنى إن كل من دخل في عهد من كان داخلاً في عهدكم فهم أيضاً داخلون في عهدكم^(٣) والوصول هنا مجازي لأنه لا يرتبط بغاية زمانية أو مكانية .

أما الموضع الآخر ففي قوله تعالى : { وألقوا إليكم السلم } أي : صالحوكم لأن السلم هو الاستسلام^(٤) (إلى) هنا صورت هذا الاستسلام في أبعد صورة لأنها أوصلته إلى أبعد غاياته بما تحمل من معنى الانتهاء أي أن المعنى (فتركهم وشأنهم هو السبيل ... وهكذا يلمس المنهج التربوي الحكيم نفوس المسلمين ويعلمهم أن يأخذوا الخير الذي يعرض فلا يرفضوه ، ويجتنبوا الشر الذي يأخذ طريقه بعيداً عنهم فلا يتناوشوه كما أنه ليس في هذا كله تفريط في شيء من دينهم . ولا تميع لشيء من عقيدتهم ، ولا رضا بالدنيّة في طلب السلم الرخيصة)^(٥) .

سابعاً : حرف الجر (اللام) :

وقد أوصلوا معانيه إلى اثنين وعشرين معنى^(٦) منها ما هو خاص به وهو الاختصاص ، ومنها ما يقوم به بدل حرف آخر ولكن يبقى كما أسلفنا معناه الأصلي فارضاً نفسه على السياق مخالطاً كل معنى خرج إليه .

١ - جزء من الآية (٨٩) .

٢ - انظر (جامع البيان) للطبري ، م ٤ ، ج ٥ ، ص ١٢٤ .

٣ - انظر (التفسير الكبير) للإمام فخر الدين الرازي ، ج ١٠ ، ص ٢٢٢ .

٤ - انظر (جامع البيان) ، ج ٥ ، ص ١٢٥ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

٥ - انظر في (ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج ٢ ، ص ٤٨٣ .

٦ - أولها الاختصاص وهو المعنى الأصلي ، ثم الملك ، والتملك ، والتعليل ، وتوكيد النفي ، وموافقة (على) و (عن) ، والصيرورة ، والقسم ، والتعجب ، والتعجب المجرد من القسم ، والتعدية ، والتوكيد ، والتبيين . =

ومن أمثلته في سورة النساء قوله تعالى:

{ لرجالٍ نسيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نسيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون مما قلَّ منه أو كثرَ نسيباً مفروضاً }^(١).

(اللام) هنا للاستحقاق وهو نظير الاختصاص وفرع عنه^(٢) ، وأعيدت هذه (اللام) في قوله : { للنساء } (لإيراد حكمهن على الاستقلال دون الدرج في تضاعيف أحكامهم بأن يُقال : للرجال والنساء ، للاعتناء بأمرهن والإيدان بأصالتهن في استحقاق الإرث والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبي الفريقين والمبالغة في إبطال حكم الجاهلية)^(٣) وقد كانت هذه الآية أول إعطاء لحق الإرث للنساء في العرب^(٤) .

ونظير هذه الآية كثير جداً في هذه السورة ، منه قوله تعالى :

{ يوصيكمُ اللهُ في أولادِكُمْ للذكرِ مثلُ حظِّ الأنثيينِ }^(٥) .

وكذا قوله تعالى :

{ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً }^(٦) .

فـ (اللام) في { للذكر } وكذا { للذين } تؤدي معنى الاستحقاق مع

اختلاف الأحكام فيها .

= انظر (مغني اللبيب) لابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٠٨ وما بعدها .

وكذا (المساعد) لابن عقيل ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ وما بعدها .

وكذا (معاني الحروف) للرماني ، ص ٥١ وما بعدها .

١ - الآية (٧) .

٢ - انظر (مغني اللبيب) ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٨٦ .

٤ - انظر تفسير (التحرير والتنوير) لابن عاشور ، ج ٤ ، ص ٢٤٩ .

٥ - جزء من الآية (١١) .

٦ - الآية (١٧) .

وكذلك تأتي (اللام) للتبليغ ، ومنه في سورة النساء قوله تعالى :

{ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا }^(١) .

فقوله تعالى : { قولوا لهم } أي ألزمهم بالتبليغ بما تطيب به

نفوسهم .

ومنه قوله تعالى :

{ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا }^(٢) .

وقوله تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ... }^(٣) .

في جميعها دلت (اللام) على معنى التبليغ الذي ألزموا به وحوسبوا عليه . ووجه اختيار هذا الحرف دلالاته على عدة معاني منها الاختصاص والتنبية والتعجب ومعاني كثيرة أخرى .

وتأتي اللام بمعنى (مع) مع احتمال معناها الأصلي وذلك مثل قوله

تعالى :

{ وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا }^(٤) .

(اللام) في { له } أعطت معنى (معه) وصورت المنافق بصورة

الشيطان للملازمة .

٢ - الآية (٨) .

٢ - الآية (٦٣) .

٣ - الآية (٧٧) .

٤ - الآية (٣٨) .

فإن هذه الصفات التي عددها الله تبارك وتعالى لهذه الفئة (من نتائج مقارنة الشيطان ومخالطته وملازمته للمتصف بذلك ، لأنها شر محض ، إذ جمعت بين سوء الاعتقاد الصادر عنه النفاق رثاءً وسائر الأوصاف المذمومة)^(١) .

ومنه قوله تعالى :

{ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً }^(٢) .

— (اللام) دلت على معنى (مع) أي لن تجد معه (نصيراً ينصره من عقوبة الله فيدفع ذلك عنه)^(٣) . ومثله قوله تعالى :

{ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً }^(٤) .

فقوله تعالى : { استغفر لهم الرسول } تدل (اللام) فيه على معنى (مع) ، أي : استغفر معهم (وشفع لهم في غفران ذنوبهم)^(٥) فاستغفار من خصه الله برسالته وأكرمه بوحيه وجعله سفيراً بينه وبين خلقه^(٦) يقوي توبتهم ويرفأ ما بها من ضعف فبانضمام استغفاره إلى استغفارهم صارت توبتهم مستحقة القبول والله أعلم^(٧) .

١ — انظر (البحر المحيط) ج ٣ ، ص ٢٤٨ .

٢ — الآية (٥٢) .

٣ — انظر (جامع البيان) ، م ٤ ، ج ٤ ، ص ٨٦ .

٤ — الآية (٦٤) .

٥ — انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ .

٦ — انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج ١٠ ، ص ١٦٢ .

٧ — المرجع السابق بتصرف .

وفي الآية التفات رائع بالعدول عن لفظ الخطاب في قوله تعالى : { جاءوك } إلى الغائب في قوله تعالى : { واستغفر لهم الرسول } وسره البلاغي التخييم من شأن هذا الاستغفار لأنه صادر عمّن شرف بالرسالة وحمل الأمانة وبلغ الأمة .

انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ = .

ثامناً : حرف الجر (الكاف) :

وقد جعلوا له خمسة معانٍ^(١) أهمها التشبيه ، ووروده في سورة

النساء في ثمانية مواضع أختار منها هنا قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ
قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ
السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا }^(٢) .

خدم حرف الجر (الكاف) السياق أيما خدمة لأنه عمق معنى اللعنة
المتوعد بها بربطها بأبشع لعنة في تاريخ اليهود وهي مسخ بعض أجدادهم
إلى قردة و خنازير وهم يوقنون بذلك حق اليقين ، و لذا نرى من هداه الله
منهم إلى الإسلام أسرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معلناً إسلامه
مخافة أن يمسح قبل ذلك^(٣) ؛ وكان هذا الحرف وما جسده من صورة نزل
كصاعقة عنيفة الأثر هزت قلوب الصالحين من أهل الكتاب و أرشدتهم إلى
الصراط المستقيم .

ومنه قوله تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ

= وكذا (التفسير الكبير) ، ج ١٠ ، ص ١٦٢ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٤٤ .

١ - قال ابن هشام في (المغني) : له خمسة معانٍ ، أحدها : التشبيه ، والثاني : التعليل ، والثالث

: الاستعلاء أي بمعنى (على) ، والرابع : المبادرة - وهو غريب جداً - ، والخامس : التوكيد ،

وهي الزائدة لزيادة التأكيد على المعنى . راجع ج ١ ، ص ١٧٦ وما بعدها .

و الأرجح من معانيها التشبيه كما ذكر السكاكي في (المفتاح) ، ص ٥٧ .

وعليه ستكون دراسته في هذه السورة المباركة بعون الله وتوفيقه .

٢ - الآية (٤٧) .

٣ - انظر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٥٠٩ .

خشيةً وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً { (١) .

حرف الجر في قوله تعالى : { كخشية الله } (٢) صور هذا التشبيه المسوق مساق المبالغة في التوبيخ خشية هذه الفئة التي رغبت في تأخير العمل بأمر الجهاد لخوفهم من بأس المشركين (٣) ، أقول : صور خشيتهم للناس بخشيتهم له سبحانه مع إيمانهم وعلمهم بقدرته سبحانه على نصرهم .
ومنه قوله تعالى :

{ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً } (٤) .

لقد أضفى حرف التشبيه صورة حية على المشهد صور هذه الزوجة بالمعلق الذي لا يملك لنفسه قراراً ثابتاً يضع قدميه عليه ولا يستطيع الخلاص منه فلا هي زوجة ولا هي مطلقة وقرن هذا المشهد المروع (بالهتاف المؤثر العميق في النفوس المؤمنة للتجاوز عما ليس في طاقة الإنسان { وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً }) (٥) .

١ - الآية (٧٧) .

٢ - هذا من قبيل إضافة المصدر إلى مفعوله . انظر (التبيان في إعراب القرآن) لأبي البقاء العكبري ، ج ١ ، ص ٣٧٤ .

وكذا (الكشاف) للزمخشري ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .

وكذا (التفسير الكبير) للرازي ، ج ١٠ ، ص ١٨٥ .

وتفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٥١ .

وكذا للألوسي ، ج ٢ ، ص ٨٥ .

٣ - انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ١٢٥ .

٤ - الآية (١٢٩) .

٥ - انظر في (ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج ٢ ، ص ٥٤٢ .

الفصلُ الثاني

نظمُ الجملة

المبحث الأول : الجملة الخبرية .

المبحث الثاني : الجملة الإنشائية .

المبحث الأول

الجملة الخبرية

المطلب الأول: التقديم والتأخير.

المطلب الثاني: الحذف والذكر.

المبحث الأول : الجملة الخبرية

المطلب الأول : من حيث التقديم والتأخير .

لا يسعني في هذا الموضوع بعد الاطلاع على روائعه إلا أن أقول كما قال شيخ البلاغة وإمامها : (هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفترُّ لك عن بديعة ، ويقضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك ، أن قدم فيه شيء ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان)^(١) .

أحس عبد القاهر كما أحس الجميع أن للتقديم والتأخير مزية فريدة ، ترفع درجات الكلام إلى منابر البلاغة ومنصات الإعجاز ، وخاصة عندما يكون هذا الكلام بعيداً عن عبث العابثين ، والغرض منه زيادة الإيمان واليقين ، ومن أحسن من الله قليلاً؟! ويدرر هذا القسم :

أولاً : التقديم والتأخير بين جزأي الجملة :

والتقديم بين جزأي الجملة يشمل تقديم المبتدأ على الخبر^(٢) سواء كان الخبر فعلاً أو في قوة الفعل ، كما يشمل تقديم الخبر على المبتدأ سواء كان مفرداً أو شبه جملة .

١ - انظر (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني ، ص ١٠٦ .

٢ - قد يبدو إطلاق التقديم على هذا غريباً للبعض ، وذلك لأن المبتدأ مكانه الأصلي التقديم ، ولكن البلاغة تبحث أسرار وقوع الكلمات في مواقعها ما جاء منها على الأصل وما جاء على خلافه ؛ لأنها يمكن أن تقول : لم جاء هذا الأسلوب على الأصل ، وكان يمكن فيه المخالفة ؟ وفي الإجابة على هذا السؤال تتنظم أسرار اللغة . لزيادة الإيضاح انظر (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) للدكتور محمد أبي موسى ، ص ٣٢٥ وما بعدها .

أ - تقديم المسند إليه على المسند :

لاحظ البلاغيون^(١) أن تقديم المبتدأ على الخبر يكون لعدة أغراض بلاغية ، وذلك تبعاً لأحوال المبتدأ وأنواع الخبر .
ومن أهم تلك الأغراض : التشويق ، والاختصاص ، وتقوية الحكم ، والتعميم ، وقد تتفرع عنها أغراض أخرى خاصة بكل موقف .

١ - التشويق :

هو تلهف المتلقي لسماع الخبر حيث يدفعه المبتدأ إلى ذلك دفعاً بما يثير في نفسه من فضول وشوق للوصول إليه . ومما جاء موضحاً هذا الدافع في سورة النساء قوله تعالى :

{ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً }^(٢) .

إن تقديم المسند إليه (الذين) المؤكد بأداة التأكيد (إن) مع جملة الصلة المشيرة إلى وضع (قد سبق للسامع علم به)^(٣) ، وما تحمله الجملة من خصائص لفظية دقيقة في (يأكلون) وكذا (ظلماً) . كل هذه المقدمات أجبت في نفس المتلقي لهفة ملحة لمعرفة الخبر (المسند) لأنه يحمل حكماً إلهياً في حق هذه الفئة ، فجاء الخبر صورة من أدق الصور لإبراز هذا الأكل بأبشع ما يكون عليه الظلم ، وأبلغ ما يأتي به التنفير ، فصادف في نفس السامع الشوق ولا بد أنه سيثمر سلوكاً سويماً .

ثم لا يخفى ما تحمله الآية من جملة مؤكدات أولها حرف التوكيد (إن) واسمية الجملة وتكرار الفاعل بإعادته في الضمير المتصل^(٤) في (يأكلون) ، وإعادة هذه المؤكدات نفسها في جملة الخبر ، وكذا الإطناب

١ - انظر (المفتاح) ، ص ١١٣ .

٢ - الآية (١٠) .

٣ - انظر (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني ، ص ٢٠٠ .

٤ - وذلك لأن الفاعل الحقيقي هو لفظة (الذين) وإن سبقت الفعل وأعربت اسماً لأن .

في { يأكلون في بطونهم } ، وكذا الجزم بسوء المصير بأسلوب التوعد ونبرة الاستعلاء في قوله { وسيصلون سعيراً } . كل هذه المزايا أو معظمها تختفي لو جاء أسلوب النهي مباشراً بتقديم الفعل المنهي عنه مثل : لا تأكلوا أموال اليتامى أو نحو ذلك . فكان للتقديم مزية التشويق والتأكيد معاً .
ومثله قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } (١) .

فالمسند إليه المقدم المؤكد بأنَّ هو (الذين) وخبره اسم الإشارة (فأولئك) (٢) وكل ما بين الاسم والخبر من جملة الصلة (توفاهم) والجملة الحالية (ظالمي أنفسهم) والحكاية عنهم في الحوار الدائر بينهم وبين الملائكة ، كل ذلك زاد التشويق إلى معرفة الحكم الذي يحمله الخبر في حقهم ، فجاء الخبر ليروي صدى المتعشش لمعرفته وتكون الحكاية كلها موعظة وعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد .
ومن ذلك قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا } (٣) .

الآية الكريمة تصور حال فئة ضالة ، (الإيمان عندهم أدون شيء وأهونه) (٤) ، فلا تملك النفس إلا أن تضيق ذرعاً بهم وتتسوق إلى جزاء

١ - الآية (٩٧) .

٢ - انظر (التبيان في إعراب القرآن) للعكبري ، ج ١ ، ص ٣٨٤ .

وكذا (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ١٦٧ . قال الألويسي : اسم الإشارة مبتدأ أول و (ومأواهم) مبتدأ ثانٍ و (جهنم) خبر الثاني وهما خبر الأول ، والرابط الضمير المجرور في (مأواهم) والمجموع خبر (إن) والفاء لتضمن اسمها معنى الشرط أي اسم (إن) .

٣ - الآية (١٣٧) .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٩٥ .

رادع لهم ، فيطالعنا الخبر في قوله تعالى { لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً } وأنى لهم الهداية والمغفرة ، والإيمان الخالص الثابت الذي يقتضيها غير موجود في صدورهم (١).

فكان تقديم المسند إليه المؤكد بالحرف الناسخ وجملة صلته وما عطف على الصلة عاملاً مهماً في بث الشوق إلى الخبر الذي لم يرد إلا بعد طول نفس . ومنه كثير جداً في هذه السورة المباركة (٢).

٢- التخصيص :

وهو من المعاني البلاغية الرائعة التي يفيدها التقديم بشكل عام وفي تقديم المسند إليه بشكل خاص ، وقد أوضح له البلاغيون مطلبين يجب توافرها في الجملة الخبرية :

الأول : أن يسبق المسند إليه بنفي .

والثاني : أن يكون الخبر فعلاً (٣) أو ما هو في قوة الفعل (٤) .

فإذا توافر هذان المطلبان في الجملة الخبرية كان التقديم للتخصيص لا محالة . مثال الخبر الفعلي قولك : " ما أنا قصرت في واجبي ، وما أنت سعيت في السوء " ، ومثال الخبر الشبيه بالفعل قولك : " ما أنت مقصر في

١ - انظر تفسير (روح المعاني) ، ٢م ، ج ٥ ، ص ١٧١ .

٢ - الآية (١٦) والآيتان (١٥٠ - ١٥١) وكذا الآية (١٥٢) وكذا (١٦٧) وكذا (١٦٨) .

٣ - هذا مذهب الشيخ عبد القاهر في (دلائل الإعجاز) ، ص ١٢٤ .

٤ - هذا مذهب الزمخشري اعتماداً على تفسيره لآيات القرآن الكريم وتأمله هذا المعنى فيها . انظر تفسيره ، ج ٢ ، ص ٢٣١ وما بعدها .

وقد مثل بها السكاكي في (المفتاح) على إرادة التأكيد . انظر ص ١١١ .

وكذا انظر (الإيضاح) للخطيب القزويني ، ص ٢٣ .

وتبع الزمخشري في هذا الرأي كثير من العلماء . انظر (البلاغة فنونها وأفنانها) ، ص

واجبك " وقوله تعالى : { وما أنت علينا بعزير }^(١) حكاية على لسان قوم شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم .

والتخصيص في هذا الأسلوب يعني : نفي الخبر عن المسند إليه وإثباته لغيره^(٢) ، فكأن المتكلم يرمي بهذا هدفين ، أولهما : أن ينفي الخبر عن المسند إليه . وثانيهما : أن يثبت لغيره عن طريق التتويه لا التصريح ، وهذا ما فهمه نبي الله شعيب من قول قومه { وما أنت علينا بعزير } لذا رد عليهم بقوله { يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله }^(٣) مدلاً على أن ما جاء به هو من عند الله لا مرأى فيه .

ومما جاء في التخصيص من سورة النساء قوله تعالى :

{ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً }^(٤) .

الآية الكريمة بدأت بأداة النفي لتوضح أنه (لا يكون تائباً من لم يتب إلا مع حضور الموت)^(٥) فهذه لا تسمى توبة^(٦) عند الله سبحانه وإن جدوا في طلبها ، وكذلك من مات على حال كفره وإن تفانى أهله في الاستغفار له . وقد ذيلت الآية ببرهان ناصع في نفي هذه التوبة ، قال تعالى : { أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً } .

١ - جزء من الآية (٩١) ، سورة هود .

٢ - انظر (الإيضاح) ، ص ٣٣ وما بعدها .

وكذا (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٣٩٦ .

٣ - جزء من الآية (٩٢) ، سورة هود .

٤ - الآية (١٨) .

٥ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٢٣٩ .

٦ - روى ابن كثير عن أبي عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يقبل توبة عبده أو يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب " قيل وما وقوع الحجاب ؟ قال : " تخرج النفس وهي مشرقة " . ولهذا قال الله تعالى : { أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً } . أي موجعاً شديداً مقيماً ، ج ١ ، ص ٤٦٥ .

إذن خصت توبة هذا الصنف بعدم القبول دون سائر أنواعها وهذا هو معنى التخصيص في الحكم .

٣- تقوية الحكم :

عندما يختل شرط من الشرطين المحققين للتخصيص يكون الغرض البلاغي من تقديم المسند إليه غالباً تقوية حكم الإسناد . إلا أن يوجد بالجملة ما يفيد التخصيص بغير تلك الشروط^(١) فيكون الهدف مزدوجاً بين الاثنين . ولنا أن نسأل ماذا نعني بتقوية الحكم وما هي صورته ؟

الذي نعنيه بذلك هو قوة العلاقة في الإسناد بين المسند والمسند إليه ، أي إثبات الحدث الذي يحمله المسند إلى المسند إليه بشكل لا يخالطه الريب أو التقليل ؛ ليزيل ما بنفس المتلقي من الشك والتردد . أما الصور التي تقيد ذلك فهي :

١- أن يتقدم المسند إليه على النفي . ومثال ذلك في سورة النساء قوله تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا } (٢) .

وذلك أقوى وأبلغ من أن يقال : لا يظلم الله مثقال ذرة ؛ لضياح التأكيد بأن والتأكيد باسمية الجملة والتأكيد في التخصيص ، فقد تضافر السياق على الدلالة بأن الله وحده هو الذي لا يقع منه جنس الظلم ولا أقل القليل منه سبحانه جل شأنه . ومثله قوله تعالى :

١ - أحياناً يتأخر النفي عن المسند إليه ، أو لا يوجد نفي البتة ، ومع هذا تعطي الجملة معنى التخصيص ويكون مرد ذلك السياق العام أو وجود ملابسات خاصة بالموقف . لكن التخصيص بهذه الصورة يفيد إثبات الحكم للمسند إليه وتفرد به دون غيره وذلك عندما تخلو الجملة من النفي وسيأتي بعد قليل بإذن الله وتوفيقه .

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } (١) .

في هذه الصورة من النظم تقدم المسند إليه (الله) على حرف النفي (لا) فاكنتسب الأسلوب بهذا قدراً كبيراً من القوة والتأكيد والتنبيه على جدية الموقف وعدم المهادنة فيه . وكيف لا وهو عماد العقيدة . ولو جربنا تغييره بأي صورة أخرى مثل : لا يغفر الله أن يشرك به ، لفات المعنى شيء كثير مما ذكر .

كما أننا نلمح هنا معنى التخصيص بجانب تقوية الحكم ، وذلك لتفرده سبحانه بهذا العمل حسب عدله ومشينته .
ومنه قوله تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا } .

هذا المقطع تذييل لآية حملت أهم أمر نزل به القرآن ، وكذا عدة أمور لا يكون صلاح المؤمن إلا بها :

{ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا } (٢) .

أمور شتى ، كلها تصور معنى الخضوع والإحسان ولين الجانب ، فلا مرأى في أن تذيلاً بهذه الجملة التي يتقدم فيها المسند إليه (الله) على حرف النفي ليجلب معه جملة مؤكدات لتقوية حكم الإسناد .
ومثله قوله تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَاتًا أَثِيمًا } .

وذلك في معرض النهي عن المجادلة عن الخائنين بقوله تعالى :

١ - الآية (١١٦) .

٢ - الآية (٣٦) .

{ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان
خواناً أثيماً } (١) .

قال ابن عطية : (الخوان هو الذي تكرر منه الخيانة ، والأثيم : هو
الذي يقصدها) (٢) . فكيف لا يتأكد حكم الإسناد في عدم محبة الله سبحانه
وتعالى لهما ؟ وأظن أن هذين الموضعين السابقين لتقوية حكم الإسناد لا
غير ؛ لأن مثل هذا الأمر لا يخص المولى وحده بل يدخل فيه كل صالح
من عباده . والله أعلم وأحكم .

٢- من صور تقوية الحكم كون الخبر مثبتاً مع تقديم المسند إليه ومجيء
المسند فعلاً أو في قوة الفعل .

وسر تأكيد الحدث وتقوية الحكم يعود إلى حالة نفسية وذهنية شرحها
الإمام عبد القاهر قائلًا : (فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من
العوامل إلا بحديث قد نوي إسناده إليه . وإذا كان كذلك ، فإذا قلت : " عبد
الله " ، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فإذا جئت
بالحديث فقلت مثلاً : " قام " أو قلت : " خرج " أو قلت : " قدم " فقد علم ما
جئت به وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه ، فدخل على القلب دخول
المانوس به ، وقبله قبول المهياً له ، المطمئن إليه ، وذلك لا محالة أشد
لثبوته ، وأنفى للشبهة ، وأمنع للشك ، وأدخل في التحقيق) (٣) . وفي هذا
تقوية للحكم الذي يسند إلى هذا الاسم المسند إليه . ثم إنه ينقسم في سورة
النساء قسمين :

أ - كون الجملة حالية : وقد وردت الجملة الحالية المبتدئة باسم في
سنة مواضع من سورة النساء ، واتسمت جميعها بطابع الإثبات مع كون

١ - الآية (١٠٧) .

٢ - انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ١١٠ .

٣ - انظر (دلائل الإعجاز) ، ص ١٣٢ .

المسند إليه ضميراً والمسند مشتقاً . إلا واحدة كان المسند جاراً ومجروراً ،
لكنه يؤول بفعل أو بمشتق^(١) . ففي قوله تعالى :

{ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما
تقولون ... }^(٢) .

الجملة الحالية^(٣) { وأنتم سكارى } أكدت النهي عن قرب الصلاة
وهم على تلك الحال المنافية لتمام العقل والمشاعر (لأن السكر علة تلحق
العقل)^(٤) وصاحبها جدير بالابتعاد عن أفضل عمل في الإسلام . ومن هنا
كانت مؤذنة بتغيير شأن الخمر والتفكير منها لأن المخاطبين يومئذ هم أكمل
الناس إيماناً وأعقلهم بالصلاة فلا يرمقون شيئاً يمنعهم من الصلاة إلا بعين
الاحتقار^(٥) وكان هذا تدريباً على تركها . وسكارى جمع تكسير سكران زنة
فعلان صفة مشبهة باسم الفاعل ، ولهذا فهي في قوة الفعل .
وكذا قوله تعالى :

{ فإن كان من قومٍ عدوٍ لكم وهو مؤمنٌ فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ }^(٦) .

وكذا قوله تعالى :

{ ومن يعمل من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فأولئك

يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً }^(٧) .

١ - انظر (شرح ابن عقيل) ، ج ١ ، ص ١٩٧ ، وقال ابن مالك رحمه الله :

وأخبروا بظرفٍ أو بحرفٍ جرٍ ناوين معنى كائنٍ أو استقرٍ

٢ - جزء من الآية (٤٣) .

٣ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

٤ - انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

٥ - انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ٦١ .

وهذا الحكم ضمن الأحكام التدريجية لتحريم الخمر ، وقد حرمت الخمر نهائياً بآية المائدة :

{ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوهُ

لعلكم تفلحون } ، الآية (٩٠) .

٦ - جزء من الآية (٩٢) .

٧ - الآية (١٢٤) .

وكذا قوله عز وجل :

{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا } (١) .

وكذا قوله عز من قائل :

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ... } (٢) .

فالجمل الحالية : { وهو مؤمن } ، { وهو محسن } ، { وهو خادعهم } جميعها بدأت بالضمير الذي هو مبتدأ (مسند إليه) وأخر فيها المسند إشعاراً بتقوية الحكم وعمق الصلة بين جزئيهما : المسند والمسند إليه ، وتأكيذاً للحدث الذي أتت فيه الجملة حالاً .

ب - ومن أمثلة تقوية الحكم التي تعود إلى الحالة النفسية والذهنية

أيضاً - وهي متعددة في هذه السورة المباركة - قوله تعالى :

{ وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ

تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا } (٣) .

المسند إليه المقدم في جملة : { والله يريد أن يتوب عليكم } أفاد بلا

شك تأكيد وتقوية حكم الإسناد ، ويتضح ذلك أكثر عند مقارنة موضع

الشاهد بالآيتين السابقة واللاحقة في : { يريدُ اللهُ ليبيِّنَ لكم } (٤) ، و { يريدُ

اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ } (٥) ، بل حتى تكلمة الآية نفسها عند بيان إرادة متبعي

الشهوات : { ويريد الذين يتبعون الشهوات } . جميعها تقدّم فيها المسند على

المسند إليه ، والغرض من المخالفة في { والله يريد } يكمن في نوعية

١ - الآية (١٢٥) .

٢ - جزء من الآية (١٤٢) .

٣ - الآية (٢٧) .

٤ - جزء من الآية (٢٦) .

٥ - جزء من الآية (٢٨) .

الحدث الفعلي ؛ لأن إرادة التوبة عمل خاص به سبحانه ، ومن لم يتب الله عليه فلن تنفعه توبة من في السماوات والأرض ، وذلك بخلاف المواضع الأخرى فالأمر فيها على اتساع ؛ لأن التبیین والتخفيف المطلوبين في الآيتين السابقة واللاحقة من الأعمال التي تدخل ضمن أمور التكليف .
 كما أن إرادة متبعي الشهوات - وإن كانت مستمرة - إلا أنها في ضعف وتذبذب دائمين . إذن تقديم المسند إليه أفاد تقوية الحكم لا محالة مع خصوصية الحدث لله سبحانه وتعالى . وهذا ما ذهب إليه الشيخ عبد القاهر رحمه الله . وهو ليس كذلك بالنسبة للسكاكي ؛ لأنه اشترط في إفادة الاختصاص أمرين :

أحدهما : أن يجوز تقدير كونه في الأصل مؤخرأ ، بأن يكون فاعلاً في المعنى فقط كقولك : " أنا قمت " فإنه يجوز أن تقدر أصله : " قمت أنا " على أن " أنا " تأكيد للفاعل الذي هو التاء في " قمت " . فقدم " أنا " وجعل مبتدأ .

وثانيهما : أن يقدر كونه كذلك^(١) ، أي يعتبر بصحة تقديره^(٢) . وأوضح ذلك الخطيب بقوله : فإن انتفى الثاني دون الأول ، كالمثال المذكور إذا جرى على الظاهر - وهو أن يقدر الكلام مبنياً على المبتدأ والخبر - ، ولم يقدر تقديم أو تأخير ، أو انتفى الأول بأن يكون المبتدأ اسماً ظاهراً فإنه لا يفيد إلا تقوية الحكم^(٣) دون التخصيص .

وأكد السكاكي صراحة في موضع آخر بقوله : (حق المعرف حمله على وجه تقوية الحكم وحق المنكر حمله على وجه التخصيص)^(٤)

١ - انظر (الإيضاح) ، ص ٦٦ .

٢ - انظر مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني ضمن (شروح التلخيص) ، ج ٢ ، ص ٤٠٧ .

٣ - انظر (الإيضاح) ، ص ٦٦ .

٤ - انظر (المفتاح) ، ص ١٠٧ .

مع أن نظم الجملة بهذا التركيب : { والله يريد أن يتوب عليكم } يفيد التأكيد باسمية الجملة وبدئها بلفظ الجلالة - وهو محور الحديث - وبتكرار الفاعل . كل هذا يقتضي تأكيد الخبر وتحقيقه وتخصيصه بالمولى سبحانه وتعالى دون سواه . وفي هذا أعظم بشرى لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . والله أعلم وأحكم .

ومن هذا القبيل قوله تعالى :

{ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ... } (١) .

قدم المسند إليه في { الله يفتيكم } لتمييز هذا الإفتاء عن غيره ، حيث إن المسند أمر تحيرت فيه عقول القوم وهم أصل الإسلام ويعلمون بإسلامهم أن الجاهلية جحدت النساء أبسط حقوقهن ؛ لذا طلبوا (الإفتاء الذي هو تبين المبهم وتوضيح المشكل منه سبحانه) (٢) . ومع ما أفاده تقديم لفظ الجلالة من تقوية حكم الإسناد حمل الأسلوب معنى الوعد والبشرى المستمرين بدليل الفعل المضارع منبهاً للمسلمين على وجوب العودة إلى كتاب الله في الأحكام التي جاءت في شأنهن (٣) ، فتكون المسلمة في حماية دائمة من ظلم الرجل لضعفها أمامه .

ومثله قوله تعالى :

{ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ... } (٤) .

وقوله تعالى :

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ

قَامُوا كَسَالَى يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا } (٥) .

١ - جزء من الآية (١٢٧) .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٩٠ .

٣ - انظر تفسير (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٥٩ .

٤ - جزء من الآية الأخيرة (١٧٦) .

٥ - الآية (١٤٢) .

فقد تطلب تصوير الموقف تأكيد نسبة الخداع إلى هؤلاء المنافقين لتأصيل هذه الصفة في نفوسهم ، فقدم المسند إليه المؤكد بأداة التأكيد ليدل دلالة قوية على ذلك ، ولهذا كان جزاؤهم من جنس العمل وبأسلوب مماثل^(١) في قوله تعالى : { وهو خادعهم } . وقد فسّر هذا الخداع منه سبحانه وتعالى بأنه استدرج لهم في الدنيا وحتى يوم المعاد يعطون كما يعطى المؤمنون المخلصون نوراً فيمشون به مطمئنين مستأنسين حتى إذا كانوا في أمس الحاجة إليه نزع عنهم^(٢) ، واستحقوا سوء المصير الموضح بقوله تعالى :

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً }^(٣) . بصورة مشابهة أيضاً في تقوية الحكم^(٤) .

ومنه أيضاً قوله تعالى :

{ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً }^(٥) .

تقدم المسند إليه في : { الله يشهد } وكذا { والملائكة يشهدون } لنفس الغرض السابق ، كما يدل هذا الموضع على التخصيص أيضاً دون قيد النفي ، وهو كثير جداً في سورة النساء وفي القرآن بشكل عام .

١ - المسند (خادع) اسم فاعل وهو في قوة الفعل ، إلا أن البلاغيين يجعلونه أضعف لمشابهته الاسم الجامد في أن له صورة واحدة في التكلم والخطاب والغيبة .

انظر مختصر السعد ضمن (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٤٢١ .

وكذا (المنهاج الواضح) لحامد عوني ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

٢ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٧٧ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٩٨ .

وكذا (التحرير والتتوير) ، ج ٥ ، ص ٢١٩ .

٣ - الآية (١٤٥) .

٤ - يقدر المسند بفعل أو بمشتق محذوف يعلق به الجار والمجرور .

٥ - الآية (١٦٦) .

اسمع معي قوله تعالى : { فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً }^(١) ألا تشعر أن بها مع تقوية الحكم تخصيصَ هذا الأمر له وحده جل شأنه ؟ وكذا قوله تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً }^(٢) .
وكذا قوله عزَّ من قائل :

{ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... }^(٣) .
وقوله :

{ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ... }^(٤) .
وقوله :

{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً }^(٥) .

أمور دالة على تفرد الله جل جلاله بها وحده ، فيثبت بذلك الحكم للمسند إليه وينتفي عن غيره . وهذا هو التخصيص بالإثبات ، وهو عكس الأول صورة ومعنى .

في كل ما مر معنا كان المسند إليه معرفة ، فكيف إذا أتى نكرة؟! هناك غرض وحيد اتفق عليه البلاغيون بالنسبة لتقديم المسند إليه النكرة وهو التخصيص^(٦) لا غير . وأمثله في سورة النساء محدودة جداً منها قوله تعالى :

١ - جزء من الآية (١٣٩) .

٢ - جزء من الآية (١٤٠) .

٣ - جزء من الآية (١٤١) .

٤ - جزء من الآية (٢٥) .

٥ - الآية (١٦٣) .

٦ - انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص ١٠٧ .

وكذا (الإيضاح) للخطيب ، ص ٣٦ .

{ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ... } (١) .

جاء المسند إليه (رجل) نكرة مقدمة على المسند (كلاله) ؛ لإرادة تخصيصه بحالة الحكم الذي يحمله المسند وقيد بحالة مخصوصة ، والتقيد هنا يخص كل الجنس أي : أي رجل من جنس الرجال مات وهو يتصف بهذا الوضع الأسري (٢) أو أي امرأة من جنس النساء كذلك (٣) .

وقد اضطررت هذه الصورة من التخصيص في اسم (لا) التي لنفي الجنس في سورة النساء المباركة من مثل قوله تعالى :

{ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ... } (٤) .

وكذلك قوله تعالى :

{ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ... } (٥) .

وكذا قوله :

{ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ... } (٦) .

جميع هذه المواضع أتى فيها المسند إليه نكرة . وقد يعود هذا إلى أصل لغوي حيث يشترط لصحة معنى النفي بهذه الأداة دخولها على نكرة ،

وكذا (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٤٠٣ وما بعدها .

وكذا (دلائل الإعجاز) للرجزاني ، ص ١٤٢ وما بعدها .

١ - جزء من الآية (١٢) .

٢ - لأن قوله تعالى { يورث كلاله } فيه احتمالان . الأول : كل من مات لا والد له ولا ولد فهو كلاله ورثته . أو كل وارث ليس بوالد للميت ولا ولد فهو كلاله مورثه . وهذا مشتق من جهة العربية موافق للتنزيل والسنة .

انظر (لسان العرب) مادة (كلل) .

٣ - انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٩٢ .

٤ - جزء من الآية (٢٣) .

٥ - جزء من الآية (٢٤) .

٦ - جزء من الآية (١٠٢) .

ولكن مع هذا فقد أدت معنى التخصيص في كافة المواضع السابقة ، حيث خُصَّ المؤمنون المنسحب عليهم الخطاب بنفي جنس الجناح عنهم في تلك الأحكام مع إثباته لغيرهم . أما قوله تعالى :

{ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... } (١) .

فالتقديم مع التكرير أفاد التخصيص . ومنه قوله تعالى :

{ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } (٢) .

والتخصيص حاصل من إفادة نفي جنس الخير عن كثير من نجواهم .

ب - تقديم المسند على المسند إليه :

المسند تأخيره أظهر ؛ خاصة في الجملة الاسمية ، ولكن قد يقتضي المقام تقديمه فما هي مقتضيات ذلك ؟

١ - تخصيصه بالمسند إليه على سبيل الإثبات :

كقوله تعالى : { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } (٣) . قدم المسند (لكم) ليفيد تخصيصه بالمسند إليه (٤) (دينكم) وقصره عليه . أي إثبات المسند إليه للمسند خاصة لا يتعداه إلى غيره ، وهذا لأن الجملة مثبتة .

ويمثل هذا اللون في سورة النساء آيات كثيرة منها على سبيل المثال قوله تعالى :

١ - جزء من الآية (٨٧) .

٢ - الآية (١١٤) .

٣ - الآية (٦) ، سورة الكافرون .

٤ - انظر (مفتاح العلوم) ، ص ١٠٥ .

{ ولا تتمنوا ما فضلَ اللهُ بهِ بعضكمُ على بعضٍ للرجالِ نصيباً مما اكتسبوا وللنساءِ نصيباً مما اكتسبنَ واسألوا اللهَ من فضلهِ إِنَّ اللهَ كانَ بكلِّ شيءٍ عليمًا } (١) .

فكان تقديم المسند (للرجال) على المسند إليه (نصيب) لإثبات هذا النصيب للرجال خاصة ، ثم نصيب للنساء خاصة (٢) . وهكذا حقق تقديم المسند حكماً شرعياً عظيماً وجديداً على من نزل عليهم القرآن الكريم . وقد تقدم الخبر (المسند) على المسند إليه أيضاً بغرض تخصيص المسند بالمسند إليه على سبيل الإثبات في قوله تعالى :

{ فمنهم من آمنَ بهِ ومنهم من صدَّ عنهُ وكفى بجهنمَ سعيراً } (٣) .
فقد خص المولى أسلاف اليهود بالانقسام والتذبذب ونعى على أخلافهم هذا لأنهم على نهج أسلافهم سائرون ، تبيكيتاً لهم ومنقصة وتوعداً (٤) بسوء المصير بدليل آخر الآية .

وعلى نقيضه معنوياً جاء قوله تعالى :

{ والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سندخلُهُم جَناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدِينَ فيها أبداً لهم فيها أزواجٌ مطهرةٌ وندخلُهُم ظلًّا ظليلاً } (٥) .
ومنه قوله تعالى :

{ من يشفعْ شفاعَةً حسنةً يَكُنْ له نصيبٌ منها ومن يشفعْ شفاعَةً سيئةً يَكُنْ له كِفْلٌ منها وكانَ اللهُ على كلِّ شيءٍ مقينًا } (٦) .

١ - الآية (٣٢) .

٢ - وقد كانوا يجحدون نساءهم تلك الحق حتى أنزل الله لهم الهدى . وقد نصيب الرجال على نصيب النساء مراعاة لما لهم عليهن من درجة ، ومداراة لهم في تغيير ما رسخ في أذهانهم من هضم لحقوقهن .

٣ - الآية (٥٥) .

٤ - انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ٨٩ .

٥ - الآية (٥٧) .

٦ - الآية (٨٥) .

ومن أوضح ما يمثل الاختصاص في الإثبات قوله تعالى :
{ ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً } (١) .

فقد خص سبحانه نفسه وحده دون سواه بهذا الملك والملكوت في
السموات والأرض ، وقد ساعد على توضيح هذه الصورة من الاختصاص
تقديم المسند على المسند إليه . وأمثال هذا كثير (٢) في سورة النساء .
ثم إنه لا يقتصر على الجملة الاسمية بل قد يعطي تقديم المسند
الفعلي ذلك أيضاً ، وأظهر أغراضه التخصيص للتشريف وذلك مثل قوله
تعالى :

{ بل رفعة الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً } (٣) .

فأتى تخصيص عيسى عليه السلام بالرفع الحاصل من المولى عز
وجل بلفظ الجلالة تكريماً له وتشريفاً ورداً على من أنكر هذا . ومن هذا
القبيل قوله تعالى :

{ وكلم الله موسى تكليماً } (٤) .

فقدم الفعل (كلم) لما فيه من الاستغراب (٥) والتشريف لموسى عليه
أفضل الصلاة والسلام . والله أعلم وأحكم .

٢- تخصيصه بالمسند إليه على سبيل النفي :

أما إذا كانت الجملة منفية فيكون المعنى نفي المسند عن المسند إليه
خاصة وإثباته لغيره مثل قوله تعالى : **{ لا فيها غول } (٦)** ، حيث نفي

١ - الآية (١٢٦) .

٢ - انظر الآيات (٢٥) ، (١٣١) ، (١٣٢) ، (١٧٠) .

٣ - الآية (١٥٨) .

٤ - جزء من الآية (١٦٤) .

٥ - فكلامه سبحانه مباشرة لم تجر به العادة .

٦ - جزء من الآية (٤٧) ، سورة الصافات .

الغول عن خمر الجنة خاصة وأثبتته لسواها من الخمر ، ولهذا لم يقدم المسند في (لا ريب) في قوله تعالى : { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ }^(١) حتى لا يثبت الريب لباقي الكتب المنزلة من عند الله غير القرآن^(٢) .

ومثاله في سورة النساء قوله تعالى :

{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ... }^(٣) .

فقد نفى المولى عن المؤمن خاصة قتل أخيه المؤمن عمداً لأنه مما يوجب غضب الله عليه ، والمؤمّل من المؤمن تحاشيه عن ذلك والنفور منه .

وقد يأتي النفي بالاستفهام الإنكاري كما في قوله تعالى :

{ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا }^(٤) .

الآية نزلت في أهل الكتاب فقد خصهم المولى بهذا الإنكار الذي تحمله همزة الاستفهام ، وأنكر عليهم أن يكون لهم نصيب من ملك^(٥) الله لأن حالهم يدل على اعتقادهم بهذا ، وعلل سبحانه عدم استحقاقهم لهذا النصيب وأنكره عليهم لما هم عليه من اللؤم ودناءة النفس^(٦) ؛ لأنه لو جعل لهم نصيباً من الملك لا يعطون الناس نقيراً منه لشدة بخلهم وقوة حسدهم^(٧) والمقصود من هذا التخصيص المبالغة في احتقارهم ، فهم أحقاء بذلك .

١ - جزء من الآية (٢) ، سورة البقرة .

٢ - انظر في هذا (شروح التلخيص) ، ج ٢ ، ص ١٠٩ وما بعدها .

٣ - جزء من الآية (٩٢) .

٤ - الآية (٥٣) .

٥ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

٦ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٣٦ .

٧ - انظر تفسير (فتح القدير) للشوكاني ، ج ١ ، ص ٤٧٨ .

ثانياً : التقديم والتأخير في معمولات الجملة :

ومن أمثله قوله تعالى :

{ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا }^(١) .

قُدِّمَ المفعول به هنا (القسمة) لفرط العناية به ؛ (لأنها المبحوث عنها ، ولأن في الفاعل تعداداً ، فلو روعي الترتيب يفوت تجاوب أطراف الكلام)^(٢) ، وقيل : قدمت القسمة لتكون أمام الحاضرين في اللفظ كما أنها أمامهم في الواقع^(٣) .

ومثله قوله تعالى :

{ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ... }^(٤) .

قدم المفعول به (أحدهم) إمعاناً في التهويل والشذب لهذا المتهاون العنيد في أمر التوبة حتى وصل به الحال إلى حياض الموت ، فصور هذا التقديم التسابق العنيد بين الإنسان والموت ؛ لذا قدم المفعول على الفاعل .

ومن تقديم المفعول به قوله تعالى :

{ وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ... }^(٥) .

فكلمة (كلاً) مفعول أول بـ (وعدَّ) مقدم عليه ، و (الحسنى) مفعول ثانٍ^(٦) ، وسر تقديمه ما تحمله لفظة (كل) في هذا المقام من

١- الآية (٨) .

٢- انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٨٧ .

٣- انظر (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٢١٢ .

٤- جزء من الآية (١٨) .

٥- جزء من الآية (٩٥) .

٦- انظر (التبيان في إعراب القرآن) ، ج ١ ، ص ٣٨٣ .

وكذا (الدر المصون) ، ج ٢ ، ص ٤١٧ .

البشرى لكافة المؤمنين بما فيها من إرادة العموم ؛ لأنهم فسروا الحسنى بالجنة ، وقد وُعد بها المؤمنون كافة^(١) .

وكما يقدم المفعول يقدم الحال ، مثل قوله تعالى :

{ رُسُلًا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا }^(٢) .

(رسلاً) حال موطئة لما بعدها^(٣) تنبيهاً على عظم مكانتهم وما حُمّلوا به من قبل الله ؛ لأن إرسالهم من قبله تعالى حجة دامغة لكافة الناس وهداية لهم إلى الطريق المستقيم .

وقد يقدم الظرف أيضاً مثل قوله تعالى :

{ يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا }^(٤) .

قال العكبري^(*) فيها : (والأصل في إذا : إذ ، وهي ظرف زمان ماض ، فقد استعملت هنا للمستقبل ، وهو كثير في القرآن ، فزادوا عليها التنوين عوضاً من الجملة المحذوفة ، تقديره : يومئذ تأتي بالشهداء ،

١- انظر (المحرر الوجيز) ج ٢ ، ص ٩٨ .

٢- الآية (١٦٥) .

٣- انظر (التبيين في إعراب القرآن) ، ج ١ ، ص ٤١٠ . وقد جعل لها احتمالات أخرى كأن تكون مفعولاً بفعل محذوف يقدر بـ : أرسلنا رسلاً ، أو منصوبة على المدح أي : أعني رسلاً ، ولكن الحال أظهر .

٤- الآية (٤٢) .

* الإمام العلامة النحوي محب الدين أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري ، ولد سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، قرأ بالروايات ، وبرع في الفقه والأصول ، ومن تصانيفه (تفسير القرآن) و (إعراب القرآن) ، توفي سنة ست عشرة وستمائة للهجرة .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

وحركت الذال بالكسر لسكونها وسكون التنوين بعدها (١) . وغرضه البلاغي الاهتمام بهذا اليوم شديد البأس .

ومن تقديم الجار والمجرور على عامله قوله تعالى :

{ فَبِظَلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ... } (٢) .

قدم هذا الجار والمجرور (بظلم) للنتبيه من أول الآية على سبب ذلك التحريم الذي لم يفرضه الله عليهم منذ البداية ، وإنما فرض عليهم لتعسفهم ، فكان إيذاناً بكمال عظم ظلمهم الخارج عن حدود الأشباه والأشكال (٣) .

وقد تتقدم هذه المعمولات بعضها على بعض ، وهو كثير جداً في هذه السورة ، وأهم الأغراض لذلك التقديم : شدة تعلق هذا المقدم بالحدث ، وكذا للفت الانتباه إليه وحصر الاهتمام به . ومن ذلك قوله تعالى :

{ وَجئنا بك على هؤلاء شهيداً } (٤) .

في هذا المقطع من الآية عدة معمولات ، منها كلمة (شهيداً) الواقعة حالاً ، وكان حقها أن تلي الفعل مباشرة ، إلا أننا نرى الجار والمجرور (بك) وكذا (على هؤلاء) قُدم عليها ؛ وذلك لما في هذا المقطع من مؤثرات نفسية داعبت خواطر النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى أوصلته إلى البكاء .

١- انظر (التبيان في إراب القرآن) ، ج ١ ، ص ٣٥٩ .

٢- جزء من الآية (١٦٠) .

٣- انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٦٠٥ .

٤- جزء من الآية (٤١) .

ومما هو منه بسبيل قوله تعالى :

{ إِنَّ تَجْتَسِبُوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَرْنَا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلُكُمْ مُدْخِلًا كَرِيمًا }^(١) .

وقوله تعالى :

{ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا }^(٢) .

وقوله :

{ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ... }^(٣) .

وقوله تعالى :

{ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا }^(٤) .

وقوله تعالى :

{ لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا }^(٥) .

وكذا قوله تعالى :

{ أَيْبِتُنْغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا }^(٦) .

وتقديم المعمولات في هذه المواضع مع ما فيه من معنى الاختصاص

إلا أنه يلمح لكل موضع منهم خصوصية تميزه عن غيره ، ففي قوله تعالى

{ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } قدم الجار والمجرور (عنكم) على المفعول به

(سيئاتكم) تعجلاً في إيصال البشرى التي يحملها الفعل (نكفر) .

١- الآية (٣١) .

٢- جزء من الآية (٩٠) .

٣- جزء من الآية (١٠٠) .

٤- جزء من الآية (١١٣) .

٥- الآية (١١٨) .

٦- جزء من الآية (١٣٩) .

أما في قوله تعالى { فما جعلَ اللهُ لكم عليهم سبيلاً } فتعلو مع الاختصاص نبرة الجد والتأكيد للفت الانتباه لما تقدم من الجار والمجرور .
وتقديم الجار والمجرور في قوله تعالى { يجد في الأرض مراغماً } على المفعول (مراغماً) لما تطلبه نفس المهاجر من الاستقرار إلى الأرض أم الإنسان .

ونلمح ملمحاً آخر في قوله تعالى { وأنزل اللهُ إليك الكتاب والحكمة } وهو التعطف والتكريم لخليل الرحمن محمد - صلى اللهُ عليه وسلم - .
وبالمقابل نجد لهجة العناد والكبر والتشفي تعلو على لسان عدو البشر إبليس عليه لعائن الله المتوالية إلى يوم الدين في قول الله عز وجل { لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً } . وقد صور هذا التقديم (من عبادك) الحقد المتأصل الدفين في نفسه ، كما أوضح خبثه وقلة أدبه من ربه .

أما قوله تعالى { أبيتغون عندهم العزة } فتقديم الظرف (عندهم) على المفعول به فيه الكثير من السخرية والاستهزاء بأولئك الذين يبحثون عن الشيء في غير موضعه الأصلي سفهاً منهم وحمقاً .
ومثل هذه المواضع كثير في هذه السورة المباركة مما لا يتسع المقام لذكرها جميعاً .

المطلب الثاني : من حيث الذكر والحذف .

أولاً : الحذف :

الحذف من أكثر الموضوعات تناسباً مع طبيعة اللغة العربية الميالة إلى الإيجاز ، وحياء أهلها المليئة بالمفاجآت الصحراوية ، بل ويتناسب مع الحالة النفسية لقوم سجيتهم الإشارة واللمح ؛ فهم لم يكتفوا بحذف الجمل والكلمات ، بل تعدوه إلى حذف بعض الحروف من بعض الكلمات إن دعت الحاجة إلى ذلك^(١) .

وأحسب أن خير ما يدل على دقة مسلك هذا الموضوع وعجيب أمره تلك المقولة^(٢) التي تردت في كتب البلاغة لإمام البلاغة الشيخ عبد القاهر الجرجاني - يرحمه الله - ، فقد أثارت فضول الكثير لبحثه واستقراء معانيه . فما هو المعيار الذي تضبط به قضية الحذف ؟

قال الإمام عبد القاهر : (فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ، ثم أصيب به موضعه ، وحذف في حال ينبغي أن يحذف فيها إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره ، وترى إضماره في النفس أولى وأنس من النطق به)^(٣) . وهذا يعني أن حذف الجزء الذي حذف قد أكسب الجملة جمالاً وخفة في اللفظ واتساعاً وعمقاً في المعنى^(٤) ، وتصور الجزء المحذوف من النص في ذهن المتلقي بما يتفق مع الجو العام يحقق التواصل

١ - انظر (خصائص التراكيب) للدكتور أبو موسى ، ص ١١٢ . وقد نبه - جزاه الله خيراً - إلى مثل هذا اللون من البلاغة الذي يعد حقاً موطناً خصباً لها .

٢ - قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني : (هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر ، أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدر أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتمّ بياناً إذا لم تبين .

انظر (دلائل الإعجاز) ، ص ١٤٦ .

٣ - انظر المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

٤ - انظر (البلاغة فنونها وأفنانها) للدكتور فضل حسن عباس ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

وكذا (خصائص التراكيب) للدكتور أبو موسى ، ص ١١٨ .

المنشود بينه وبين المنشئ ، وما ذاك إلا (لأن المحذوف إذا دلت الدلالة عليه كان في حكم الملفوظ به ، إلا أن يعترض هناك من صناعة اللفظ ما يمنع منه)^(١) فيجب الحذر من ذلك .

١- حذف المسند إليه :

على الرغم من تأصل المسند إليه في عملية الإسناد الخبري وشدة حاجة الجملة إليه ؛ إلا أننا نجد ذكره في بعض الأحيان زائداً عن حاجة المعنى لوجود قرينة حالية أو لفظية تدل عليه ، ولو تكلفنا ذكره أصبح الأسلوب ثقیلاً نابياً عن مظان البلاغة ؛ لأنه لم يحذف إلا ليحقق أهدافاً بلاغية تتناسب مع السياق .

هذه الأهداف التي يحذف لها المسند إليه كثيرة لأنها (أحوال تتبعت من دواخل النفس ولا يمكن التعرض لحصرها)^(٢) وحسبي أن أذكر بعض المواطن التي يكثر معها حذف المسند إليه^(٣) ثم أجتهد في تحديد أهم أهدافها البلاغية الموجودة في سورة النساء المباركة بحول الله وقدرته .

١ - من ذلك أن ترى رجلاً قد سدد سهماً نحو الغرض ثم أسبله ، فتسمع صوتاً فنقول : القرطاس والله ، أي أصاب القرطاس . فـ (أصاب) الآن في حكم الملفوظ به البتة ، وإن لم يوجد في اللفظ ، غير أن دلالة الحال عليه نابت مناب اللفظ به . وكذلك قولك لرجل مهو بسيف في يده : زيدا . أي : اضرب زيدا . وكذا قولك للقادم من السفر : خير مقدم . أي : قدمت خير مقدم ... إلخ .

انظر (الخصائص) لأبي الفتح عثمان بن جني ، ج ١ ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

٢ - انظر (خصائص التراكيب) للدكتور محمد أبو موسى ، ص ١١٨ .

٣ - يحذف المسند إليه المبتدأ في مواطن أهمها :

أ - إذا وقعت جملته جواباً للشرط مع وجود الفاء .

ب - إذا وقعت جملته مقولاً للقول .

ج - إذا وقعت جملته جواباً لاستفهام .

د - ويحذف عند ضيق المقام عن الإطالة .

هـ - وكونه معلوماً حقيقةً وبديهية .

و - وعند إرادة تكثير الفائدة .

ز - وما جرت العادة بحذفه مثل الأمثال . =

أ - حذف المبتدأ الواقع في جملة جواب الشرط : ومثاله من سورة النساء قوله تعالى :

{ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبته مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبته مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبته مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً }^(١) .

فقوله تعالى : { فتحرير رقبته مؤمنة } جملة واقعة في جواب (من) الشرطية . والمسند إليه فيها محذوف ، أي : الواجب عليه تحرير رقبته^(٢) . وقد تكرر هذا في الآية^(٣) ، ومثله : { فصيام شهرين } . ويحسن تقدير المبتدأ المحذوف بقولنا : فكفارته أو فحقه أو فالواجب عليه كما ذكر كثير من العلماء .

= وغير هذا كثير . انظر (كشف الغموض) للدكتور ياسين الأيوبي ، ص ٣٨ وما بعدها .
كما يحذف إذا كان فاعلاً وبني الفعل للمجهول لأغراض كثيرة منها :
أ - كون الفاعل معلوماً للمخاطب .
ب - كونه مجهولاً للمتكلم فلا يستطيع تعيينه .
ج - رغبة المتكلم في الإيهام أو في تعظيم الفاعل أو تحقيره أو الخوف منه أو عليه .
د - عدم تحقق غرض معين في الكلام بذكره .
انظر (علم المعاني) للدكتور عبد العزيز عتيق ، ص ١٢٦ وما بعدها .
وقد يحذف الفاعل مع بناء الفعل له وذلك لظهوره بدلالة السياق عليه أو الحال وإلا كان ضرباً من التقصير .

انظر (خصائص التراكيب) للدكتور أبو موسى ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٤ .

١ - الآية (٩٢) .

٢ - انظر (التبيان في إعراب القرآن) للعكبري ، ص ٣٨٠ . وقد ذكر وجهاً آخر لإعراب الكلمة حيث يصح أن تكون مبتدأ لخبر محذوف يقدر بـ : فعلية تحرير رقبته أو يلزمه تحرير رقبته .
وقد ذكر هذا أبو حيان في (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٢٤ وما بعدها .
وكذا السمين الحلبي في (الدر المصون) ، ج ٢ ، ص ٤١٤ .
٣ - وتكرر هذا الحكم وجعله كفارة لعدة أوضاع من القتل الخطأ مرده إلى رغبة الإسلام الأكيدة في إنهاء العبودية . والله أعلم وأحكم .

والغرض البلاغي من حذف هذا المسند إليه مع الإيجاز تركيز الاهتمام على المسند لما للعتق من قيمة دينية واجتماعية وإنسانية عظيمة ، وكذلك الصيام ، فهو تهذيب وتأديب وصلاح للفرد والجماعة .

ب — كما يحذف المسند إليه عند وقوعه مبتدأ في جملة القول : مثال ذلك من سورة النساء قوله تعالى :

{ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ... } (١) .

ف — (طاعة) خبر لمبتدأ محذوف ، أي : أمرنا طاعة (٢) . وفي حذفه دلالة خفية على أحوال القوم النفسية ، فقد أرادوا أن يدللوا على شدة حرصهم ومبادرتهم بهذه الطاعة حتى سبق بها اللسان ، ولكنهم لم يعلموا أن الله كاشف لرسوله وللمؤمنين أمرهم حتى إن عبارتهم هذه قد سجلت عليهم مروقهم من الطاعة وضيقهم بها يؤكد الله هذا بدلالة مادة كلمة (برزوا) ، حيث إن مادة هذه الكلمة تصور خروجهم من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخروج الشيء من الضيق إلى السعة (٣) كما كشفت سترهم (٤) ، وقد أرادوا بحذف المسند إليه التوصل من التبعة فظهر عكس ما يريدون .
ومنه قوله تعالى :

{ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ... } (٥) .

١ — جزء من الآية (٨١) .

٢ — ويجوز أن يكون المحذوف هو الخبر ويقدر بقولنا : عننا طاعة أو منا طاعة .

انظر (التبيان في إعراب القرآن) ، ص ٣٧٥ .

وكذا (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٨٢ وما بعدها .

وكذا (التحرير والتنوير) لابن عاشور ، ج ٥ ، ص ١٣٥ وما بعدها .

٣ — انظر (المفردات) ، مادة (برز) .

٤ — من دلالة هذه الكلمة : انكشاف ما كان مستوراً . انظر (المفردات) ، مادة (برز) .

٥ — جزء من الآية (١٧١) .

المحذوف مقدر بـ : إلهنا ثلاثة أو الإله ثلاثة^(١) . ولحذف هذا المبتدأ نكات بلاغية منها التحرز من ذكر هذا الباطل الذي أفسد عقيدة النصارى ، فهو أمر جلل ينبغي أن يتتزه عنه اللسان ، كما أنه يصور حالة

١ - انظر (التبيان في إعراب القرآن) ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

وكذا (الدر المصون) ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

وقد اعترض فضيلة الدكتور محمد أبو موسى على هذا التقدير ووسمه بالفساد متبعاً في ذلك الإمام عبد القاهر وقدره بـ : لنا آلهة ثلاثة ، وعلل هذا بقوله : وبيان ذلك إذا سلطت النفي على الجملة لا يتوجه النفي إلى أحد طرفيها وإنما يتوجه إلى الحكم القائم بين الطرفين ، وهذه قضية ثابتة ، فإذا قلت : ليس زيد بمنطلق فأنت لم تنف زيدا ولم توجب عدمه ، وإنما تنفي إثبات معنى الانطلاق لزيد . وإذا قلت : ليس زيد النحوي عاقلاً فأنت لم تنف عن زيد كونه نحوياً وإنما نفيت عنه كونه عاقلاً ، وإذا قلت : ليس أمراؤنا ثلاثة فأنت لم تنف أن لنا أمراء بل توجب ذلك وتثبته وإنما تنفي أن تكون عدتهم ثلاثة . فإذا قلت : ليست آلهتنا ثلاثة فأنت لم تنف وجود الآلهة بل توجب ذلك وتقرره وإنما تنفي أن تكون ثلاثة ، وهذا واضح وفيه ما ترى . انظر (خصائص التراكيب) ، ص ٢٢٣ .

ولا أرى كلامه إلا تأييداً لما ذهب إليه العكبري والسمين ، حيث إن النفي مسلط على عدة الآلهة . وهذا حق بديل آخر الآية { إنما الله إله واحد } . فهم لم ينفوا وجود الإله ، بل جعلوا عدته ثلاثة ، وقد نهوا عن هذا .

أما تقدير الدكتور بقوله : (لنا أو في الوجود آلهة ثلاثة) ففيه شيء من التكلف لأنه جعل الخبر (لنا أو في الوجود) محذوفاً ، ثم المبتدأ (آلهة) محذوفاً أيضاً ، وجعل (ثلاثة) نعتاً للمبتدأ المحذوف ، ثم استشهد بالآية في باب حذف المسند إليه . ص ٢٢٢ .

وكلامه وكلام الشيخ حق لو كان تقدير المبتدأ بالجمع (آلهتنا) ، ولكنهم قدروه بالمفرد (إلهنا ثلاثة ، أو الإله ثلاثة) ، وهذه هي عقيدة النصارى حيث يجعلون الإله مكوناً من ثلاثة عناصر : الأب والإبن وروح القدس ، جميعهم يكونون إلهاً واحداً ، لذلك سميت عقيدتهم بالتثليث . انظر (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى) لابن القيم ، تحقيق الدكتور محمد أحمد الحاج ، ص ١٧٧ وما بعدها .

ويؤيد هذا قوله تعالى : { لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ... } ، (٧٣) المائدة . وقد ذكر الإمام عبد القاهر ذلك بقوله : (ثم هاهنا طريق آخر وهو أن تقدر : ولا تقولوا الله والمسيح وأمه ثلاثة ، أي نعبدهم كما نعبد الله) . انظر (دلائل الإعجاز) ، ص ٣٨٣ .

وفي هذا التقدير تكون ثلاثة خيراً أيضاً لمبتدأ محذوف مكوناً من تلك العناصر الثلاثة المتعاطفة .

الشك والريبة التي تتغلغل في نفوس هؤلاء الضالين ، هذا الشك دعاهم إلى بتر الجملة لعدم الجرأة على تأكيدها ، وذلك بين بمقارنتها بقوله تعالى : { إنما الله إله واحد } ، حيث الحق الواضح الذي يعلو ولا يعلى عليه .

ج - وقد يحذف المسند إليه إذا كان مبتدأ في غير ذلك : مثل قوله تعالى :

{ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ... } (١) .

كلام مستأنف على أحد التقديرات (٢) ؛ إذ أن الجار والمجرور (من الذين) واقع خبراً لمبتدأ محذوف تقديره : " قوم من الذين هادوا " ، دل على هذا المبتدأ الجملة الواقعة صفة له (يحرفون) ، وحذف المبتدأ في مثل هذا شائع في كلام العرب اجتزاء بالصفة عن الموصوف إذا كان المبتدأ موصوفاً بجملة أو بظرف أو كان المبتدأ بعض اسم مجرور بحرف (من) وذلك الاسم مقدم على المبتدأ .

ومن كلمات العرب المأثورة في ذلك قولهم : منا ظعن ومنا أقام ، أي منا فريق ظعن ومنا فريق أقام (٣) .

ومنه قوله تعالى :

{ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون

بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً } (٤) .

١ - جزء من الآية (٤٦) .

٢ - قال الزمخشري : " من الذين هادوا " بيان من الذين أوتوا نصيباً من الكتاب في الآية (٤٤) لأنهم يهود ونصارى ، وقوله والله أعلم : " وكفى بالله " و " وكفى بالله " من الآية (٤٥) جمل توسطت بين البيان والمبين على سبيل الاعتراض ، أو بيان " لأعدائكم " وما بينهما اعتراض ، أو صفة " لنصير " أي : ينصركم من الذين هادوا ... ويجوز أن يكون الكلام مبتدأ على أن " يحرفون " صفة مبتدأ محذوف تقديره : من الذين هادوا قوم يحرفون .

انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

وكذا (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ٧٤ .

٣ - انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ٧٤ .

٤ - الآية (٦٢) .

تقدير الكلام : فكيف حالهم . حذف المبتدأ بدلالة سياق الكلام عليه^(١) .

د — كما يحذف المسند إليه إذا وقع فاعلاً عند بناء الفعل للمجهول : ويكون وراء كل حذف غرض بلاغي يفهم من السياق^(٢) ، ومن ذلك :

١ — كون الفاعل معلوماً للمخاطب . ومن أمثله في هذه السورة قوله تعالى :

{ حَرَمْتُ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ وَعَمَّاتِكُمْ وَخَالَاتِكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ ... }^(٣) .

فالمخاطبون به مؤمنون ، ويعلمون علم اليقين مصدره ، إذن لا حاجة لذكر الفاعل إذ هو معلوم عندهم ، والأولى والأجدى هنا لفت الانتباه إلى الفعل نفسه ، فهو الحكم الشرعي الذي ينبغي التركيز عليه والامتثال لمقتضاه .

وأمثله متعددة في القرآن الكريم ، ومنه في هذه السورة قوله تعالى :

{ وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ نَافِسِكُمْ ... }^(٤) .

وكذا قوله عز وجل :

١ — انظر (التحرير والتوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ١٠٧ .
٢ — انظر (علم المعاني) للدكتور عبد العزيز عتيق ، ص ١٢٧ وما بعدها .
وقد ذكر له سبعة مواضع هي : كون الفاعل معلوماً للمخاطب ، وكونه مجهولاً للمتكلم ، ورغبة المتكلم في الإيهام ، ورغبته في إظهار تعظيمه للفاعل ، ورغبته في إظهار تحقيره للفاعل ، وخوف المتكلم من الفاعل ، وعدم تحقق غرض معين في الكلام بذكر الفاعل .
٣ — جزء من الآية (٢٣) .
٤ — جزء من الآية (٢٤) .

{ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ... } (١) .

٢ - كما يحذف أيضاً لعدم تحقق غرض معين في الكلام بذكره فيكون الإيجاز أولى باللغة . ومن أمثله في سورة النساء قوله تعالى :
{ وإن كان رجلٌ يورثُ كلاً أو امرأة ... } (٢) .
وقوله تعالى :

{ فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ... } (٣) .

الفاعل (يُورثُ) و (أَحصن) كلاهما مبني للمجهول ، وحذف الفاعل هو الأولى ؛ لعدم الانشغال به وصرف الهمة إلى الحدث نفسه ، فهو الأحق بذلك .

ومما جاء على غراره قوله تعالى :

{ ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً } (٤) .

وكذا قوله تعالى :

{ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً } (٥) .

١ - جزء من الآية (١٦٢) .

٢ - جزء من الآية (١٢) .

٣ - جزء من الآية (٢٥) .

وأحصن : تزوجن أو زوجن ... لهذا قيل المحصنات المزوجات ، تصور أن زوجها هو الذي أحصنها .

انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (حصن) ، وفي هذا التقدير تضيق وحجر على معنى اللفظة ، فهي أرحب من تلك بكثير .

٤ - جزء من الآية (٧٤) .

٥ - الآية (١٤٨) .

ففي الفعلين (يُقْتَل) و (ظَلِمَ) إنما حذف المسند إليه لنفس الغرض .

٣ - كما يحذف الفاعل أحياناً للتعظيم . مثل قوله تعالى :
 { إِنَّ تَجْتَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُتَّهَوْنَ عَنْهُ نُكْفَرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ
 مُدْخَلًا كَرِيمًا } (١) .
 ومثله قوله تعالى :

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا } (٢) .
 وكذا قوله تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
 فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ
 خَشْيَةً ... } (٣) .

لا شك أن حذف الفاعل في (تتهون) لأنه المولى سبحانه أو رسله ، وكذا في (يوعظون) وفي (قيل) و (كُتِبَ) . كلها حذف فيها المسند إليه تفخيماً لشأنه وتعظيماً له وللمعاني التي يحملها المسند ؛ لأنها لا تأتي إلا من عظيم ينوّه بذكره ولا يُصْرَحُ .

١ - الآية (٣١) .

٢ - الآية (٦٦) .

٣ - جزء من الآية (٧٧) .

وهذا كثير في هذه السورة المباركة ، منه قوله تعالى :

{ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ... } ، الآية (٦٠) .

وكذا قوله تعالى :

{ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ... } ، الآية (٦١) .

وكذا الآية (١٢٧) ، والآية (١٢٨) ، والآية (١٥٧) ، والآية (١٦٠) .

٤ - وكما يحذف الفاعل تعظيماً يحذف لنقيضه . ومن ذلك قوله تعالى :

{ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردُّوا إلى الفتنة أركسوا فيها ... }^(١) .

الأفعال محذوفة الفاعل هي : (ردُّوا) و (أركسوا) وهما متقاربا المعنى ، إلا أن (أركس) أعمق وأدخل في المعنى . قال فيه الزمخشري : (كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين " أركسوا فيها " قلبوا فيها أقبح قلب وأشنع وكانوا شراً فيها من كل عدو)^(٢) . وقد قرئت الكلمة متقلة بغير ألف (ركسوا فيها) لتدل على وقوع الشيء بعد الشيء لأنهم جماعة^(٣) ، وما هذا الانخراط في الشر إلا لأنهم أسلموا قيادهم للشيطان فحق عليهم غضب الله سبحانه وتعالى ، وكانت علة الحذف تحقير الفاعل وهو الشيطان ، وتحقير نائبه والفعل الذي قاموا به .

ومنه قوله تعالى :

{ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً }^(٤) .

١ - جزء من الآية (٩١) .

٢ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

٣ - انظر (المحتسب) لابن جني ، ج ١ ، ص ١٩٤ . تحقيق علي النجدي ناصف و د . عبد الحليم النجار و د . عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، مصر ، ١٣٨٦ هـ والركس : قلب الشيء على رأسه ورد أوله إلى آخره . يقال : أركسته فركس ، وارتكس في أمره . قال تعالى : { والله أركسهم بما كسبوا } أي ردهم إلى كفرهم .

انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (ركس) . والآية (٨٨) ، النساء . ويلاحظ بناء الفعل للفاعل في هذه الآية لغرض التشفي فيهم وتصوير هذا القلب بأشد ما يكون لأن فاعله العظيم المنتقم الجبار سبحانه وتعالى .

٤ - الآية (١٤٠) .

والفاعل المحذوف في (يُكْفَر) و (يُسْتَهْزَأ) ، وهم الكفرة^(١) الغاشمين ، وحذفه تحقيراً لشأنهم لمجازاتهم بجنس عملهم .

— — — وحذف الفاعل لا يقتصر على بناء الفعل للمجهول بل يحذف أحياناً مع بناء الفعل له : وما ذاك إلا لأنه يوصل إليه بدلالة السياق . ومن ذلك قوله تعالى :

{ يُوَصِّيْكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثَلَاثًا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ ... } (٢) .

ففاعل الفعل (ترك) موجود في الذهن بدلالة الحال عليه ، وإن لم يتلفظ به لا سابقاً ولا لاحقاً حتى يقدر بضمير مستتر يعود على مذكور ، لكن البلاغة تقتضي حذفه لأنه وإن لم يذكر لفظاً فقد تضافر السياق على ذكره معنى^(٣) .

ومنه قوله تعالى :

{ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِّسَائِكُمْ فَاستَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسَكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا } (٤) .

المحذوف إيجازاً فاعل (يتوفاهن) أي : حتى يتوفاهن ملائكة الموت ، وقد أغنى عنه المضاف إليه (الموت) ، ولو لم يقدر الفاعل بالملائكة لأصبح الكلام (حتى يميتهن الموت لأن التوفي الموت بمعنى

١ — انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٩٧ .

٢ — جزء من الآية (١١) .

٣ — انظر تفسير (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ١٩٢ .

٤ — الآية (١٥) .

واحد) (١). كما أن إسناد هذا الفعل للملائكة ظاهر بين عقلاً ونقلًا لورود عدة آيات تذكر ذلك ، مثل قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ... } (٢) .

وقوله تعالى :

{ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ... } (٣) .

وأحسبُ أن حذف هذا الفاعل وإنابة المضاف إليه بدلاً عنه لما في معنى كلمة (الموت) من جمود يتناسب مع حالة الحبس الذي استحقته هذه الفئة الضالة من النساء ، وهي كلمة تكسب الموقف رعباً شديداً يهدف إلى الزجر والتخويف وأخذ العبرة والحذر . والله أعلم وأحكم .

ومن ذلك قوله تعالى :

{ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا واسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ولا يجدون لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ولياً ولا نصيراً } (٤) .

الشاهد في قوله تعالى (يوفِّيهم - يزيدهم - يعذبهم) ومن لا يستطيع الوصول إلى هذا الفاعل المحذوف لفظاً الواضح البين معنى ونبرة الاستعلاء والحزم والعظمة تعلق وترتفع في كل لفظ في الآية؟! ولشدة وضوحه لم يقف عنده المفسرون .

١ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٥٦ .

٢ - جزء من الآية (٩٧) .

٣ - جزء من الآية (١١) ، سورة السجدة .

٤ - الآية (١٧٣) .

ومعنى استنكفوا أي : أنفوا ، وقال الراغب الأصفهاني : يقال : نكفتُ من كذا واستنكفت منه : أنفت . وأصله من : نكفتُ الشيءَ نحيتَه ومن النكف : وهو تحية الدمع عن الخد بالإصبع ، وبحر لا يُنكف : أي لا يُنزع ، والانتكاف : الخروج من أرض إلى أرض .
انظر (المفردات) ، مادة (نكف) .

٢- حذف المسند :

يحذف المسند وإن كان هو الحكم في الجملة الخبرية طلباً لرفعة الكلام وعلو شأنه في بعض الأحيان . ودواعي حذفه كثيرة في سورة النساء المباركة . فمن ذلك :

أ - الاختصاص وتقوية الحكم :

مثل قوله تعالى :

{ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ... } (١) .

(امرأة) فاعل لفعل محذوف دل عليه ما بعده ، أي : إن خافت امرأة خافت . وتحليل ذلك أن الكلام مركب من جملتين فعليتين حذف من كل منهما جزء ، فالجملة الأولى حذف فعلها لدلالة ما بعده عليه ، والجملة الثانية من (خافت) حذف فاعلها لدلالة ما سبق عليه . وهذا فيه من تقوية الحكم وتأكيد ما لا يخفى على متأمل ؛ فقد ذكر علماء النحو أن هناك أدوات لا تدخل إلا على الجمل الفعلية^(٢) من بينها (إن) الشرطية ، ودخولها على الاسم يعني إرادة التأكيد بتكرار المعنى بجملتين متتاليتين . ولنا أن نحس ذلك بأنفسنا لو أدخلنا أداة الشرط على الفعل مباشرة : إن خافت امرأة . لا بد أن الذوق السليم يرجح التركيب الأول لما يشعر من القوة والتأكيد الذي يفتقر إليه التركيب الثاني .

ومثله تماماً قوله تعالى :

{ وَإِنِ امْرَأَةٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ... } (٣)

١ - جزء من الآية (١٢٨) .

٢ - وهي أدوات الشرط مثل : (إن ، إذا ، ولو) إذا جاء بعدها اسم فيجب أن يكون فاعلاً لفعل محذوف يقدر من لفظ الفعل المذكور .

انظر (شرح ابن عقيل) ، ج ١ ، ص ٤٣٠ وما بعدها .

٣ - جزء من الآية (١٧٦) .

المسند المحذوف يقدر بقولنا : إن هلك امرؤ هلك . وهذا التكرار الذي يفيد المعنى قوة وتأكيذاً ، ولو ظهر هذا المسند في اللفظ لكسا التركيب ضعفاً وركاكة ؛ لذا كان حذفه .

ب - الاحتراز عن العبث :

بعدم ذكر ما لا ضرورة لذكره ، وهذا من شأنه أن يكسب الأسلوب قوة ويضفي عليه جمالاً فوق فضيلة الإيجاز . ومن أمثلته في سورة النساء المباركة قوله تعالى :

{ ولولا فضلُ اللهِ عليكمُ ورحمتهُ لاتبعتمُ الشيطانَ إلا قليلاً }^(١) .

من المعلوم أن لولا في أحد استعمالاتها تدخل على جملتين : اسمية ففعلية لربط امتناع الثانية بوجود الأولى^(٢) . و (لولا) هنا حرف لا محل له من الإعراب ، وكلمة (فضل) مبتدأ ، وخبره محذوف يقدر بـ (موجود) ووصولنا إلى هذا الخبر أمر بدهي ؛ لهذا فذكره من قبيل العبث الضار بدرجة جودة التركيب وبلاغته ، وهذا ما تأباه العربية عامة ، فكيف يقبله القرآن الكريم؟! ولكن يشترط في هذا الحذف أن يكون الخبر كوناً عاماً ، أي ليس حالة خاصة لا يهتدي إليها الذهن مباشرة .
ومثله قوله تعالى :

١ - جزء من الآية (٨٣) .

٢ - انظر (مغني اللبيب) لابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

وقد ذكر وجوه استعمالات (لولا) قائلاً : استعمالات (لولا) أربعة ، الأول : ما نحن بصدده ، والثاني : أن تكون للتخصيص والعرض فتختص بالمضارع أو ما في تأويله نحو { لولا تستغفرون الله } ونحو { لولا أخرتني إلى أجل قريب } والآيتان على التوالي : (٤٦) النمل ، (١٠) المنافقون . والثالث : أن تكون للتوبيخ والتنذيم فتختص بالماضي نحو { لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء } ، (١٣) النور . والرابع : الاستفهام نحو { لولا أنزل عليه ملك } ، (٨) الأنعام .

{ ولولا فضلُ اللهِ عليكِ ورحمتهُ لهَمَّتْ طائفةٌ منهمُ أنْ يضلُّوكَ ... } (١) .

ج - الحذف لدلالة السياق :

قد يحذف المسند لدلالة السياق عليه دون قياس معين في النحو ،
ومن أمثلته في سورة النساء قوله تعالى :

{ والمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... } (٢) .

الذي دل على المسند المحذوف نصب كلمة (كتاب) فعامل النصب
لها غير موجود في السياق ولتقديره وجهان :

الأول : (أن كلمة (كتاب) مصدر مؤكد من غير لفظ الفعل ، لأن
قوله { حرمت عليكم } يدل على معنى الكتابة فالتقدير : كتب عليكم تحريم
ما تقدم ذكره من المحرمات كتاباً من الله ، ومجيء المصدر من غير لفظ
الفعل كثير نظيره قوله تعالى : { وترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمرُّ
مرّاً السحاب صنع الله ... } (٣)

الثاني : يجوز أن يكون منصوباً على جهة الأمر ، ويكون (عليكم)
مفسراً له فيكون المعنى : الزموا كتاب الله . ولا شك أن حذف المسند هنا
أحدث قدراً كبيراً من اللفت والتنبيه إلى هذا المنصوب لتعدد فيه الآراء
والتقديرات ؛ لأن فيه من توسيع المعنى وإيجاز اللفظ ما لا يخفى .

١ - جزء من الآية (١٦٣) .

٢ - الآية (٢٤) .

٣ - انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج ١٠ ، ص ٤٢ .

وكذا (التبيان في إعراب القرآن) لأبي البقاء العكبري ، ج ١ ، ص ٣٤٦ .

والآية (٨٨) النمل ، والمسند المحذوف فيها يقدر بفعل الأمر : تأملوا صنع الله أو هاكم
أو غيره . أضاف حذفه مجالاً واسعاً في المعنى سعة ما في الكون من عجائب صنع الله . وهذا هو
الإيجاز البلاغي المعجز .

ومنه كثير في هذه السورة مثل قوله تعالى :

{ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ... }^(١) .

المسند المحذوف فعل الأمر (فانكحوا) مما ملكت أيمانكم من
فتياتكم المؤمنات . وقد سوغ حذفه دلالة السياق عليه . وربما كان الهدف
البلاغي من حذفه تفادي صيغة الأمر حتى لا يفهم منه الإلزام ، فالقضية
قضية إياحة^(٢) فقط .

ومنه قوله تعالى :

{ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ... }^(٣)
أي : ويطع الرسول .

ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى :

{ فَمَالَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنِينَ وَاللَّهُ أُرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتْرِيدُونَ أَنْ
تَهْدُوا مِنْ أَضَلِّ اللَّهُ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً }^(٤) .

(فتنين) نصب على الحال^(٥) بتقدير ما لكم تفترقون في أمور
المنافقين^(٦) فتنين ، وحذف المسند (تفترقون) تحاشياً من أن يسند الافتراق
إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاً لهم .

١ - جزء من الآية (٢٥) .

٢ - في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة
واليهودية والنصرانية وإن كان موسراً . انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٦٣ .
والفتيات : جمع فتاة وهي المملوكة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : لا يقولن أحدكم
عبدي ولكن ليقل فتاي وفتاتي . ويقال للجارية الحديثة : فتاة ، والغلام فتى ، والأمة تسمى كذلك وإن
كانت عجوزاً .

انظر تفسير الرازي ، ج ١٠ ، ص ٦٠ .

٣ - الآية (٦٩) .

٤ - الآية (٨٨) .

٥ - انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

٦ - انظر (التبيان) للعكبري ، ج ١ ، ص ٣٧٨ .

ومثله قوله تعالى :

{ لَكِنَّ الرَّاَسْخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ
وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا } (١) .

موضع الشاهد : (والمقيمين) لفظ منصوب بين متعاطفات مرفوعة
فما سبب نصبه ؟

أرجح الأقوال في نصبه : أنه نصب على المدح ، أي : أعني
المقيمين (٢) ؛ وذلك لبيان فضل الصلاة (٣) وفضل مقيميها لما في اشتقاق
اللفظ من معنى المداومة والاعتناء .

ومنه قوله تعالى :

{ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا
تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا } (٤) .
وذلك في نصب كلمة (نصيباً) ، أي أوجب أو جعل لهم نصيباً (٥) . ومثله
قوله تعالى :

{ فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ ... } (٦) .

قال أبو البقاء إنها مصدر لفعل محذوف ، أي : فرض الله ذلك
فريضة (٧) . ومنه :

١ - الآية (١٦٢) .

٢ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٣١٣ .

وكذا (التبيان) ، ج ١ ، ص ٤٠٧ .

٣ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٣١٣ .

٤ - الآية (٧) .

٥ - انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج ٢ ، ص ٣١٥ .

٦ - جزء من الآية (١١) .

٧ - انظر (الدر المصون) ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ .

وكذا (التبيان) ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .

{ فصيام شهرين متتابعين توبةً من الله }^(١)

في نصب كلمة (توبة)^(٢) ، أي اقصدا بها أو اطلبوا بها توبة من

الله .

ومنه قوله تعالى :

{ وَمَنْ يَقتُلْ مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله

عليه ولعنة وأعدّ له عذاباً عظيماً }^(٣) .

فقوله تعالى (خالداً) نصب على الحال بمسند محذوف في حذفه

تقديران : أحدهما : " يُجزاها خالداً فيها " ، فهو حال من الضمير المنصوب

أو المرفوع . والثاني : " جزاؤه " بدليل { وغضب الله عليه ولعنة } ،

فحذف عليه الماضي . فعلى هذا يكون خالداً حال من الضمير المنصوب لا

غير^(٤) . والقيمة البلاغية تكمن في الإيجاز الذي سوّغه ذكر الجزاء من قبل

في السياق : { فجزاؤه جهنم } .

٣- حذف المفعول به :

ولحذف المفعول به شأن عظيم في كتب البلاغة ؛ وذلك لما له من

لطائف بلاغية عجيبة^(٥) تستحوذ على لب المتلقي الفطن ، وترقي به إلى

الأكمل .

والقاعدة العامة في حذفه قوة دلالة السياق عليه لتحقيق غرض خاص

معين في النفس ، وهذه الأغراض متنوعة يمكن الإشارة إلى بعضها فيما

يلي :

١- جزء من الآية (٩٢) .

٢- انظر (الدر المصون) ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ .

٣- الآية (٩٣) .

٤- انظر (التبيان) للعكبري ، ج ١ ، ص ٣٨١ .

٥- انظر (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني ، ص ١٥٤ وما بعدها .

أ - لدلالة السياق أو الحال عليه مع قصد الإيجاز (١) :

مثل قوله تعالى :

{ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً } (٢) .

حذف مفعول (يلعن) لسبق ذكره في الآية نفسها في قوله تعالى :

{ لعنهم } . هذا من الوجهة النحوية ، أما من الوجهة البلاغية فإن حذفه يشير بقوة إلى معنى العموم المكتسب من (من) ، ثم لتعلق النفس بالفاعل فيعظم أمر لعنه فيتجنب مسبباته ، ثم للإيجاز (٣) الذي تتصف به اللغة العربية .

ومما حذف مفعوله لدلالة السياق عليه قوله تعالى :

{ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن

تجد له نصيراً } (٤) .

فمفعول (يضلل) محذوف بدلالة { تجد له } ، وفيه أيضاً تأكيد على

العموم المستفاد من اسم الشرط (من) .

ومثله قوله تعالى :

{ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى

بالله شهيداً } (٥) .

مفعول (يشهدون) محذوف لدلالة ما قبله عليه (أي : يشهدون بما

أنزل إليك وشهادة الملائكة تبع لشهادة الله) (٦) .

١ - راجع في هذا (الخصائص) لابن جني ، ج ١ ، ص ١٨٦ وما بعدها .

ومن أمثلة ما حذف لدلالة السياق قوله تعالى : { ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفاً } ، الآية (٥) . الشاهد : (التي جعل الله) .

٢ - الآية (٥٢) .

٣ - انظر (البلاغة فنونها وأفنانها) ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

٤ - الآية (١٤٣) .

٥ - الآية (١٦٦) .

٦ - انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ١ ، ص ٢٨٦ وما بعدها .

في كل ما ذكر كان الحذف لدلالة السياق ولكن قد يحذف المفعول لدلالة الحال عليه . ومنه قوله تعالى :

{ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذريةً ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً }^(١) .

والتقدير : وليخش الله^(٢) الذين لو تركوا ؛ ولما كانت الخشية لا تكون إلا له سبحانه أثر الأسلوب القرآني حذف المفعول به تأكيداً على هذا المضمون ، فليس في الوجود من يستحق الخشية إلا هو سبحانه ، إذ هي نوع من أنواع العبادة ، فكان الحذف لدلالة الحال تأكيداً على وجوب صرفها له سبحانه مع ما فيه من قصد الإيجاز .

ومنه قوله تعالى :

{ ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً }^(٣) .

مفعول (عقدت) محذوف ، قدره العلماء بـ (عاقدتهم أو عقدت حلفهم)^(٤) ، ولكن لأن المعنى شائع معروف أثر القرآن الحذف على الذكر حتى لا يذكر فضولاً وحشواً ، وهو صورة رائعة من صور الإيجاز في القرآن الكريم .

ب – إثبات معنى الفعل بصرف الاهتمام له :

قال الإمام عبد القاهر بعد أن مثل بعدة أمثلة منها قوله تعالى :

{ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون }^(٥) .

١ – الآية (٩) .

٢ – انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج ٢ ، ص ٣١٦ .

٣ – الآية (٣٣) .

٤ – انظر (الدر المصون) ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ .

٥ – الآية (٩) ، سورة الزمر .

قال رحمه الله : (وهكذا كل موضع كان القصد أن تثبت المعنى في نفسه فعلاً للشيء ، وأن تخبر بأن من شأنه أن يكون منه ، أو لا يكون إلا منه ، أو لا يكون منه ، فإن الفعل لا يُعدى هناك ، لأن تعديته تنقض الغرض وتغير المعنى)^(١) . فتوسيت تعديّة الفعل لتحقيق تلك المقاصد البلاغية .

وأمثلته متعددة في سورة النساء منها قوله تعالى :

{ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا }^(٢) .

الفعل (تَبَيَّنَ) أصله متعدٍ يدل على شدة طلب البيان^(٣) حسب ما تقتضيه صيغة النَّفْعِ ، ولكنه عومل معاملة اللازم وحذف مفعوله أو لم يطلب أصلاً ، وهذا يعطي مزيداً من التأكيد على مضمون الفعل نفسه . والمعنى كما قال المفسرون : اطلبوا التثبت والبيان^(٤) .

ومنه قوله تعالى :

{ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمَعَالِقِ وَإِنْ تَصَلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا }^(٥) .

حذف مفعولي الفعلين (تصلحوا وتتقوا) لئلا يحدد الإصلاح بأمر دون آخر ، فهو مطلوب في كل أمر ، وأولها ما جاء في شأن العقيدة ، وحذف من الثاني لأنه لا تقوى إلا له جل شأنه . والحذف يجعل الاهتمام

١ - انظر (دلائل الإعجاز) ، ص ١٥٥ .

٢ - جزء من الآية (٩٤) .

٣ - انظر (التحري والتنوير) ، ج ٥ ، ص ١٦٧ .

٤ - انظر (الدر المصون) ، ج ٢ ، ص ٤١٥ .

وكذا (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٦٩ .

٥ - الآية (١٢٩) .

منصباً على الفعلين لما لهما من أهمية عظمى في حياة المسلم ، وفي بناء أسرة سعيدة .

وكذلك قوله تعالى :

{ وَالكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ... } (١) .

حذف مفعولي الفعلين (نزل وأنزل) لنفس الغرض . ولعلك لاحظت الفرق بين صيغة الفعلين فـ (نزل) مع القرآن لأنه منجم ، و (أنزل) مع الكتاب الذي قبله لأنه نزل جملة واحدة ، وهذا من جليل نظم القرآن المعجز . ومثله قوله تعالى :

{ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ ... } (٢) .

في الفعل أصلحوا لإرادة العموم .

وكذا قوله :

{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ... } (٣) .

في { أوحينا إلى نوح } أي : أوحينا . ولكن المماثلة بالتشبيه أغنت

عن ذكرها .

وكذا قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ

طريقاً } (٤) .

حذف مفعول الفعل (ظلموا) ليدل على الشمول ، فظلمهم لم يقع

على أنفسهم فحسب بل على جملة أشياء تخص الفرد والمجتمع ، وذكره

يحصر المعنى ويضيقه .

١ - جزء من الآية (١٣٦) .

٢ - جزء من الآية (١٤٦) .

٣ - جزء من الآية (١٦٣) .

٤ - الآية (١٦٨) .

وتأمل قوله تعالى :

{ يبينُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (١) .

وهي آخر آية في هذه السورة المباركة ، بل آخر جملتين فيها ، وأول الآية تتحدث عن الكلالة ، وهي حكم يخص حالة معينة من الإرث ، ولكن الخاتمة جمعت كل ما دار في السورة من الأحكام التي لو تمسكنا بها ما ضللنا أبداً ، ولم تقتصر هذه الخاتمة على الكلالة كما قال أحد المفسرين : (مفعول البيان محذوف ، و { أن تضلوا } مفعول لأجله على حذف مضاف تقديره يبين الله أمر الكلالة كراهة أن تضلوا فيها أي في حكمها) (٢) .

ج - البيان بعد الإبهام :

سماه عبد القاهر الإضمار على شريطة التفسير (٣) ، والمقصود بهذا مفعول المشيئة والإرادة (٤) ، والغرض البلاغي من حذفه هو التشويق وجذب الانتباه لما فيه من الإيضاح بعد الإبهام مما يحدث توافقاً بين المتلقي والنص . ومثله قوله تعالى :

{ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتلُوكُمْ فَإِنْ اعترلُوكُمْ فَلَمْ يقاتلُوكُمْ وَأَلقُوا إِلَيْكُمْ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً } (٥) .

١ - جزء من الآية (١٧٦) .

٢ - انظر (الدر المصون) ، ج ٢ ، ص ٤٧٥ .

وقد ذكر السمين وجهاً آخر في مفعول (يبين) هو أنه المصدر المؤول من قوله تعالى { أن تضلوا } ، أي يبين الله لكم الضلالة فتجتنبوها ، لأنه إذا بين الشر اجتنب ، وإذا بين الخير ارتكب . لكن واقع الآية يخالف هذا التقدير ، حيث إن الآية شرحت الخير ولم تشرح الضلال ثم حذرت منه . والله أعلم وأحكم .

٣ - انظر (دلائل الإعجاز) ، ص ١٦٣ .

٤ - انظر (البلاغة فنونها وأفانها) ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

٥ - جزء من الآية (٩٠) .

مفعول الفعل (شاء) محذوف لأنه مفهوم من جواب الشرط ،
وتقديره : لو شاء الله تسليطهم لسلطهم ، وذكره كما قال الإمام عبد القاهر :
(يمجه السمع وتعافه النفس ؛ وذلك أن في البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد
التحريك له أبداً لطفاً ونبلاً لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك)^(١) وحذفه يجذب
انتباه السامع ويغريه بالمشاركة في تكملة النص وفي ذلك متعة نفسية
عظمية ، وهو أسلوب دارج عند العرب .
ومنه قوله تعالى :

{ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك
قديرأ }^(٢) .

مفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أي : إن يشأ إفناءكم
وإيجاد آخرين يذهبكم^(٣) . ومع أن نكره مناف لطبيعة اللغة إلا أن في حذفه
ملمح بلاغي آخر هو البعد عن المواجهة بهذا الأمر الشديد ؛ لأن الخطاب
عام والإشارة أجلب للنفوس صالحها وطالحها .

٤- حذف معمولات الفعل :

أ - حذف حرف الجر :

قد يحذف حرف الجر لغرض بلاغي دقيق ، وذلك كقوله تعالى :

{ يستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في
الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن
تنكوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما
تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً }^(٤) .

١ - انظر (دلائل الإعجاز) ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

٢ - الآية (١٣٣) .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٩٣ .

٤ - الآية (١٢٧) .

حذف حرف الجر بعد (ترغبون) وحذفه له موقع عظيم من البلاغة
 أي : ترغبون عن نكاح بعضهن ، وفي نكاح بعض آخر ؛ لأن (رغب)
 يتعدى بـ (عن) للشيء الذي لا يُحبُّ وبـ (في) للشيء المحبوب ، فإذا
 حذف احتمل المعنيين إن لم يكن بينهما تناف (١) .

ب - حذف شبه الجملة :

من ذلك قوله تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَاةَ
 وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ } (٢) .

قال السمين الحلبي* : (والمشتري به محذوف ، أي : بالهدى كما
 صرح به في مواضع) (٣) مثل قوله تعالى :

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَاةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا
 مُهْتَدِينَ } (٤) .

ولعل علة الحذف في الآية موضع الدراسة هو حصر الاهتمام في
 شراء الضلالة لأنها وسيلتهم الناجعة في محاولة إضلال المسلمين بدليل
 قوله تعالى : { ويريدون أن تضلوا السبيل } تنبيهاً للمخاطبين على سوء
 نوايا عدوهم ووسائله الخبيثة .
 ومن ذلك قوله تعالى :

١ - انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ٢١٣ .

٢ - الآية (٤٤) .

* هو الإمام شهاب الدين أبو العباس بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ، ترك مؤلفات عديدة
 تنم عن ثقافته الواسعة ، منها : (الدر المصون) ، (القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز) ،
 توفي سنة ست وخمسين وسبعمائة للهجرة .

انظر مقدمة تحقيق كتابه (الدر المصون) ، ج ١ ، ص ٧ وما بعدها .

٣ - انظر (الدر المصون) ، ج ٢ ، ص ٣٧١ .

٤ - الآية (١٦) ، سورة البقرة .

{ فقاتل في سبيلِ الله لا تكلفُ إلا نفسك وحرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عسى اللهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًّا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا } (١) .

موضع الحذف قوله تعالى : { وحرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ } حيث لم يذكر الْمُحَرِّضُ عليه وهو القتال ، أي : حثُّهم على القتال ورجبهم فيه وعظهم لأنهم آمنون بالتخلف عنه لفرضه عليهم (٢) ولا تعنَّف بهم (٣) .

ثانياً : الذكر :

لذكر المسند والمسند إليه أسرار بلاغية وقف عندها العلماء وقفة تأمل وخرجوا بجملة أغراض (٤) ، سنتناول الدراسة بعضها بالمناقشة والتحليل حسب ورود أمثلة لها من سورة النساء المباركة .

١- الأغراض البلاغية لذكر المسند إليه :

أ - يذكر المسند إليه لأنه الأصل في الكلام ، ولا مقتضى للعدول عنه ، وذلك مثل قوله تعالى :

{ يوصيكمُ اللهُ في أولادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ... } (٥) .

١ - الآية (٨٤) .

٢ - انظر (روح المعاني) ، ٢م ، ج ٥ ، ص ٩٧ .

وأصل التحريض إزالة الحرص وهو ما لا خير فيه ولا يعتد به .

انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (حرص) .

٣ - انظر (تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٥٩) .

٤ - قال الخطيب القزويني : وأما ذكره فإمّا لأنه الأصل ولا مقتضى للحذف ، وإمّا للاحتياط لضعف التعويل على القرينة ، وإمّا للتنبيه على غباوة السامع ، وإمّا لزيادة الإيضاح والتقرير ، وإمّا لإظهار تعظيمه أو إهانته ... وإمّا للتبرك بذكره ، وإمّا لاستلذازه ، وإمّا لبسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب .

انظر (الإيضاح) ، ص ٢٢ - ٢٣ .

وكذا (المفتاح) للسكاكي ، ص ٨٥ .

وكذا (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٢٨ .

٥ - جزء من الآية (١١) .

فهي جملة مستأنفة منزلة بمنزل البيان والتفصيل لقوله تعالى :

{ لِرِجَالٍ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ... }^(١) .

فالمسند إليه (الله) أصل لا يمكن الاستغناء عنه ؛ لأن التركيب الصحيح للجملة يطلبه ، كما أن التركيب المعنوي أيضاً يطلبه ، وبإلحاح شديد ، حيث إن أمر تقسيم الإرث بين الذكور والإناث أمر مستحدث على مسامع القوم ، وما زالت النفوس في طور التربية ، فعندما يسند هذا الأمر للاسم الجليل لا يسع المؤمنين إلا التسليم التام وإن جاهدوا بذلك طبائعهم .
ومثله في الحكم قوله تعالى :

{ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ... }^(٢) .

فالجملة لا يمكن أن تستقيم إلا بوجود المسند إليه (أزواجكم) لأنها تحمل حكماً شرعياً لا يحدد إلا بوجود فاعل (ترك) وتعيينه بصورة خاصة ، ولذا نكره ضرورة لغوية وبلاغية .
ومثله في الأصل قوله تعالى :

{ إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ... }^(٣) .

فلو حذف المسند إليه لأبهم المعنى مع أن المراد إيضاحه وتأكيده .

ب - زيادة التقرير والإيضاح أو تأكيد مضمون الجملة :

أكثر ما يكون هذا الغرض في الجمل الواقعة تذييلاً للآيات الكريمات التي يكون فيها المسند إليه لفظ الجلالة ، فلذكرة وقع شديد على النفس حيث تتجمع كل مفاهيم الآية في نقطة واحدة يعمل هذا المسند إليه على ترسيخها

١ - جزء من الآية (٧) .

٢ - جزء من الآية (١٢) .

٣ - جزء من الآية (٤٠) .

بصورة قوية . وأمثله كثيرة جداً في القرآن الكريم بعامة وسورة النساء خاصة ، ومنه قوله تعالى :

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً } (١) .

فقد جاء ذكر المسند إليه في آخر جملة في الآية { إن الله كان عليكم رقيباً } تأكيداً وتقريراً لكل ما مر في الآية من الأمر بالتقوى وإقامة الحجة عليهم بربوبيته سبحانه وعجيب نشأتهم وتكاثرهم وأمور حياتهم الاجتماعية . وتلك أمور عظام لا يتناسب تأكيدها إلا مع لفظ الجلالة ، وهكذا جمعت معاني الآية كلها في هذا المسند إليه العظيم ، ومن أعظم من الله اسماً ؟!

ومثله قوله تعالى :

{ وصية من الله والله عليمٌ حلِيمٌ } (٢) .

لم يشأ سبحانه إلا ذكر هذا المسند إليه في { والله عليمٌ حلِيمٌ } في تأكيد وتقرير منقطع النظير بعد ذكر تلك القضايا المتشعبة في أمور الميراث . وكان يغني السياق ظاهرياً لو جاء : وصية من الله العليم الحلِيم ، لكنها جملة التذييل التي تأتي دائماً مستقلة في التركيب بنفسها عما قبلها مع عمق صلتها به معنوياً .

ومثله قوله تعالى :

{ واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً } (٣) .

فها هو لفظ الجلالة مرة ثانية مع قرب ذكره ، ذكر لزيادة التقرير والتأكيد والترغيب والحث على المبادرة بالاستغفار .

١ - الآية (١) .

٢ - جزء من الآية (١٢) .

٣ - الآية (١٠٦) .

ج - تخصيص المسند إليه بالمسند (١) :

ومنه قوله تعالى :

{ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } (٢) .

موضع الشاهد : { فأولئك يتوب الله عليهم } . فقد ميز هذا الفريق المشار إليه بالمسند إليه (أولئك) عن باقي التائبين بقبول توبتهم (فالمعنى هؤلاء هم الذين جعلهم الله مستحقين قبول التوبة منهم) (٣) إذ خصص المسند إليه بالحكم الذي يحمله المسند ، أي جعل الحكم في المسند خاصاً بالمسند إليه ليميزه عن غيره . ويتضح هذا التخصيص أكثر عند حذف المسند إليه لتكون الجملة : ثم يتوبون من قريب فيتوب الله عليهم . فعند مقارنتها بالأصل نشعر أن وجود المسند إليه قام بدور التخصيص على أكمل وجه .

ومنه قوله تعالى :

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا } (٤) .

وذلك بعد قوله تعالى :

١ - قال السكاكي : وأما الحالة التي تقتضي إثباته فهي أن يكون الخبر عام النسبة إلى كل مسند إليه والمراد تخصيصه بمعين ، كقولك : زيد جاء وعمرو ذهب وخالد في الدار . (المفتاح) ، ص ٨٥ .
وراجعه الخطيب بقوله : فيه نظر لأنه إن قامت قرينة تدل عليه إن حذف فعموم الخبر وإرادة تخصيصه بمعين وحدهما لا يقتضيان ذكره وإلا فيكون ذكره واجباً . (الإيضاح) ، ص ٢٣ .
وأوضح ذلك السبكي بقوله : لعله أراد بالتخصيص ذكر مسند إليه خاص أي معين . وفي موضع آخر قال : أي تخصيص المسند إليه بالمسند . (عروس الأفراح) ضمن شروح التلخيص ، ج ١ ، ص ٢٨٦ . والظاهر أن إرادة التخصيص تعني أن المسند إليه قد تميز عن العموم بالحكم الذي يحمله المسند فتعين به دون غيره والأمثلة الواردة توضح ذلك .

٢ - الآية (١٧) .

٣ - انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ .

٤ - الآية (٥٢) .

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً } (١) .

قال البقاعي : (ولما أنتج ذلك خزيهم قال " أولئك " أي البعداء عن
الحضرات الربانية " الذين لعنهم الله " أي طردهم بجميع ما له من صفات
الكمال طرداً هم جديرون بأن يختصوا به) (٢) مؤكداً على أن ذكر المسند
إليه كان غرضه البلاغي اختصاصه بالمسند .

ومنه قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا
مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجَرُوا فِيهَا
فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } (٣) .

موضع الشاهد قوله تعالى { فأولئك مأواهم جهنم } حيث خص
المسند إليه (أولئك) بهذا الحكم الذي يحمله المسند (مأواهم جهنم) . فمن
مات من أولئك بعد أن قبل الفتنة وارتد فهو كافر ومأواه جهنم على جهة
الخلود ، (وهذا هو ظاهر أمر تلك الجماعة وإن فرضنا فيهم من مات
مؤمناً وأكره على الخروج ، أو مات قبل ذلك فإنما هو عاص في ترك
الهجرة) (٤) .

د - نكر المسند إليه للتعظيم :

هذا الغرض تردد في كتب البلاغة بقصر صفة التعظيم على المسند
إليه فقط ، ولكن بالاستقراء وجدت أن صفة التعظيم لا تخصه وحده بل
تتسحب أحياناً على المسند أو المفعول به وإليك بيان ذلك من الأمثلة
المختارة .

١ - الآية (٥١) .

٢ - انظر (نظم الدرر) ، ج ٥ ، ص ٣٠١ .

٣ - الآية (٩٧) .

٤ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

١ - لتعظيم المسند إليه خاصة :

قال تعالى :

{ فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانكروا الله قياماً وعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً }^(١).

إذا كان العلماء قد اشترطوا في ذكر المسند إليه لغرض بلاغي صحة الجملة بعد حذفه فهذه الآية تمثل ذلك . حيث يمكن أن يكون السياق : فأقيموا الصلاة لأنها كانت على المؤمنين ... أو فهي على المؤمنين أو نحو ذلك . ولكن الأسلوب القرآني أثر ذكر الصلاة للمرة الثالثة في جملة اسمية مؤكدة قال فيها المفسرون أن الأولى في صلاة الخوف والمرض ، والثانية في صلاة الأمن والاستقرار^(٢) ، أما الثالثة فذكرت تعظيماً لشأنها وتأكيداً على أهميتها وأهمية الالتزام بتلك المواقيت التي جعلها الله لها .

ومما جاء فيه الذكر لتعظيم المسند إليه قوله تعالى :

{ ما يفعلُ اللهُ بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان اللهُ شاكراً عليماً }^(٣)

ظهور لفظ الجلالة في قوله تعالى { وكان اللهُ شاكراً عليماً } واتصافه بهذه الصفات مؤكداً عظمة هذا المسند إليه ، وهو أهل له دون شك فهو سبحانه المتجاوز عن سيئاتكم في حالة شكركم وإيمانكم (فالشكر منه سبحانه هو الرضا باليسير من طاعة عباده وأضعاف الثواب بمقابلته وهو العليم بكل شيء من جملتها شكركم وإيمانكم)^(٤) . وهل هناك اسم أحق من لفظ الجلالة بهذه الصفات !؟

١ - جزء من الآية (١٠٣) .

٢ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

وكذا تفسير (روح المعاني) ، ٢م ، ج ٥ ، ص ١٣٨ .

وكذا (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٣٨٤ .

أو أي تفسير شئت .

٣ - الآية (١٤٧) .

٤ - انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج ١ ، ص ٦٠٠ .

ومنه قوله جل شأنه :

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } (١) .

فظهر اسم الإشارة { أولئك سوف يؤتيهم } تعظيماً لشأن هذا المسند إليه ، وقد كان يكفي لو جاء السياق : ولم يفرقوا بين أحد منهم فسوف يؤتيهم أجورهم . ولكن شتان بين هذا وذاك ؛ فذكر المسند إليه تعظيماً وتشريفاً للمنعوتين بهذه النعوت الجليلة (٢) .

٢ - نكر المسند إليه تعظيماً للمسند :

ومنه قوله تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... } (٣) .

أفلا نشعر أن شأن المسند - وهو الأمر - قد عظم بعظمة المسند إليه ، فأمر منه سبحانه لا بد أن يكون عظيماً .

ومثله قوله تعالى :

{ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ... } (٤) .

فذكر المسند إليه أضفى مزيداً من التعظيم على المسند (يبين) ؛

لأن ذلك التبيين لا بد أن يكون أعظم تبين .

١ - الآية (١٥٢) .

٢ - انظر (روح المعاني) للأوسى ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٥ .

٣ - جزء من الآية (٥٨) .

٤ - جزء من الآية (١٧٦) .

٣- ذكر المسند إليه لتعظيم المفعول به :

وذلك مثل قوله تعالى :

{ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } (١) .

فقد استمد المفعول به التعظيم من ذكر المسند إليه ، فكتاب وحكمة وعلم منزل منه سبحانه وتعالى لابد أن يكونوا ذوي شأن عظيم (٢) .

ومنه قوله تعالى :

{ وَرَسُولًا قَدْ قُصَصْنَا هُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصِصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } (٣) .

موضع الشاهد : { كلم الله موسى } ، وهل أعظم منها منة وميزة لنبي الله موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ، إنه كليم الله سبحانه وتعالى . فكان ذكر المسند إليه (الله) تشریفاً وتعظيماً للمفعول به (موسى) ، ودليل ذلك موجود في الآية نفسها حيث قال سبحانه وتعالى { قصصناهم } ولم يقل : قص الله .

هـ - ذكر المسند إليه للتحقير :

ومن أمثلته في سورة النساء قوله تعالى :

{ يَعْذِبُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعْذِبُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } (٤) .

فذكر الشيطان هنا مع إمكان الاستغناء عنه بالضمير لوجوده في

الآية التي قبلها :

١ - جزء من الآية (١١٣) .

٢ - قال أبو السعود : أي القرآن الجامع بين العنوانين ، وقيل المراد بالحكمة السنة ، وعلمك بالوحي من خفيات الأمور .

انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٥٨٣ .

٣ - الآية (١٦٤) .

٤ - جزء من الآية (١٢٠) .

{ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراً مبيناً } (١)

بل بدأت الآية موضع الدراسة بضميره في { يعدهم ويمنيهم } ؛ ولكن تحقيراً له - لعنه الله - ولوعده ولمن اغتروا بهذا الوعد ذكر هذا المسند إليه هنا صراحة لأن الشيطان اسم يحمل المذمة إن كان اشتقاقه من (شطن) أي : تباعد ، وهو قد تباعد عن الحق . وإن كان اشتقاقه من شاط يشيط : أي احترق غضباً ، وهو اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوان (٢) .

ومنه قوله تعالى :

{ أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً } (٣) .

إشارة إلى (من اتخذ الشيطان من دون الله ولياً باعتبار معناه ، وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعد منزلتهم في الخسران) (٤) . فقد جعلوا مثلاً للضلال تروى حكايتهم عبر الأجيال . فهم بعداء من كل خير (٥) . وهذا كاف لتحقيرهم .

ومنه قوله تعالى :

{ أولئك هم الكافرون حقا وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً } (٦) .

فهم بعداء بغضاء لأنهم غارقون في الكفر (٧) . ودليل احتقارهم قرآن يتلى : { وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً } ؛ لأنهم قد كفروا بالله سبحانه وتعالى ورسله ، ويريدون أن يجعلوا الدين تابعاً لأهوائهم المريضة .

١ - جزء من الآية (١١٩) .

٢ - انظر (المفردات) ، مادة (شطن) .

٣ - الآية (١٢١) .

٤ - انظر (روح المعاني) للألوسي ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ١٥١ .

٥ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٤٠٨ .

٦ - الآية (١٥١) .

٧ - انظر (نظم الدرر) ، ج ٥ ، ص ١٥١ .

و - ذكر المسند إليه للتبرك :

مثل قوله تعالى :

{ والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً }^(١) .

(أي : إذا أضمر لكم الأعداء السوء فالله وليكم ويهدىكم ويتولى أموركم شأن الولي مع مولاه)^(٢) . فإعادة المسند إليه وتكراره بهذه الطريقة وفي هذا المقام ما هو إلا تبرك به للنصرة على الأعداء .

ومنه قوله تعالى :

{ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً }^(٣) .

والتبرك في الآية بموضعين : أولهما في قوله تعالى { فاستغفر لهم الرسول } ذكر المسند إليه (الرسول) تبركاً باستغفاره . (ولم يقل المولى : واستغفرت لهم ، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفضيلاً لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعظيماً لاستغفاره ، وتبنيهاً على أن شفاعته من اسمه الرسول من الله بمكان)^(٤) .

٢- الأغراض البلاغية لذكر المسند :

يذكر المسند لأغراض بلاغية كثيرة ، منها ما يتفق فيها مع المسند إليه ، ومنها ما يخصه وحده . ومن تلك الأغراض التي يشترك فيها مع المسند إليه ما يلي :

١ - الآية (٤٥) .

٢ - انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ٧٣ .

٣ - الآية (٦٤) .

٤ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

أ - أنه الأصل ، ولا مقتضى للعدول عنه . مثل قوله تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا } (١) .

على الرغم من إعادة الفعل (يغفر) إلا أنه لا يمكن العدول عنه إلى شيء آخر ، والسبب حاجة المعنى إلى (التفرقة بين الشرك وما دونه بأن الله لا يغفر الأول البتة ويغفر الثاني لمن يشاء) (٢) ، فاختلاف الحكمين في أمر من أهم الأمور العقدية أدى إلى ذكر المسند الثاني .

ومنه قوله تعالى :

{ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا } (٣) .

المسند الذي يعتبر أصلاً ولا يمكن العدول عنه مع تكرار ذكره قوله تعالى (يطع) ، وسبب نزول الآية يوضح ذلك ، (روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : من أحبني فقد أحب الله ، ومن أطاعني فقد أطاع الله . فقال المنافقون : ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل لقد قارف الشرك وهو ينهى أن يُعبدَ غيرَ الله ، ما يريد إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى - عليه الصلاة والسلام - فنزلت . والتعبير عنه - عليه الصلاة والسلام - بالرسول دون الخطاب للإيذان بأن مناط كون طاعته - عليه الصلاة والسلام - طاعة له تعالى ، ليس لخصوصية ذاته - عليه الصلاة والسلام - بل من حيثية رسالته (٤) ، فالتأكيد على أن طاعته هي السبيل إلى طاعة

١ - الآية (٤٨) .

٢ - انظر (روح المعاني) للأوسى ، ٢م ، ج ٥ ، ص ٥٣ .

٣ - الآية (٨٠) .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٥٥ . وكذا (روح المعاني) ، ٢م ، ج ٥ ، ص ٩١ .

والحديث مروى عن : ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان عن معاوية عن الأعمش عن أبي

صالح عن أبي هريرة ، وهو ثابت في الصحيحين .

انظر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

الله أوجب نكر المسند وبصيغة المضارع ليدل على وجوب هذا الأمر في كل زمان ومكان .

ومنه قوله تعالى :

{ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ
أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا }^(١) .

موضع الشاهد في إعادة الفعل المنهي عنه (ولا تتخذوا) ، إذ لا مقتضى للعدول عنه ؛ لأن النهي الأول في حال الشك في كفرهم ، أما في الثاني فذلك بعد التأكد . قال الطبري : (وهذا الخبر من الله جل ثناؤه إيانة عن صحة نفاق الذين اختلف المؤمنون في أمرهم وتحذير لمن دافع عنهم عن المدافعة عنهم)^(٢) ، فهو برهان على نفاقهم ، وتحذير من مخالطتهم ، فودادهم وكل ذلك لا يتأكد إلا بإعادة العامل المنهي عنه لزيادة التقرير والإيضاح والتأكيد .

ب — يذكر المسند لزيادة التقرير والإيضاح والتأكيد . وذلك مثل قوله تعالى في سورة النساء :

{ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا
وَيَصِلُونَ سَعِيرًا }^(٣) .

لا شك أن إعادة المسند (يأكلون) للتأكيد على أن هذا الأكل من أبشع صور الظلم ، ولذلك قرن بصورة موضحة له (أي يأكلون ما يجرحهم إلى النار فكأنه نار في الحقيقة . روي أنه يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة

١ — الآية (٨٩) .

٢ — انظر (جامع البيان) ، م ، ٤ ، ج ، ٥ ، ص ١٢٤ .

٣ — الآية (١٠) .

وهو كثير منه الآية (١٠٢) في قوله تعالى { وليأخذوا حذرهم } و { خذوا حذرکم } .

والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينه فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا (١) .

ومنه قوله تعالى :

{ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } (٢) .

موضع الشاهد : { يألمون كما تألمون } ، وكان يكفي السياق " أنهم كذلك " ، ولكن أعيد المسند لضرورة بلاغية ملحة لا يمكن الاستغناء عنها (فهو تعليل كاف للنهي في أول الآية " ولا تهنوا " ، وتشجيع لهم أي ليس ما تقاسونه من الآلام مختصاً بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم ثم إنهم يصبرون على ذلك فما لكم لا تصبرون مع أنكم أولى به منهم حيث ترجون من الله من إظهار دينكم على سائر الأديان ومن الثواب في الآخرة ما لا يخطر ببالهم (٣) . ومن هنا كان لإعادة المسند (يألمون) مزية التقرير والإيضاح .

ومنه قوله تعالى :

{ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعَلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } (٤) .

جاء الأسلوب (بعطف شهادة الملائكة على شهادة الله سبحانه وتعالى لزيادة تقرير هذه الشهادة بتعدد الشهود ، ولأن شهادة الله مجاز في العلم وشهادة الملائكة حقيقة . وإظهار الفعل (يشهدون) مع وجود حرف العطف للتأكيد (٥) ، ولولا غرض التأكيد والتقرير والإيضاح لكفى السياق

١ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٥١ .

٢ - الآية (١٠٤) .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٨٠ .

وكذا (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ١٣٨ .

٤ - الآية (١٦٦) .

٥ - انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٦ ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

- والملائكة كذلك - ولكن دحراً وإبطالاً لافتراء المنكرين أتى هذا التأكيد الشديد على أن القرآن الكريم منزل من قبله سبحانه وتعالى ، ثم توج بقوله تعالى : { وكفى بالله شهيداً } .

ج - يذكر المسند لاختصاصه بالمسند إليه . ومن ذلك قوله تعالى :

{ لرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلّ منه أو كثر نصيباً مفروضاً } (١) .

فتكرار المسند (للنساء) يثبت أن كل فئة منهم مستحقين لأصل النصيب (٢) وإلا لقل لرجال والنساء نصيب ، ولكن أعيد مع النساء للاعتناء بأمرهن وللايذان بأصالتهن في استحقاق الإرث ، والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبَي الفريقين والمبالغة في إبطال حكم الجاهلية (٣) ، خصوصاً أنها أول ما نزل في ذلك (٤) .

وليس أدل على الاختصاص من قوله عز من قائل :

{ ولله ما في السموات وما في الأرض ... } (٥) .

وقد تكررت كثيراً في القرآن الكريم ، وفي سورة النساء خاصة تأكيداً على تفرد سبحانه في الملك .

ومنه قوله تعالى :

{ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء

شهداء } (٦) .

١ - الآية (٧) .

ومثلها الآية (٣٢) : { للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن .. } .

٢ - انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج ٩ ، ص ١٩٥ .

٣ - انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٨٦ .

٤ - انظر (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٢١٠ .

٥ - انظر الآيتين (١٣١) ، (١٣٢) ، وكذا الآيات (١٢٦) ، (١٣٤) ، (١٧٠) ، (١٧١)

٦ - الآية (٤١) .

لقد أعيد المسند (جئنا) مرة ثانية مع المسند إليه وهو نون العظمة ليدل على اختصاص هذا المسند بالمسند إليه ، فهذا الموقف العظيم في ساحة العرض الكبرى ، كل أمة حاضرة ، وعلى كل أمة شهيد بأعمالها^(١) ، ويجيء الملك الواحد الأحد برسولنا الحبيب شاهداً على الجميع . عمل يختص به سبحانه فهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . أي مشهد هذا ! وأي تكريم للخليل المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - ! ولذا دمعت عيناه الشريفتان عندما تليت عليه هذه الآيات^(٢) .

ومنه قوله تعالى :

{ ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً }^(٣) .

المسند المذكور لغرض التخصيص (أنزل) في قوله تعالى { وما أنزل من قبلك } لقد كان يغني السياق ذكر فعل واحد ليكون " ما أنزل إليك ومن قبلك " ، ولكن شتان بين هذا وذاك ، وأحسب أن ذكره لاختلاف المنزل ، فما أنزل إليك أي : القرآن الكريم ، أما ما أنزل من قبلك أي : إلى موسى عليه السلام فهو التوراة^(٤) ، وكل منهما مختص بنبي وإن كان

١ - انظر (في ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج ٢ ، ص ٣٧٣ .

٢ - انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

أو أي تفسير شئت .

٣ - الآية (٦٠) .

٤ - انظر (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٦٧ .

وقوله تعالى : { ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك } مبني للمفعول وقُرنا مبنيين للفاعل وهو

الله تعالى .

انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج ٢ ، ص ٣٨١ .

مصدرهما واحداً ؛ فهذا الاختصاص أعيد ذكر المسند تأكيداً على تلك
الفروق . والله أعلم وأحكم .

ومنه قوله تعالى :

{ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ
وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
... } (١) .

والاختصاص بين في قوله تعالى : { فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ } ، وكذا
{ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ } .

د — يذكر المسند تنبيهاً على اختلاف الموقف . وذلك مثل قوله تعالى :

{ الَّذِينَ آمَنُوا يقاتلونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يقاتلونَ فِي سَبِيلِ
الطَّاغُوتِ فَقاتلوا أَوْلِياءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً } (٢) .

المسند المذكور بلاغياً إعادة الفعل (يقاتلون) لبيان دافع كل قتال
منهما وذكره كذلك (ترغيباً وتشجيعاً للمؤمنين وإخباراً من الله أنهم إنما
يقاتلون في سبيل الله ، فهو وليهم وناصرهم ، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل
الشيطان فلا ولي لهم إلا الشيطان ، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جانب كيد
الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه) (٣) .

ومنه قوله تعالى :

{ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ
يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُمْ لَوْ لا يُكادونَ
يفقهونَ حديثاً } (٤) .

١ — جزء من الآية (١٤١) .

٢ — الآية (٧٦) .

٣ — انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٨١ .

٤ — جزء من الآية (٧٨) .

الملاحظ أن اختلاف الموقف أدى إلى ذكر المسند مرتين لتدل كل منهما على حادثة معينة في وقت مختلف وهو تعريض بهم وتبنيه على سخفهم ، لذلك ساغ التكرار لإبراز ضلالهم بأوضح ما يكون ؛ لأن الأمر كله من عند الله دون منازع .

ومنه قوله تعالى :

{ ورفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقَلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقَلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا }^(١) .

المسند المقصود (قلنا) ، وتكراره كما هو واضح لاختلاف زمن وموقف القول أو لتعداد مواطن عصيانهم ، وهي : " رفع الطور ، والأمر بقتال أهل أريحا ، ودخولهم بابها سُجَّدًا ، وتحريم صيد البحر عليهم في السبت " ^(٢) ، أو إنها مواقف مختلفة في أزمنة مختلفة وربما لجبل مختلف ^(٣) .

ومنه قوله تعالى :

{ وَلَاضَلَّوهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْئِيْنَهُمْ فَلْيُبَيِّنَنَّ اٰذَانَ الْاَنْعَامِ وَلَا مَرْئِيْنَهُمْ فَاَيُّغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّٰهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطٰنَ وٰلِيًّا مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرٰنًا مُّبِيْنًا }^(٤) .

١ - الآية (١٥٤) .

٢ - انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٦ ، ص ١٧ ، ١٨ .

٣ - قال ابن عطية : (الطور) الجبل اسم جنس ، هذا قول ، وقيل (الطور) : كل جبل غير منبث وبالشام جبل قد عرف بالطور ولزمه الاسم ، وهو طور سيناء ، وليس بالمرفوع على بني إسرائيل ، لأن رفع الجبل كان فيما يلي فحص التيه من ديار مصر ، وهم ناهضون مع موسى عليه السلام ، وقوله { وقلنا لهم ادخلوا الباب سُجَّدًا } : هو باب في بيت المقدس المعروف بباب حطة ، وقوله : { وقلنا لهم لا تعدوا في السبت } أي : على الحيطان وفي سائر الأعمال ، وهؤلاء كانوا بأئمة من ساحل البحر ، فأمروا (بالسكون عن كل شغل في يوم السبت فلم يفعلوا) .

انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

٤ - الآية (١١٩) .

في إعادة المسند (ولأمرنهم) ؛ لما لهذا العمل من أثر كبير على ولد آدم في الدنيا والآخرة .

هـ - ذكر المسند لإرادة التجديد أو الثبوت .

من المعروف بلاغياً أن الفعل يفيد التجدد لأنه مرتبط بزمن والأزمنة تتغير ، أما الاسم فهو ثابت على الدوام ، وعليه فإذا ذكر الحدث في صيغة الفعل اكتسب معنى التجدد وإذا ذكر في صيغة الاسم دل على الثبوت^(١) . والفرق بينهما يظهر في أثر كل منهما على السياق . تأمل قوله تعالى :

{ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا }^(٢) .

الآية تتحدث عن عفو الله جل جلاله عن أناس مستضعفين استثنوا من فئة أخبر عنهم أنهم باعوا بأسوأ مصير ، فهم في جهنم - أعادنا الله منها^(٣) - . وحالهم هذا يتجدد مع غيرهم في كل زمان ومكان ودائماً يقترن معه تجدد عفو الله سبحانه ، وما هذا التجدد في العفو إلا صفة ثابتة له جل شأنه وهو أنه (عفو) فمع الفعل ناسب التجدد ومع الاسم ناسب الثبوت .

١ - انظر (دلائل الإعجاز) ، ص ١٤٢ وما بعدها .

٢ - الآية (٩٩) .

ومنه قوله تعالى : { وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } ، (١٠٦) .

ومنه قوله تعالى : { وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن

كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا } ، (١٠٧) .

ومنه قوله تعالى : { وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ

غَفُورًا رَحِيمًا } ، (١١٠) .

٣ - جاءت آية الدراسة في رحاب القول الكريم :

{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ

فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ

مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا

يَهْتَدُونَ سَبِيلًا } ، (٩٧ - ٩٨) .

وقد جيء بكلمة الإطماع^(١) (عسى) حتى لا يُوجِبَ شيءٌ على الله . فالعفو بمشيئته سبحانه وإن كان صفة الله الثابتة ، ولهذا قرُن في الآية الكريمة بصفة اسمية أخرى وهي لفظ (غفور) ليدل على أن هذا شأن الله وصفته على الدوام .

ومنه قوله تعالى :

{ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نشوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صِلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً }^(٢) .

فالتجدد ظاهر في قوله { أن يصلحا } ، وهي صيغة تقتضيها طبيعة البشر ، ففي ظروف الحياة تتجدد الخلافات ويتطلب ذلك تجديد الصلح ، وما ذلك إلا لأن الصلح خير ، وهذه صفة ثابتة للمجتمع الإسلامي .

وأيضاً قد يلحظ جمال التفاوت بين الفعل والاسم في الآية الكريمة :

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً }^(٣) .

فالمنافقون يدينهم أن يخادعوا الله بإظهار الإيمان وإيطان الكفر لهذا جاءت صيغة الفعل في الزمن المضارع ؛ لتدل على التجدد الدائم طوال حياتهم وعبر الأجيال إلى أن تقوم الساعة ، (والله فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع ، حيث يتركهم في الدنيا معصومي الدماء والأموال ، وأعد لهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار)^(٤) - والعياذ بالله - فكان خداعه لهم على جهة الدوام والثبوت ، ولهذا كان التعبير في جانبه سبحانه بالاسم (خادعهم) .

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٧٥ .

٢ - الآية (١٢٨) .

٣ - الآية (١٤٢) .

٤ - انظر تفسير أبو السعود ، ج ١ ، ص ٥٩٨ .

و — ويذكر المسند استئناساً للقول وتبركاً به. في مثل قوله تعالى :

{ وَمَا لَكُمْ لَا تقاتلونَ فِي سبيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالوُلدانِ الَّذِينَ يَقولونَ رَبَّنَا أَخْرِجنا مِنْ هَذِهِ القِريَةِ الظالِمِ أهلُها واجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وِلياً واجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصيراً } (١) .

موضع الشاهد قوله تعالى : { واجعل لنا من لَدُنْكَ ولياً واجعل لنا من لَدُنْكَ نصيراً } ، في إعادة الفعل (اجعل) مع النصير بعد ذكره مع الولي ، وقد جُمعا في غير هذا الموقف كثيراً مثل قوله تعالى :

{ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلياً وَلَا نَصيراً } (٢) ،

وقوله تعالى :

{ مَنْ يَعْمَلْ سِوَأَ سِوَأٍ يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وِلياً وَلَا نَصيراً } (٣) .

وعلة تكرار المسند في شاهدنا تكمن في الموقف الشعوري الذي يغمر المتضرع إلى الله بطلب النجدة يريد أن يُفصّل ويطيل و يعيد ويكرر ليفرغ ما بداخله من طاقة شعورية تدعوه إلى بسط الكلام و إطالته (٤) . كما أن فيه إشارة خفية إلى استحباب ذلك لأن الله يحب عبده المُلح .

ومنه قوله تعالى :

{ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً وَكَلَّمَ اللَّهُ الحُسَني وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِماً } (٥) .

في إعادة المسند (فضل) مسند إلى أعظم اسم تبركاً واستئناساً لهذا العمل العظيم وتأكيداً على بعد منزلته عند الله سبحانه وتعالى .

١ — الآية (٧٥) .

٢ — جزء من الآية (٨٩) .

٣ — جزء من الآية (١٢٣) .

٤ — انظر (البلاغة فنونها وأفنانها) للدكتور فضل حسن عباس ، ج ١ ، ص ٢٥٦ .

٥ — الآية (٩٥) .

وقريب منه قوله تعالى :

{ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغماً كَثِيراً وَسِعَةً
وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مَهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ
أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفوراً رَحِيماً }^(١) .

والجزء المذكور استئناساً في قوله تعالى { ومن يخرج من بيته مهاجراً } ذكر للاستئناس بحالة شعورية عظيمة حيث يضحي فيها المؤمن بأعز ما لديه (البيت) وكل ما يعبر عنه من الراحة والدعة والمودة والرحمة والأنس بالأهل والولد ، كل ذلك يتركه المؤمن في سبيل ربه ؛ لذلك يقع أجره على الله ، فلتصوير هذه الحالة أعيد فيها لفظ (مهاجراً) مع إمكانية الاستغناء عنه لولا هدفه البلاغي حيث يكمل السياق في التركيب لو قيل " ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يدركه الموت فقد وقع أجره على الله " لكن شتان بين هذا وذاك .

ومنه قوله تعالى :

{ لَكِنَّ الرَّاَسْخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ
وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً }^(٢) .

فقد ذكر فيها المسند (يؤمنون) استئناساً بهذا اللفظ ودليلاً على التجديد والدوام ، أي أن الإيمان يتجدد مع كل دليل يرشد إلى الله سبحانه وتعالى ، وكان يمكن الاستغناء عنه بمثل " لكن الراسخون في العلم والمؤمنون بما أنزل إليك " . ولكنها لفظة حبيبة يحبها الرحمن لذا كررت حتى آخر الآية { والمؤمنون بالله واليوم الآخر } .

١ - الآية (١٠٠) .

٢ - الآية (١٦٢) .

٣- الأعراض البلاغية لذكر متعلقات الفعل :

ومن أمثلة ذكر متعلقات الفعل قوله عز وجل :

{ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا }^(١) .

المتعلق الذي أقصده هنا كلمة (عند) ذكر تأكيداً على النفي الذي دللت عليه (غير) وقد كان يمكن الاستغناء عنه لولا ذلك ، فالآية جعلت تدبر القرآن يفضي إلى اليقين التام بصدق مخبره - صلى الله عليه وسلم - ، فإذا كان كله قائماً على (بلاغة معجزة فائقة لقوى البلغاء ، وتتاصر صحة معان وصدق إخبار ، علم أنه ليس إلا من عند قادرٍ على ما لا يقدر عليه غيره ، عالم بما لا يعلمه أحد سواه)^(٢) . وفي هذا تصديق بنبوته - صلى الله عليه وسلم - .

ومنه قوله تعالى :

{ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا }^(٣) .

١ - الآية (٨٢) .

٢ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

وكذا (البحر المحيط) ، وقال أن المضمرة في (فيه) عائد على القرآن وهذا في علم البيان

الاحتجاج النظري أو المذهب الكلامي ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ .

وكذا (التفسير الكبير) ، ج ١٠ ، ص ١٩٦ .

وكذا (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ٨٤ .

وكذا (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٩٢ .

٣ - الآية (١٠٢) .

تردد ذكر عدة كلمات في هذه الآية الكريمة منه كلمة (معك) ذكر مع الطائفتين { فلتقم طائفة منهم معك } وكذا { ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك } ، وذكره مرتين بغرض التنصيص على استمرار صلاة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام مع الطائفتين في صلاة واحدة له^(١) وذلك إيراداً لقيمة صلاته صلى الله عليه وسلم ، لأن الصلاة بإمامته لا عوض عنها مع غيره خصوصاً في مثل تلك المواقف العصبية التي تُصلى فيها صلاة الخوف .

ومنه لفظ (الحذر) في قوله تعالى : { وليأخذوا حذرهم } ، وقوله عز وجل : { وخذوا حذرکم } ، وهذا الذكر جاء ليبدل على أهمية اليقظة والحيطنة وعدم التواكل حتى ولو كان العبد مشغولاً بالعبادات أو في حالة مرض أو أذى .

ومنه قوله تعالى :

{ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً }^(٢) .

المتعلق الذي يعنيني هنا هو القول الكريم { لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء } أي لا منسوبين إلى المؤمنين ولا منسوبين إلى الكافرين (أو لا صائرين إلى الأولين ولا إلى الآخرين ، ومحله النصب على الحال من ضمير مذبذبين)^(٣) ، وكلمة مذبذبين تعطي نفس المعنى ولكن زيادة في إيراد صورة ضياعهم وحيرتهم وترددهم أتى هذا المقطع ليرسم مشهد الركض بين الفريقين على غير هدى ثابت وهذا أبلغ في التفطيع^(٤) .

١ - انظر صفة صلاة الخوف في أي تفسير على سبيل المثال (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ١٠٥ . وفي قوله : { خذوا حذرکم } استعارة مكنية حيث شبه هذا الشيء المعنوي بشيء حسي يمكن أخذه .

٢ - الآية (١٤٣) .

٣ - انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٩٨ .

٤ - انظر (روح المعاني) ، م ١ ، ج ٥ ، ص ١٧٧ .

المبحث الثاني

الجملة الإنشائية

- المطلب الأول: الاستفهام.
- المطلب الثاني: الأمر.
- المطلب الثالث: النهي.
- المطلب الرابع: التمني.
- المطلب الخامس: النداء.

المبحث الثاني : الجملة الإنشائية .

مدخل :

الإنشاء لغة : الخلق والابتداع . قال تعالى في كتابه الكريم :
 { هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ }^(١) .
 وأنشأ الله الخلقَ أي : ابتدأ خلقَهُم^(٢) ، وفي التنزيل العزيز :
 { وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى ... }^(٣) .

وقال تعالى :

{ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ... }^(٤) .

ومن معاني الكلمة : الوضع والبناء والإتيان بجديد^(٥) .

أمّا اصطلاحاً فهو : الكلام الذي ليس له وجود خارجي قبل النطق به
 ليقاس عليه صدقه أو كذبه ، فيكون بهذا نقيض الخبر .

وصُنِّفَ حسب مفاده إلى نوعين : طلبي وغير طلبي . وما يهمنا
 في الدرس البلاغي هو النوع الأول ، فالإنشاء الطلبي هو : ما يستدعي
 مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ، ويضم عند البلاغيين الأنواع الآتية :
 الاستفهام ، والأمر ، والنهي ، والتمني ، والنداء^(٦) .

١ - جزء من الآية (٩٨) ، سورة الأنعام .

٢ - قال الراغب الأصفهاني : النشءُ والنشأةُ إحداث الشيء وتربيته . مادة (نشأ) .

٣ - جزء من الآية (٦٢) ، سورة الواقعة .

٤ - جزء من الآية (٢٣) ، سورة الملك .

٥ - انظر (لسان العرب) ، مادة (نشأ) .

٦ - قلنا أهمها لأن العرض والتحضيض من أنواع الإنشاء الطلبي لكن الأنواع الخمسة المذكورة
 أكثر استعمالاً وحملًا لثتى الدلالات واللطائف البلاغية ولذلك قصر البلاغيون الحديث عليها .

انظر (شروح التلخيص) ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ وما بعدها .

المطلب الأول : الاستفهام .

الاستفهام لغة : طلب الفهم^(١) . واصطلاحاً : طلب معرفة شيء لم يكن معروفاً من قبل بواسطة إحدى أدواته الإحدى عشرة ، فيكون الاستفهام هو : السؤال عن حقيقة أمر أو عمل في معناه الحقيقي أو لغرض آخر يترجمه السياق في معناه البلاغي . وستقف الدراسة على ما هو موجود من أدواته في سورة النساء .

أولاً : الهمزة .

وهي رأس الأدوات وصدر الصيغ الاستفهامية ، ومن أجل ذلك اختصت بالدلالة على معنى الاستفهام^(٢) : التصور والتصديق . والتصور هو إدراك المفرد ، أي الاستفهام عن المسند إليه أو عن المسند أو أي معمول من معمولات الجملة يستفهم عنه وحده ، وهذا هو التصور المفرد . ومثال تصور المسند إليه : " أمحمد حضر أو أحمد ؟ " والإجابة بتعيين أحدهما . ومثال تصور المسند : " أطبيب محمد أم ممرض ؟ " فيجاب بتعيين مسند واحد .

أما التصديق فهو طلب إدراك نسبة حكم المسند إلى المسند إليه ، أي سؤال عن علاقة الإسناد في الجملة أثابتة أم منفية ، ولذا يجاب عليها بـ (نعم) في حالة الإثبات ، وبـ (لا) في حالة النفي ، ولا تحتاج إلى معادل ، وإن جاءت (أم) بعدها فهي منقطعة بمعنى (بل) . ومثال

١ - في اللسان : استفهمه : سأله أن يفهمه . وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيماً . مادة (فهم) .

٢ - أدوات الاستفهام على ثلاثة أقسام :

أ - ما يطلب له التصور تارة والتصديق أخرى . وهو : الهمزة .

ب - ما يطلب به التصديق فقط . وهو : هل .

ج - ما يطلب به التصور فقط . وهي بقية أدوات الاستفهام .

انظر (مفتاح العلوم) ، ص ١٤٨ وما بعدها .

التصديق بالهمزة : " أحضر المدير ؟ " للاستفهام عن ثبوت نسبة الحضور للمدير أو نفيها عنه ، وكذا إن قلنا : " هل حضر المدير ؟ " . والإجابة عن كلا السؤالين بنعم أو لا^(١) .

والمسؤول عنه بالهمزة هو الذي يليها مباشرة . قال الإمام عبد القاهر - رحمه الله - : (فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت : " أفعلت ؟ " فبدأت بالفعل ، كان الشك في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده . وإذا قلت " أنت فعلت ؟ " فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه)^(٢) . وبالمثل عند سؤالك عن المفعول تقدمه أو أي معمول من المعمولات تجعله يلي الهمزة مباشرة .

ولا بد لهذه الهمزة من معادل في المعنى ، إن كان مذكوراً فنعمت وإلا فلا بد من تقديره .

وقد وردت همزة الاستفهام في سورة النساء بمعنى واحد وهو التصديق ، وخرجت من معناها الحقيقي إلى معان بلاغية رائعة تحاول الدراسة الوقوف عليها واستجلاءها بعون الله وتوفيقه . من ذلك قوله تعالى :

{ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَتَانًا وَإِثْمًا مَبِينًا }^(٣) .

الآية تتحدث عن موقف من أصعب المواقف المؤلمة في حياة المرأة ولذا أتى الاستفهام في قوله تعالى (أتأخذونه) استنكاراً وتشنيعاً^(٤) لهذا السلوك المستبعد حصوله من المؤمنين .

١ - انظر (مفتاح العلوم) ، ص ١٤٨ وما بعدها .

٢ - انظر (دلائل الإعجاز) ، ص ١١١ .

٣ - الآية (٢٠) .

٤ - انظر (من هدي سورة النساء) لحنان لحام ، ص ٨٧ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٠٠ .

وقد أزر هذا الاستفهام الإنكاري استفهام آخر لنفس الغرض في الآية التي تليها في قوله تعالى :

{ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً } (١) .

قال الرازي فيه : (استفهام على معنى الإنكار والإعظام ، والمعنى أن الظاهر أنكم لا تفعلون مثل هذا الفعل مع ظهور قبجه في الشرع والعقل) (٢) . لأنه أبشع ما تكون عليه الخسة واللؤم الذي يجب أن يترفع عنه المسلمون .

ومما أتت فيه الهمزة للإنكار قوله تعالى :

{ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً } (٣) .

ينكر المولى عز وجل على عباده غفلتهم عن القرآن وهو صلاح دنياهم وآخرتهم . قال أبو حيان : (وهذا استفهام معناه الإنكار أي فلا يتأملون ما نزل عليك من الوحي ولا يعرضون عنه ، فإنه في تدبره يظهر برهانه ، ويسطع نوره ، ولا يظهر ذلك لمن أعرض عنه ولم يتأمله) (٤) ، بل يحمل مع الإنكار معنى أشد لذعاً وهو (التوبيخ والتعجب منهم في استمرار جهلهم مع توفر أسباب التدبر لديهم) (٥) ، كما يحمل لعامة الأمة الحض على هذا الفعل الذي به صلاح الدنيا والآخرة .
ومن هذا القبيل قوله تعالى :

١ - الآية (٢١) .

٢ - انظر (التفسير الكبير) ، ج ١٠ ، ص ١٥ .

٣ - الآية (٨٢) .

٤ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ .

٥ - انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ١٣٧ .

{ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنونَ عندهم العزةَ فإن العزةَ لله جميعاً } (١) .

الاستفهام في (أيتنون) يطلب صدق نسبة هذا الحكم لهذه الفئة التي تطلب العزة عند غير الله واتجه المعنى فيه إلى إنكار عملهم هذا وإبطال ما فيه ، وبيان خيبة رجائهم وقطع أطماعهم الفارغة (٢) .
ومثله تماماً قوله تعالى :

{ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً } (٣) .

قال فيها أبو السعود : (أي أتريدون بذلك أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة على أنكم منافقون ؟ فإن موالاتهم أوضح أدلة النفاق) (٤) .
ثم جعل الاستفهام مسلطاً على استنكار إرادة الجعل مبالغة في تهويل (٥) هذا الأمر للتغيير منه ؛ لما فيه من الضرر الشنيع على الإسلام ومسخ هوية المسلم .

وقد يأتي معنى الإنكار مع حذف همزة الاستفهام مثل قوله تعالى :

{ أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً } (٦) .

بدأت الآيتين بـ (أم) التي هي منقطة للإضراب بمعنى (بل) ولكن أخفت معها معنى الاستفهام محذوفة أي : ألهم نصيب من الملك فلا

١ - الآية (١٣٩) .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٩٦ .
وكذا (روح المعاني) م ٢ ، ج ٥ ، ص ١٧٢ .

٣ - الآية (١٤٤) .

٤ - انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٥٩٩ .

٥ - انظر المرجع السابق .

٦ - الآيتين (٥٣) ، (٥٤) .

يؤتون الناس نقيراً ، فهو إنكاري حكمه حكم النفي أي : ليس لهم شيء من الملك البتة^(١) . والعطف بـ (الفاء) على جملة (لهم نصيب) وكذلك (إذا) جعل الاستفهام داخلاً على مجموع الجملة وجزائها معاً ، لأنهم ينتفي إعطاؤهم الناس نقيراً على تقدير ثبوت الملك لهم لا على انتفائه وهذا الكلام تهكم على اليهود في انتظارهم أن يرجع إليهم ملك بني إسرائيل . وتسجيل للبخل عليهم^(٢) .

وكما أنكر عليهم الله سبحانه البخل كذلك أنكر عليهم الحسد بنفي الأسلوب في قوله تعالى : { أم يحسدون الناس } والتقدير : بل يحسدون الناس^(٣) ، ودلت الهمزة المحذوفة هنا أيضاً على (الاستفهام الذي يصحبه الإنكار)^(٤) .

وقد أنكر المولى عز وجل بهاتين الآيتين خصلتين نميمتين لو ابتلى بهما أحد لباء بغضب الله أعاننا الله من هذا المصير .

ومن معاني الهمزة البلاغية : التقرير الموصل إلى التعجب وقد تكرر في سورة النساء ومنه قوله تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ }^(٥) .

دخل حرف الاستفهام على النفي (لم) وبهذا تكون الإجابة بالإثبات في هذا المقام أي : بلى رأيت . والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المؤمنين^(٦) .

١ - انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج ١٠ ، ص ١٣٠ .

٢ - انظر (التحرير والتوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ٨٨ .

٣ - انظر (التفسير الكبير) ، ج ١٠ ، ص ١٣٢ .

٤ - انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ .

٥ - الآية (٤٤) .

٦ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٢٦ .

وكذا (روح المعاني) للأكوسي ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ١١٠ .

والغرض من هذا الاستفهام مع التقرير التعجب من حالهم التي بلغت درجة كبيرة من الشناعة^(١) . ومنه قوله تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا }^(٢) .

دخل في زمرة من يزكون أنفسهم أهل الكتاب دخولاً منطقياً لما عرف عنهم من تأصل هذه الخصلة الذميمة فيهم ثم ينسحب الحكم على كل من حدا حذوهم وقد امتزجت فيه معاني بلاغية كثيرة من أهمها التقرير للرؤية والتعجب والتفكير من هذا الخلق وغير هذا .
ومثله قوله تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا }^(٣) .
وكذا قوله :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا }^(٤) .

وما ظني في هذا التكرار إلا لأن أهل الكتاب أشتهروا بهذه المخازي فصارت حكايات تروى عنهم وهم أحقاء بأن يكونوا عبرة لمن يعتبر .

وكذا (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ٧٩ .

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٢٦ .

٢ - الآية (٤٩) .

٣ - الآية (٥١) .

٤ - الآية (٦٠) .

ومما جاء للتقرير فقط قول الله تعالى على لسان المنافقين :

{ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ... } ، جزء من الآية (١٤١) .

قال ابن عاشور : الاستفهام تقريرى .

انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ٢٣٧ .

ثانياً : كيف .

ويطلب بها تعيين الحال وهو نوع من طلب تصور المفرد . وقد وردت في سورة النساء المباركة في ثلاثة مواضع أولها قوله تعالى :

{ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً } (١) .

وقد خرج معنى الاستفهام عن الحال إلى معنى بلاغي قرره السياق وهو التعجب من استرداد مهر المطلقة بعد معاشرتها ، (أي : لأي وجه ولأي معنى تفعلون هذا ؟ فإنها بذلت نفسها لك ، وجعلت ذاتها لذاتك وتمتعك ، وحصلت الألفة التامة والمودة الكاملة بينكما ، فكيف يليق بالعاقل أن يسترد منها شيئاً بذله لها بطيبة نفسه؟! إن هذا لا يليق البتة بمن له طبع سليم وذوق مستقيم) (٢) . ولا شك أن التعجب بهذه اللهجة الشديدة يحمل مغزى تربوياً عظيماً .

ثاني مواضع كيف في سورتنا المباركة قوله تعالى :

{ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً } (٣) .

السؤال بكيف هنا عن الحال المتوقعة في ذلك الموقف العظيم ، والله سبحانه وتعالى أعلم به ، ولكن القرآن يخاطب العرب بما اعتادته في لغتها ، فقد كان (من عادة العرب أنهم يقولون في الشيء الذي يتوقعونه: كيف بك إذا كان كذا وكذا ، وإذا فعل فلان كذا ، وإذا جاء وقت كذا ؟ ليثير هذا السؤال صوراً كثيرة واحتمالات شتى ، فمعنى الكلام : كيف ترون يوم

١ - الآية (٢١) .

٢ - انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج ١٠ ، ص ١٧ .

٣ - الآية (٤١) .

القيامة إذا استشهد الله على كل أمة برسولها ، واستشهدك على هؤلاء .
يعني بني قومه المخاطبين بالقرآن (١) .

والسؤال في معناه الحقيقي (أي : كيف حال كل أولئك إذا جاء
الشهداء وظهر موجب الشهادة على العمل الصالح وعلى العمل السيئ) (٢) ،
ولكن هذه الحال في علم الغيب ، ومهما اتسع الخيال لا يمكن تصورها بما
هي عليه ؛ لذا فهي تحمل معنى الدهشة والتعجب والتهويل المصاحب لهذا
الموقف العظيم الذي (يؤذن بحالة مهولة للمشركين وتنادي على حيرتهم
ومحاولتهم التملص من العقاب بسلوك طريق الإنكار أن يكونوا أنذروا مما
دل على مجيء شهيد عليهم) (٣) .

ثالث المواضع قوله تعالى :

{ فكيف إذا أصابَتْهُمْ مصيبةٌ بما قدَّمَتْ أيديهم ثمَّ جاءوك يحلفون
بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً } (٤) .

صورت (كيف) حالة عجزهم التام عند مفاجأتهم بالمصيبة ، أي
(كيف يكون حالهم وكيف يصنعون) (٥) . كما جعلها أبو حيان (وعيداً لهم
على فعلهم وأنهم سيندمون عليه عند حلول بأس الله حين لا ينفعهم الندم ولا
يغني عنهم الاعتذار) (٦) . ولكن (كيف) أخرجت هذا الوعيد إلى
التهويل (٧) كما تقدم في :

١ - انظر (التفسير الكبير) ، ج ١٠ ، ص ١٠٦ .

٢ - انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ٥٦ .

٣ - المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٧٦ .

٤ - الآية (٦٢) .

٥ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٧٦ .

٦ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٢٨١ .

٧ - انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ١٠٧ .

{ فكيف إذا جننا من كل أمة بشهيد وجننا بك على هؤلاء
شهداء } (١) .

ثالثاً : ما .

يستفهم بها عن الجنس . تقول : ما عندك ؟ بمعنى : أي أجناس
الأشياء عندك ؟ وجوابه بتعيين جنس ذلك ، فتقول مثلاً : كتابٌ ، أو طعامٌ
ونحو ذلك . كما يستفهم بها عن الوصف . تقول : ما زيدٌ وما عمرٌ ؟
وجوابه : الكريم أو الفاضل وما شاكل ذلك (٢) . وفي كلا الحالين هو سؤال
عن تصور المفرد . وقد ورد الاستفهام بـ (ما) في هذه السورة في عدة
مواضع منها قوله تعالى :

{ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله
وكان الله بهم عليماً } (٣) .

الاستفهام الوارد في الآية في (ماذا) (٤) يحتمل أن تكون كلها اسم
استفهام والخبر شبه جملة (عليهم) ، ويحتمل أن تكون (ما) استفهاماً و
(ذا) بمعنى الذي وهو الخبر ، و (عليهم) صلة . قال هذا أبو حيان ،
وفي كلا التقديرين فإن (ما) اسم استفهام يطلب تصور المفرد ، وخرج
إلى معنى الاستتكار والتوبيخ والتعجب (٥) من أناس كان بمقدورهم أن
يكسبوا رضا الله وعفوه بإنفاق أموالهم في سبيله بعد إيمانهم بالله واليوم
الآخر (٦) ، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى .

ومن مواضعه أيضاً قوله تعالى :

١ - الآية (٤١) .

٢ - انظر (مفتاح العلوم) ، ص ١٤٩ .

٣ - الآية (٣٩) .

٤ - راجع (مغني اللبيب) فقد فصل في (ماذا) تفصيلاً دقيقاً ، ج ١ ، ص ٣٠٠ وما بعدها .

٥ - انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ٥٤ .

٦ - بدليل الآية السابقة عليها (٣٨) .

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ
أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (١) .

الاستفهام بـ (ما) فيه إنكار شديد منه سبحانه وتعالى لتركهم
القتال ، وكأنه تأكيد على ما تقدم من الأمر بالجهاد في قوله تعالى :

﴿ فليقاتل في سبيلِ الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ... ﴾ (٢) .

أي (لا شيء لكم في حال لا تقاتلون ، والمراد أن الذي هو لكم هو
أن تقاتلوا . فهو بمنزلة أمر ، أي : قاتلوا في سبيل الله لا يصدكم شيء عن
القتال) (٣) ، فحمل هذا اللفظ الكنائي الاستفهام والإنكار والتعجب والأمر ،
وهو من الأساليب العجيبة في القرآن الكريم .

ومما جاء على شاكلته قوله تعالى :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ
تَصَبَّهْمُ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تَصَبَّهْمُ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ
عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
حَدِيثًا ﴾ (٤) .

الاستفهام في قوله تعالى : (فمال) استفهام يحمل التعجب والإنكار
لعمل هذه الفئة ، حيث نسبوا السيئة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - .
هذا النوع من الاستفهام يتضمن إنكار ما استفهم عن علته وأنه ينبغي أن
يوجد مقابله (٥) ، أي الواجب عليه أن يدربوا عقولهم على تفهم علل الأشياء
حتى تكون تصرفاتهم أقرب إلى الصواب .

١ - الآية (٧٥) .

٢ - جزء من الآية (٧٤) .

٣ - انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ١٢٢ .

٤ - الآية (٧٨) .

٥ - انظر (الدر اللقيط) على هامش (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٣٠٠ .

وقد يجمع الاستفهام بين الإنكار والتوبيخ والنفي ، وخير ما يمثله قوله تعالى :

{ فما لكم في المنافقين فنتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً }^(١) .

قال أبو السعود فيه : (فما لكم مبتدأ وخبر ، والاستفهام للإنكار والنفي ، والخطاب لجميع المؤمنين ؛ لكن ما فيه من معنى التوبيخ متوجه إلى بعضهم والمراد إنكار أن يكون للمخاطبين شيء مصحح لاختلافهم في أمر المنافقين)^(٢) ، فهم كفار لا ريب ، بل أشد الناس عذاباً بدليل الاستفهام الثاني في الآية : { أتريدون أن تهدوا من أضل الله } ، وفي هذا تأكيد شديد على التوبيخ لتتبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي الجواب^(٣) .

ومما جاء للنفي خاصة قوله تعالى :

{ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً }^(٤)

حمل هذا الاستفهام معنى نفي الحكم (أي : ما يعذبكم إن شكرتم وآمنتم ، والمعنى أنه لا منفعة له في ذلك ولا حاجة)^(٥) .

وقد تأتي (ما) الاستفهامية مجرورة بحرف وهنا يجب حذف ألفها ، وعلة الحذف التفريق بين الاستفهام والخبر ، وتحرك بالفتح للدلالة على الألف المحذوفة^(٦) . ومنه قوله تعالى :

١ - الآية (٨٨) .

٢ - انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٥٦١ .

٣ - انظر (دلائل الإعجاز) ، ص ١١٩ .

٤ - الآية (١٤٧) .

٥ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٨١ .

٦ - انظر (مغني اللبيب عن كتب الأعراب) ، ج ١ ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا
مستضعفينَ في الأرض ... } (١) .

الاستفهام في (فيم) أي (في أي شيء كنتم من أمور دينكم) (٢) ،
وهو تقرير وتوبيخ ، فالتقرير ليصور حالهم عند الوفاة بأنهم ظالمي أنفسهم
لعدم هجرتهم فارين بدينهم ، والتوبيخ على تفریطهم في هذا الأمر الذي كان
بمقدورهم وهو تخليص أنفسهم به من غضب الجبار ، ولكنهم لم يفعلوا
فاستحقوا سوء المصير ، واعتذارهم الذي ذكروه غير مقبول (٣) .

وقد علق الزمخشري على هذا الاستفهام بقوله : (فإن قلت كيف
صحّ وقوع قولهم { كنا مستضعفين في الأرض } جواباً عن قولهم { فيم
كنتم } ؟ وكان حق الجواب أن يقولوا كنا في كذا أو لم نكن في شيء
(قلت) معنى فيم كنتم ؟ التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين حيث
قدروا على الهجرة ولم يهاجروا) (٤) .

رابعاً : مَنْ .

ويطلب بها أحد العقلاء (٥) ، وتعيين العاقل يحصل بالعلم ، أي بذكر
اسم المسؤول عنه ، كقولنا في جواب : مَنْ هذا ؟ هذا محمد أو علي مثلاً ،
كما يحصل بالصفة ، أي بذكر صفة من صفات المسؤول عنه ، كقولنا في
جواب السؤال السابق : مَنْ هذا ؟ هذا معلم أو طبيب أو صديق . ولذلك
فهي لتصور المفرد باسمه أو صفته . ومثاله من سورة النساء قوله تعالى :

١ - الآية (٩٧) .

٢ - انظر (روح المعاني) ، ٢م ، ٥ج ، ص ١٢٥ .

وكذا أبو السعود ، ج ١ ، ص ٥٧٣ .

٣ - انظر (المحرر والوجيز) ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .

٤ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

٥ - انظر (مفتاح العلوم) ، ص ١٤٩ وما بعدها .

{ اللهُ لا إلهَ إلا هوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يومِ القِيامَةِ لا ريبَ فيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا } (١) .

قال فيه بعض المفسرين : (الاستفهام إنكاري ، والمعنى لا أحد أكثر صدقاً منه تعالى في وعده وسائر أخباره ، ويفيد أيضاً نفي المساواة) (٢) مطلقاً .

وما جاء فيه الاستفهام لغرض مشترك بين الإنكار والتوبيخ قوله تعالى :

{ ما أنتم هؤلاءِ جادلتمُ عنهم في الحياةِ الدنيا فمن يُجادِلِ اللهُ عنهم يومَ القِيامَةِ أم من يكونُ عليهمُ وكيلًا } (٣) .

فقد اشتمل على الإنكار والتوبيخ معاً (أي : فمن يخاصم ويجادل الله عنهم يوم القيامة عند تعذيبهم بذنوبهم) (٤) ، وهو درس عظيم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم لأخذ الحيلة والحذر من موالاته الكفار . وقد تكرر في الآية لزيادة التأكيد على هذا الهدف .

ومنه قوله تعالى :

{ والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سندخلُهُم جَنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدِينَ فيها أبداً وَعَدَّ اللهُ حقاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً } (٥) .

استفهام تقريرى (٦) لما وعد الله به عباده المؤمنين . وقريب منه قوله

تعالى :

١ - الآية (٨٧) .

٢ - انظر تفسير (روح المعاني) ، ٢م ، ج ٥ ، ص ١٠٥ .

وكذا (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ١٤٨ .

٣ - الآية (١٠٩) .

٤ - انظر (فتح القدير) للشوكاني ، ج ١ ، ص ٥١ .

٥ - الآية (١٢٢) .

٦ - انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } (١) .

فيه إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أحسن دينا ممن فعل ذلك أو
مساوياً له (٢) ، وحتماً لا أحد أحسن دينا ممن أخلص قلبه لله ، وفوض أمره
إليه سبحانه وتعالى .

١ - الآية (١٢٥) .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٨٨ .

المطلب الثاني : الأمر .

الأمر نقيض النهي^(١) . وفي البلاغة طلب الفعل من المخاطب استعلاءً وإلزاماً^(٢) كقوله تعالى :

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم ... }^(٣) .

وله صيغ أربع هي : فعل الأمر ، والمضارع المقترن بلام الأمر ، واسم فعل الأمر ، والمصدر النائب عن فعل الأمر . وليس المهم في بحث الأمر معرفة صيغته التي يجري بها ، وإنما المهم معرفة المعاني التي يخرج إليها عن معناه الأصلي .

قال الخطيب القزويني^(*) : (صيغة الأمر قد تستعمل في غير طلب الفعل بحسب مناسبة المقام)^(٤) . وفي ظني أن كل أمر ورد في كتاب الله العزيز لا يخلو من غرض بلاغي حتى في حالة صدوره على جهة الاستعلاء والإلزام ، وهذه آيات سورة النساء دليل على ذلك . قال المولى عز من قائل :

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً }^(٥) .

١ - انظر (اللسان) ، مادة (أمر) .

٢ - انظر (مفتاح العلوم) ، ص ١٥٢ .

٣ - جزء من الآية (١) .

* هو القاضي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني المتوفى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة لهجرة ، كان خطيباً في المسجد الأموي بدمشق ، وكان عالماً بارعاً ، له مصنفات عدة في البلاغة وأصول الفقه ، أهمها (الإيضاح) .

انظر (تاريخ البلاغة العربية) ، ص ٣٠٢ .

٤ - انظر (الإيضاح) ، ص ٨٤ .

٥ - الآية (١) .

وقال سبحانه :

{ وآتوا اليتامى أموالهم ... } (١) .

وقال :

{ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ... } (٢) .

وأمثاله كثير جداً . ولو تأملنا صيغ الأمر : (اتقوا) و (آتوا) وجدنا أن الأمر فيها حقق شروط الوجوب ، حيث إنه على جهة الاستعلاء والإلزام ، فهو من المولى عز وجل إلى عباده ، إذن قد جاء الأمر هنا على حقيقته ، ولكن هل تخلو هذه الصيغ من أغراض بلاغية ؟

إن الأمر في وجوب التقوى صلاح للدين والدنيا ، وعندما يأتي من جهة الله سبحانه وتعالى يتبع هذا التعظيم والتبجيل والامتنان التام بنفس راضية مطمئنة ، خاصة وقد اشتملت الآيات على مبررات الوجوب ؛ صيانة حق الضعيفين : المرأة واليتيم ، وكعادة الأسلوب القرآني خاطب النفوس والعقول ليصل إلى حد الانقياد والطاعة بنفس راضية مطمئنة ، واستسلام تام .

والآيات التي تحمل معنى الوجوب كثيرة ، ولكن نختار بعضها ، من ذلك قوله تعالى :

{ فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً } (٣) .

وقريب منه قوله تعالى :

{ فاتكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن ... } (٤) .

١ - جزء من الآية (٢) .

٢ - جزء من الآية (٤) .

٣ - الآية (٢٤) .

٤ - جزء من الآية (٢٥) .

صيغ الأمر في : (فأتوهن) ، (فانكوهن) ، (وأتوهن) أتت فيما حققه الشرع من مهور النساء وهو واجب في صحة العقد سواء في ذلك موافقة الولي للحررة من النساء وموافقة السيد إذا تعلق الأمر بالإماء . بل أتت صيغة الأمر بملحظ لطيف في قوله تعالى : { فانكوهن بإذن أهلن } حيث يجب أن تتوثق العلاقة بين الأمة ومواليها فليست علاقة الفتاة بأهلها إلا علاقة مودة ورعاية ومسؤولية .

والأولى والآكد في الإلزام والوجوب^(١) في قوله تعالى :

{ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ... }^(٢) .

الصيغة الأولى (واعبدوا) فعل أمر صريح ، وهل ألزم في الدين من هذا ؟ وقد أكد هذا الإلزام ووضحه صيغة النهي { ولا تشركوا به شيئاً } .

الصيغة الثاني { وبالوالدين إحساناً } ، (إحساناً) مصدر نائب عن فعل الأمر ، أي : أحسنوا إلى الوالدين إحساناً ، ومن رحمة الرحمن الرحيم أن قرن هذا بعبادته تقديراً لجهودهما وجهادهما في سبيل الولد .

ومثله في الوجوب قوله تعالى :

{ يا أيها الذين آمنوا أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مُصدقاً لما معكم ... }^(٣) .

الفعل (آمنوا) يحمل مع الوجوب الكثير من التهديد والوعيد بلهجة المستعلي القادر سبحانه وتعالى ، ومن ذلك قوله تعالى :

١ - انظر (الصحابي) لابن فارس ، ص ٣٠١ .

والآيات التي مثلت هذا الغرض في السورة هي : (٨٤ ، ٨٩ ، ١٠٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦) .

٢ - جزء من الآية (٣٦) .

٣ - جزء من الآية (٤٧) .

{ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً } (١) .

كل صيغ الأمر في هذا القول الكريم على حقيقتها من الإلزام والوجوب ، فقوام الدين طاعة الله فيما شرع والرسول فيما شرح (٢) وأولي الأمر فيما ترجموا هذه الشرائع إلى حياة اجتماعية قويمه ، ولا شك أن هذه هي الركائز العظمى لبناء مجتمع مثالي يقوم على ما قامت عليه أسس المجتمع الإسلامي الأول الذي ساد الدنيا ونصر الدين .

هذا النوع من صيغ الأمر كثير جداً في سورة النساء ؛ لأنها تعنى بالتشريعات ، والضابط فيه ما قاله السكاكي : (لا شبهة في أن طلب المتصور على سبيل الاستعلاء يورث إيجاب الإتيان به على المطلوب منه ، ثم إذا كان الاستعلاء ممن هو أعلى رتبة من المأمور استتبع إيجابه وجوب الفعل) (٣) . أي إذا صدر الأمر بأسلوب الاستعلاء كان على المطلوب منه التنفيذ بحكم ما تقتضيه الصيغة ، فكيف إذا كان الأمر أعلى رتبة من المأمور علواً حقيقياً ؟ وكيف إذا كان الأمر هو رب العالمين ؟

ولكن قد يكون الأمر هو الله سبحانه وتعالى ويخرج الأمر من حيز الوجوب إلى أغراض بلاغية أخرى مثل الإرشاد والتوجيه . اسمع قوله تعالى :

{ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفاً } (٤) .

١ - الآية (٩٩) .

٢ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٢٧٨ .

٣ - انظر (مفتاح العلوم) ، ص ١٥٢ .

٤ - الآية (٥) .

كل صيغ الأمر في الآية (ارزقوهم) و (اكسوهم) و (قولوا لهم) خرجت من معناها الحقيقي إلى معنى الإرشاد والتوجيه ، وأكبر دليل عليه أسلوب الآية الهادئ الذي يناسب المواقف التعليمية .

ومنه تلك الصيغ الواردة في قوله تعالى :

{ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستغف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً }^(١) .

فالصيغ الواردة في الآية : (وابتلوا ، فادفعوا ، فليستغف ، فليأكل ، فأشهدوا) كلها لم تخرج عن معنى الإرشاد والتوجيه لسلوك النهج الأقوم في هذه المواقف . وأمثالها كثير جداً^(٢) .

وربما حملت الآية الواحدة عدة صيغ تدل على عدة معان ، من ذلك قوله تعالى :

{ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجوهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً }^(٣) .

الإرشاد بين في قوله تعالى (فعظوهن) ، أما قوله (واهجوهن) ، (واضربوهن) فهو يحمل غرضاً آخر وهو الإباحة ، ومع الإباحة ورد النهي عن الإسراف في قوله تعالى { فلا تبغوا عليهن سبيلاً } .

ومما جاء في الإباحة قوله تعالى :

١ - الآية (٦) .

٢ - انظر الآيات : (٨ ، ١٦ ، ١٩ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٦ ،

١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٢٧) .

٣ - الآية (٣٤) .

{ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً } (١) .

الأمر الذي خرج للإباحة هو : { فكلوه هنيئاً مريئاً } ، قال فيها الزمخشري : (هذه عبارة عن التحليل والمبالغة في الإباحة وإزالة التبعة) (٢) . ومما يدل على الإباحة أيضاً قوله تعالى :

{ وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منكم من الغائطِ أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتميموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً } (٣) .

لقد خفف الله على أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - عند عدم تمكنهم من استعمال الماء ، وأباح لهم أيضاً الاقتصار على مسح الوجه والأيدي فقط ؛ ليكون تخفيفاً بعد تخفيف .

ومن الأغراض البلاغية التي خرجت إليها صيغ الأمر في هذه السورة المباركة التخيير ، وهو : طلب لا يقصد به إلا تخيير المخاطب بين أمرين على أنه لا يحق له أن يأتي بالأمرين معاً في وقت واحد (٤) .

ومن أمثله في هذه السورة قوله تعالى :

{ وإن خفتُم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع... } (٥) .

صيغة الأمر في (فانكحوا) خرجت من معنى الإلزام والوجوب إلى معنى التخيير ؛ لأنه لو كانت على حقيقتها للزم التعداد لكل أحد ، ثم عزز التخيير بعطف الأعداد بالواو حتى يختار البعض الاثنتين ، والبعض الثلاث والبعض الرباع ، ويكتفي البعض بالواحدة عند الخوف من عقاب الله حال

١ - الآية (٤) .

٢ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

٣ - الآية (٤٣) .

٤ - انظر (البلاغة العربية في ثوبها الجديد علم المعاني) للدكتور بكري شيخ أمين ، ص ١٠٤ .

٥ - جزء من الآية (٣) .

عدم استطاعته العدل ، ولو لم يكن الأمر على التخيير لوجب على الناس أحد هذه الأعداد لا غير (١) .

ومما جاء في هذه السورة على التخيير قوله تعالى :

{ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً } (٢) .

ترك لهم حرية الاختيار الكامل في أمر الإيمان بالله وحده والتصديق برسوله في الفعلين السابقين (آمنوا) ، (انتهوا) . وسبق بالإيمان سبحانه لأنه لو اختاروا الإيمان على الكفر لانتهوا من تلك السخافات التي تعبئ رؤوسهم الفارغة ، وذيلت الآية بالتأكيد على وحدانية الله سبحانه ، وإن كان لهم نصيب في الخير واختاروا الإيمان والانتهاى سينالون الخير وإلا فقد استحبوا العمى على الهدى . كما يحتمل أن تكون الآية في أوامرها ونواهيها للتحذير أيضاً .

ويخرج الأمر أيضاً إلى غرض التحذير ، ومن ذلك قوله تعالى :

{ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً } (٣) .

صيغة الأمر (ليخش) (٤) افتتحت بها الآية لتثير في نفس المتلقي الانتباه والتشويق والخوف لما يخشاه ، ومعناه : (تذكر أيها الوصي ذريتك الضعاف من بعدك وكيف يكون حالهم ، وعامل اليتامى الذين في حجرك

١ - انظر (الكشاف) للزمخشري ، فقد فصل فيه القول ، م ، ١ ، ص ٢٤٤ .

٢ - الآية (١٧١) .

٣ - الآية (٩) .

٤ - صيغة الأمر هنا أتت بلام الأمر الداخلة على الفعل المضارع .

بمثل ما تريد أن يعامل به أبنائك بعد فقدك (١) . وبلاغة هذا التحذير في استدعاء صورة أبناء الأوصياء في نفس الوضع الذي يمتلكونه الآن (حتى لا يحسروا على خلاف الشفقة والرحمة) (٢) ، فيحاط اليتيم في كل زمان ومكان يطبق فيه شرع الله بسياج من الرعاية الدائمة ، ويؤكد ذلك قوله تعالى في آخر الآية على سبيل التحذير أيضاً : { فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً } .

ومن التحذير قوله تعالى :

{ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أديارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً } (٣) .

التحذير في قوله تعالى (آمنوا) ، والذي جعله لذلك الغرض مضمون الآية كلها ، حيث تعلق فيها نبرة التهديد والوعيد ، وقصة إسلام كعب وعبد الله تصور لنا كيف كان وقع هذا التحذير على النفوس الواعية من أهل الكتاب (٤) .

١ - انظر (صفوة التفاسير) للصابوني ، م ١ ، ص ٢٦٠ .

٢ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٥٠ .

٣ - الآية (٤٧) .

٤ - انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ٦٣ .

وكذا (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٥٣٢ .

وكذا (التفسير الكبير) ، ج ١٠ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

وقصة إسلام عبد الله بن سلام ذكرها ابن الأثير في (أسد الغابة) ، ج ٣ ، ص ١٦٠ ، وهو صحابي . أما قصة إسلام كعب الأحبار ففي (أسد الغابة) ، ج ٢ ، ص ١٨٧ . وهو كعب بن مانع يكنى أبا إسحاق أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان إسلامه في خلافة عمر بن الخطاب ، فهو معدود من التابعين ، وكان أول إسلامه أنه مر برجل من (أليل) وهو يقرأ هذه الآية : { يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم .. } فوضع كفيه على وجهه ورجع القهقري إلى بيته ، فأسلم مكانها وقال : والله خفت أن لا أبلغ بيتي حتى يطمس وجهي .

وكما يكون التحذير للإنذار بالعذاب يكون للتبويه على الخطأ حتى لا يقع ما يوجب العذاب ، ومثله قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } (١) .

صيغة الأمر المكررة مرتين في فعل الأمر (تبينوا) حملت معنى التحذير الشديد ، يؤكد ذلك قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } وما فيها من لهجة التحذير أيضاً . ولكن هذه الفئة المخاطبة بهذا التحذير فئة خرجت في سبيل الله أي هي الصفوة ، وإذا أتى خطأ منها هل يسكت عليه مداراة لها ؟ أو يُعنفوا كما يعنف المارقون من طاعة الله ؟ لا ، بل يحذروا بأسلوب فيه الكثير من اللين والرفق والتحنان الذي يخالطه الجد والحزم .

ويتضح هذا أكثر بمقارنة أسلوب الآية بما سبق من تحذير أهل الكتاب (٢) ، وهذا هو السياق القرآني الذي يجعل لكل مقام مقال .

ومما جاء صراحة في طلب التحذير قوله تعالى :

{ فَلْيَصِلُوا مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ... }

إلى قوله تعالى :

{ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا } (٣) .

صيغتي الأمر (٤) : { وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ } و { خُذُوا حِذْرَكُمْ } الأولى منهما أقرب إلى حقيقة الأمر أي الوجوب ؛ وذلك لما في هذا الأمر من مصلحة شرعية (٥) ، ويؤكد العطف : (وَأَسْلِحَتَهُمْ) عليه وإن كانت حقيقة

١ - الآية (٩٤) .

٢ - تأمل أسلوب الآية (٤٧) تجد الفرق بيناً واضحاً وضوح الشمس .

٣ - الآية (١٠٢) .

٤ - الأولى فعل مضارع تسبقه لام ، والثانية فعل أمر صريح .

٥ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٧٩ .

أخذ الحذر مجازاً لأنه شيء معنوي . أما الصلة الثانية فهي أقرب إلى المعنى البلاغي أي استعدوا وانتبهوا بأشد ما يكون عليه ذلك ، والله في الأولى والآخرة منكفل بنصركم وخذلان عدوكم .
ومن المعاني التي وردت لصيغة الأمر في سورة النساء التعجب ،
وذلك واضح في قوله تعالى :

{ انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً }^(١) .

الأمر في (انظر) إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى كل واقف على الآية الكريمة ، وهو حتماً لا يقف عند معناه الحقيقي بدلالة القرائن في السياق . والآية تعقيب على ما قبلها وتعجب من الذين يزكون أنفسهم والله سبحانه يزكي من يشاء بعلمه وعدله ، واليهود أول المقصودين بهذا التعجب بدليل حالهم على مر الزمان فترجم هذا الفعل (تعجب إثر تعجب على ما ارتكبه ، المتضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجب : ادعائهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه ، وافترائهم على الله)^(٢) عز وجل (بقبوله لهم وارتضائه إياهم)^(٣) ؛ لذا استحقوا التهديد والوعيد الذي تضمنه تذييل الآية { وكفى به إثماً مبيناً } تأكيداً على سوء المصير ، أعادنا الله جميعاً منه .

ومن تلك المعاني البلاغية التي وجدت للأمر في هذه السورة الدعاء . اسمع قوله تعالى :

{ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً }^(٤) .

١ - الآية (٥٠) .

٢ - انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٣٤ .

٣ - انظر (روح المعاني) ، ٢م ، ج ٥ ، ص ٥٥ .

٤ - الآية (٧٥) .

ترجم غرض الدعاء هنا الأفعال (أخرجنا) و (اجعل لنا) ، ولا شك أنها ليست على سبيل الحقيقة ؛ لأنه لا استعلاء ولا إلزام ، وإنما هو : (مبالغة في التضرع والابتهاال)^(١) من فئة ليس لهم إلا الله في محنة استضعافهم ، والتذلل له سبحانه وتعالى رفعة وعزة ، وقد حقق الله لهم هذا حيث نصرهم بإخراج بعضهم إلى المدينة المنورة ، ثم بفتح مكة على يد الرحيم الأمين صلوات الله وسلامه عليه .

ومن الأغراض البلاغية لصيغ الأمر السخرية ، ويتضح هذا في قوله تعالى :

{ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا }^(٢) .

الآية الكريمة على قصرها حملت للمنافقين سخرية^(٣) لاذعة ، وردت عليهم بجنس عملهم ؛ لأنه كما هو معلوم لفظه (بَشِّر) تكون فيما هو محبوب^(٤) ويُتَلَهَّف على حصوله ، والإعجاز المدهش فيها ذكرها قبل الآية التي صورت سخرية المنافقين واستهزاءهم بالقرآن ، وكأنه سبحانه عجل لهم هذه البشارة الساخرة استعجال المرء بما يسره ، ولنتصور خيبة الأمل والخزي عندما تكون البشارة بالعذاب الأليم . وقد تكون تهكما بالمتذبذبين بين الإيمان والكفر ؛ لأن عملهم ضرب من التهكم^(٥) .

وقد يرد فعل من أفعال الأمر ويراد به غيره تأكيداً على الإلزام ، مثل قوله تعالى :

١ - انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٥٥٠ .

وكذا (روح المعاني) ، ٢م ، ج ٥ ، ص ٨٢ .

٢ - الآية (١٣٨) .

٣ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٧٣ .

٤ - انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

٥ - في الآية السابقة (١٣٧) انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ٢٣٣ .

{ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً } (١) .

وصف المخاطبين بأنهم آمنوا ، وأردفه سبحانه بأمرهم بأن يؤمنوا بالله ورسوله ... إلى آخره ، وهذا يرشد السامع إلى أن طلب الإيمان ليس على حقيقته بل خرج إلى معنى الثبات . وهذه الآية من شواهد استعمال صيغة الأمر في طلب الدوام (٢) ، ولكن صيغة الأمر المختارة في الآية أقوى في تثبيتهم على الإيمان ، وأنفذ في التحذير من الارتداد . وفي الآية دليل على أن الإيمان يضعف ويقوى ويتجدد بالاستمرار لما في الحياة من عوامل كثيرة تجذب المؤمن جذباً إلى نقيضه . وهذا الرأي يؤيده ما جاء في سورة (الفاتحة) من قوله تعالى : { اهدنا الصراط المستقيم } ، مع أن الطالب لهذه الهداية هو المؤمن ، إذن معناه : ثبتنا عليه .

١ - الآية (١٣٦) .

٢ - انظر (التحرير والتوير) ، ج ٥ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

المطلب الثالث : النهي .

وهو خلاف الأمر ، إذ معناه : الكف عن فعل الشيء مثل قولك " لا تفعل " ، وإذا كان على سبيل الاستعلاء أفاد الوجوب^(١) والإلزام . وما أكثر صيغ النهي الإلزامي في القرآن الكريم ، ولا غرو فإنه من مصادر التشريع من لدن حكيم خبير . وصيغته الإلزامية في القرآن الكريم لا تخلو أيضاً من مغزى بلاغي .

وللنهي صيغة واحدة فقط في لغتنا ، وهي المضارع المقرون بـ (لا) السناهية الجازمة . ويخرج عن معناه الأصلي إلى معان بلاغية تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال ، مع اصطحاب المعنى الأصلي في معظم الأحيان^(٢) .

وقد ورد في سورة النساء في مواضع مختلفة ، اقترنت في معظمها بالسنداء أو الأمر أو بهما معاً . وأحسب أن ذلك لطبيعة الموضوعات المحورية^(٣) التي تقوم عليها هذه السورة . ومن الصور الإلزامية للنهي قوله تعالى :

{ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا }^(٤) .

١ - انظر (مفتاح العلوم) ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

٢ - والسبب أن كل ما ورد في سورة النساء من صيغ النهي هي من الله سبحانه وتعالى إلى عباده ، فجهة الاستعلاء واردة في الكل ، وعليه فشرط الإلزام موجود .

٣ - المحاور الرئيسية التي دارت عليها سورة النساء المباركة كثيرة ، لكن أهمها :

أ - تطهير المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية .

ب - كشف أعداء المسلمين وكيدهم والتحذير منهم .

ج - تنظيم المجتمع على أساس التكافل والتراحم والتناصح بنظم الشرع الجديد .

انظر (من هدي سورة النساء) لحنان لحام ، ص ٢٠ .

٤ - الآية (٢) .

الشاهد في قوله تعالى (لا تتبدلوا) ، وكذلك (لا تأكلوا) ففيهما تشديد على ترك هذين العملين ، يؤكد ذلك تسميتهما بـ (الحوب) - وهو الذنب العظيم^(١) - في جملة تحوي مؤكدين قويين : (إن) و (كان) . وقد تكرر هذا النهي حماية لليتيم ودفاعاً عن حقوقه في قوله سبحانه وتعالى :

{ فَإِنْ أَنْسْتُمْ مِنْهُمْ رَشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ... }^(٢) .

صور هذا الأكل بصورة المتلف البشع الذي يبادر في أكل هذا الحرام قبل أن يرشد اليتيم ويطالب بحقه ، هذه الصورة أكدت حرمة هذا الأكل ووضّحت المغزى من النهي وبيّنت نوعه . ومن صور النهي الإلزامي قوله تعالى :

{ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا }^(٣) .

النهي من جهة الاستعلاء . والنهي هنا ملزم حيث بالغ المولى في التشديد على المنهي عنه - وهو أن ينكح الرجل امرأة أبيه من بعده - وهذا خلق ممقوت حتى في الجاهلية عند أهل المروءات منهم ؛ لذا سماوا الابن الذي يودُّ بهذا النكاح (مقتياً) نسبة إلى المقت^(٤) . وقد اتفق القرآن معهم في قوله تعالى : { إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً } . كذلك جعلت السنة جزاء من يفعل تلك الفعلة القتل . (قال البراء بن عازب : لقيت خالي ومعه الراية فقلت : أين تريد ؟ قال : أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

١ - انظر (لسان العرب) ، مادة (حوب) .

وكذا (بهجة الأريب) للتركمانى ، ص ٦٢ .

٢ - جزء من الآية (٦) .

٣ - الآية (٢٢) .

٤ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ . وكذا (بهجة الأريب) ، ص ٦٤ .

رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه (١). وهل بعد هذا من الإزام .

ومنه قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } (٢) .

إن ما قيد به هذا النهي بوصفه بالباطل مع ما فيه من الاستعلاء جعله إزامياً ، والمعنى : لا يأكل بعضكم مال بعض ، وقدم النهي عن أكل الأموال على النهي عن القتل مع أنه أشد وأفظع لما فيه من تساهل وخفاء لا يتفقان للقتل (٣) .

وقد يخرج النهي في القرآن عن الإزام على الرغم من أنه من جهة الاستعلاء . لنأمل قوله تعالى :

{ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ... } (٤) .

لأن الأمنية عمل قلبي قد لا يستطيع المرء كبحها ، لذا خرج النهي عن الإزام إلى معنى بلاغي آخر وهو الإرشاد والتوجيه ؛ لمجاهدة النفس فيها وربط مطالبها بما عند الله ، يرشد إلى هذا أسلوب الآية الهادئ وقوله تعالى : { واسألوا الله من فضله } ، وكذلك خلو الآية من أي دليل على عقاب من لا يستطيع ذلك .

ويؤكد عدم الإزام النفس بما لا تستطيع قوله تعالى :

١ - الخبر في (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ .

والحديث أخرجه الحاكم في مسنده في كتاب النكاح ، ج ٢ ، ص ١٩١ . قال صحيح على

شرط مسلم .

٢ - الآية (٢٩) .

٣ - انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ٢٣ .

ومما جاء في النهي إزامياً الآيتان : (٣٦) ، (١٠٧) .

٤ - جزء من الآية (٣٢) .

{ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمَعْلُوقَةِ وَإِنْ تَصَلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } (١) .

النهى في (لا تميلوا) على سبيل الإرشاد ، بحيث لم تحتو الآية على أي لفظة تدل على عقاب صارم لمن خالف ذلك ، بل ما هو موجود في الآية تأكيد على عدم استطاعة العدل ، ثم تذييل للآية بقوله تعالى : { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } . والسبب البين أن الميل عمل قلبي ، والقلب يحرك الجوارح . قال أحد المفسرين : (أي محال أن تقدرُوا على أن تعدلوا بينهن بحيث لا يقع ميل ما إلى جانب إحداهن في شأن من الشؤون البتة ، وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تُوَاخِذْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ (٢) ؛ ولذا فالنهى للإرشاد وإن وضحت السنة عقاب الجائر (٣) .

ومما جاء لغرض التوجيه والإرشاد - وإن كان الحكم فيها منسوخاً بغيره - قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ... } (٤) .

١ - الآية (١٢٩) .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٩٢ .

الحديث أخرجه أبو داود في كتاب النكاح ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ ، بسنده إلى عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت : (كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقسم بين نسائه فيعدل ويقول : " اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك ")

٣ - جاء في سنن أبي داود في باب النكاح بسنده إلى أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل " ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

من الآيات التي جاءت للإرشاد الآية (٩٤) .

٤ - جزء من الآية (٤٣) .

لم يشأ الرب الرحيم التشديد على المؤمنين في أول أمر تحريم الخمر كما هو معلوم ؛ وذلك لعدم الاستطاعة ، بل جعل ذلك بالتدرج ، وهذه درجة من تلك الدرجات أتى النهي فيها على جهة الوعظ والإرشاد بتعليل سبب النهي ، وإنما نفرهم الله من هذا الوضع ، وزاد معنى التفسير اختيار الفعل (تقربوا) لدخول النهي عليه دون " لا تصلوا " ونحوه للإشارة إلى أن تلك حالة منافية للصلاة ، وصاحبها جدير بالابتعاد عن أفضل عمل في الإسلام^(١) للمبالغة في النهي^(٢) .

ومن الأغراض البلاغية التي خرج إليها النهي : التحذير ، من ذلك قوله تعالى :

{ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُمَا قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَتَانًا وَإِمَاءَ مَبِينًا }^(٣) .

نهاهم الحق عن أخذ ما دفعوه مهراً للزوجة بعد تقرير طلاقها وحذرهم منه بوصفه بالبهتان والإثم المبين . والآية تحمل في نبرتها معنى التهديد والوعيد والاستتكار .

ومما جاء للتحذير أيضاً قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا }^(٤) .

دليل التحذير في الآية الأمر الذي سبق النهي : { كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ } ، وزاده تأكيداً ما اختتمت به الآية من نبرة الاستعلاء فيها .

١ - انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ٦١ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٢٣ .

وكذا (روح المعاني) ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

٣ - الآية (٢٠) .

٤ - الآية (١٣٥) .

وتقدير المعنى : فلا تتبعوا أي : اتركوا متابعة الهوى حتى تصيروا موصوفين بصفة العدل لأنهما نقيضان^(١) لا يجتمعان في شخص ، وهذا ما أكدته معنى (تلووا) ، فهو من اللّي أي اللّي في الشهادة والميل إلى أحد الخصمين^(٢) .

ومنه قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عِلْمَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا }^(٣) .

قال فيها أبو السعود - رحمه الله - : (نهوا عن موالاتة الكفرة صريحاً وإن كان في بيان حال المنافقين مزجرة عن ذلك مبالغة في الزجر والتحذير)^(٤) . أي إن هذا النهي الذي أتى صراحة الغرض منه المبالغة في الزجر ، لأن الآيات السابقة قامت بهذا عند بيان حال المنافقين ، ولكنه كان زجراً تلميحياً وهذا زجر تصريحى .

ومن بديع الأغراض التي خرج إليها النهي في هذه السورة التشجيع والتحميس ، كما في قوله تعالى :

{ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا }^(٥) .

النهي في (لا تهنوا) زاد عن معناه الحقيقي إلى زيادة التشجيع^(٦) ، فقد يبث في قلوب المؤمنين في كل زمان ومكان دفعة قوية تشد عضدهم

١ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٧١ ، بتصرف .

٢ - انظر (بهجة الأريب) للتركمانى ، ص ٢٦٦ .

٣ - الآية (١٤٤) .

٤ - انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج ١ ، ص ٥٩٨ .

وقد ورد في هذا المعنى الآية (١٤٠) .

٥ - الآية (١٠٤) .

٦ - انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ١٨٨ .

لملاقاة العدو والاستبسال في ذلك فهو (تشجيع لهم)^(١) وشد من أزرهم
لمقارنة ما تؤول إليه حال كل من الفريقين : هم وعدوهم .

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٨٠ .

ومعنى تألمون : أي تجدون ألم الجراح ووجعها . انظر (بهجة الأريب) ، ص ٦٨ .

المطلب الرابع : التَّمَنِّي .

أداته الرئيسية : ليت . وتعني إما طلب المستحيل أو بعيد المنال^(١) مع شدة تعلق النفس به . ويعاون (ليت) في هذا المعنى أدوات تستعمل أصلاً لمعانٍ أخرى^(٢) مثل : (هل) ، و (لو) ، و (لعل) ، و (هلاً) ، و (ألا) .

وقد لاحظ البلاغيون أن كثيراً من هذه الأدوات إذا أعطت معنى التمني دمجت معه معانيها الأصلية فتكوّن بذلك انفعالاً عجيباً يظهر فيه شدة الرغبة في مغالطة النفس لتتوهم أن ذلك الأمر وإن كان مستحيلاً بعيد المنال إلا أنه ربما يحدث ولو في الخيال ، وذلك بالتمني بـ (لعل وهل وهلاً وألاً) .

أما التمني بـ (لو) فيبرز التمني في صورة مالا يوجد^(٣) قط مع شدة الرغبة فيه . ويشترط في دلالة هذه الألفاظ على التمني أن يُنصب

١ - انظر (مفتاح العلوم) ، ص ١٤٧ .

٢ - هل : للاستفهام ، ولو : للشرط ، ولعل : للرجاء ، وهلاً وألاً : للتخصيص أو التنديم . ومن أمثلة خروج هل للتمني قوله تعالى على لسان الكافر يوم القيامة :

{ فهل لنا من شفاعاء فيشفعوا لنا ... } ، الآية (٥٣) ، الأعراف .

ومثال لو على لسان الكفرة أيضاً :

{ فلو أن لنا كرة فتكون من المؤمنين } ، الآية (١٠٢) ، الشعراء .

ومثال لعل قوله تعالى :

{ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى

إله موسى ... } ، الآية (٣٧) ، غافر .

ومثال هلاً قول جميل بن معمر :

لك الخير هلاً عَجَبْتُ حتى تفهمي وذو اللبِّ في كلِّ الأمور فهيمُ

٣ - انظر (شرح التلخيص) ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

وكذا (علوم البلاغة) للمراغي ، ص ٦٠ .

المضارع في جوابها بأن مضمرة^(١) . وقد ورد التمني بأداته الرئيسة في سورة النساء المباركة مرة واحدة فقط^(٢) وذلك مثل قوله تعالى :

{ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً }^(٣) .

الشاهد : { يا ليتني كنت معهم } على لسان المبطن يتمنى أن لو كان مع جيش النبي لا للنصرة وطلب ما عند الله ، بل للتهالك على حطام الدنيا حسداً للمؤمنين على ما ظفروا به من فوز لم يكن في توقعه ؛ فقد كان يود أن تجري المقادير على وفق مراده ، فإذا قعد عن الخروج لا يصيب المسلمين فضل من الله^(٤) ، وقد فضحه الله سبحانه تعالى بتلك الجملة المعترضة بين فعل القول والجملة المحكية به ، تلك الجملة الصغيرة : { كأن لم يكن بينكم وبينه مودة } احترازاً من أن يُتوهم من مطلع كلامه أن تمنيه المعية لله . أما استخدام لفظة (مودة) فهي على سبيل التهكم^(٥) به ، وإلا فهم يتربصون بالمؤمنين الدوائر دائماً .

وقد يدل على التمني فعل (ودّ) مقترناً بـ (لو) ، وفي سورة النساء موضعان يمثلان هذه الظاهرة : الأول قوله تعالى :

١ - انظر (شروح التلخيص) ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

وكذا (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣١٤ .

وكذا (علوم البلاغة) للمراغي ، ص ٦١ .

٢ - لقد وردت (ليت) وهي في الغالب أداة الأمل غير المحقق في القرآن الكريم كله أربع عشرة مرة فقط ، بينها ثلاث مرات بالأمل المرجى .

انظر (كشف الغموض) ، ص ٩٥ .

٣ - الآية (٧٣) .

٤ - انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ١٢٠ .

وكذا (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٢٩٢ .

٥ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٤٨ ، بتصريف .

وكذا (روح المعاني) ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

{ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً }^(١) .

قال فيها الزمخشري : (" فتكونون " عطف على تكفرون ولو نصب عني جواب التمني جاز ، والمعنى : ودوا كفركم فكونكم معهم شرعاً واحداً فيما عليه من الضلال واتباع دين الآباء)^(٢) ، وهذا يعني أنه قدر التمني من الفعل (ودّ) والأداة (لو) ، وقدر مفعول الفعل ودّ (كفركم) ، أي ودوا كفركم لو تكفرون فتكونون ، وردّ عليه أبو حيان قائلاً : (وكون التمني بلفظ الفعل ويكون له جواب فيه نظر ، وإنما المنقول أن الفعل يُنصب في جواب التمني إذا كان بالحرف نحو : ليت ولو وألا إذا أشربت معنى التمني ، أما إذا كان بالفعل فيحتاج إلى سماع من العرب ، بل لو جاء لم يتحقق فيه الجوابية ؛ لأن ودّ التي تدل على التمني إنما متعلقها المصدر لا الذات ، فإذا نصب الفعل بعد الفاء لم يتعين أن تكون فاء جواب لاحتمال أن يكون من باب عطف المصدر المقدر على الملفوظ ، فيكون من باب : ولبس عباءة وتقر عيني)^(٣) .

الأرجح أن يكون التركيب من باب التمني ؛ لأنه أدل على ما في نفوس الكفرة المريضة بالبغيضاء والحسد للمسلمين على نعمة الإسلام ، وجعلها كذلك يؤكد بعد منالها واستحالة حصول التمني ، والواقع يصدقه ، فمن ذاق حلاوة الإيمان ودخل في نوره هيهات أن يعود إلى الضلال من جديد .

ومثله قوله تعالى :

١ - الآية (٨٩) .

٢ - انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٨٨ .

٣ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣١٤ . وكذا ج ١ ، ص ٣١٤ .

{ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ... } (١) .

والمعنى : تمنوا أن ينالوا منكم غرة ، وينتهزوا فرصة فيشدوا عليكم شدة واحدة (٢) ، فقد خرج التركيب إلى التمني بأن تلهيهم الصلاة عن الاستعداد ، ولكن الله لهم بالمرصاد .

١ - الآية (١٠٢) .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٧٩ .

وكذا (التحرير والتنوير) ، ج ٥ ، ص ١٨٧ .

المطلب الخامس : النداء .

وهو طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة ،
ينوب كل حرف منها مناب الفعل (أدعو)^(١) . وحروفه سبعة هي : الهمزة
و (أي) ، و (أيا) ، و (آي) ، و (أيا) ، و (هيا) ، و (وا) . وهي
نوعان بحسب المنادى : الهمزة و (أي) لنداء القريب ، وباقي الأدوات
لنداء البعيد^(٢) . ولم ترد في القرآن الكريم سوى (يا) و (أي) ، وكل
منهما يمثل طائفة ، وأكثر ما استخدمت (يا) مع (أيها) . وقد وردت
مائة وخمسون آية استخدم فيها النداء (يا أيها)^(٣) ، منها خمس عشرة مرة
في سورة النساء^(٤) حملت معان بلاغية تناسب مقاصد^(٥) السورة المباركة .
منها النداء الأول ، نداء ربّ العالمين بـ (يا أيها) لعامة الناس في قوله
تعالى :

١ - لقد عرّف البلاغيون النداء بأنماط من التعريفات جميعها يؤدي إلى هذا التعريف الشامل
المختصر ، وهو تعريف الدكتور عبد العزيز عتيق في كتابه (البلاغة العربية ، علم المعاني) ، ص
١١٤ ، ١١٥ .

٢ - انظر المرجع السابق ، بتصريف .

٣ - انظر (كشف الغموض) ، ص ٩٦ .

٤ - جاءت تسع مرات منها نداء المؤمنين بقوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا } . كما جاءت نداء
للناس جميعاً أربع مرات ، كما نودي أهل الكتاب مرتين فقط . وجاء معنى النداء مع حذف أدواته
مرتين في الدعاء بقولهم (ربنا) في الآية (٧٥) و (٧٧) .

٥ - من المقاصد الرئيسية في سورة النساء واتفق معها النداء :

أ - الحث والتنبيه على وجوب التواصل والتراحم وحفظ الحقوق .

ب - التأكيد على التكاليف الشرعية في العبادات والمعاملات .

ج - التهديد والتحذير من أعداء الإسلام .

د - النصح والإرشاد لما فيه صلاح المجتمع وصلاح الفرد من الظاهر والباطن .

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبنت منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً } (١) .

أمرهم سبحانه (بالتقوى وبالتعاطف والرفقة وإيصال الحقوق وحفظ الأموال) (٢) ، وجعل معجزة خلقهم حجة عليهم لوجوب الامتثال لأمر عظام ؛ لأن (النداء حين يقع بين يدي الأمر والنهي يكون لأمر يهتم به المتكلم ويحرص عليه فيوقظ المخاطب ويهيئه له قبل أن يلقيه عليه) (٣) . فالنداء هنا على حقيقته ، واستعمال (يا) التي للنداء البعيد غالباً يدل على مزيد من التعظيم للمنادى (٤) ولما نودي من أجله ، وثمة معنى بلاغي آخر في استعمال (يا) ، حيث أعطى بعد المنادى بها معنى يتسع فيه النداء إلى دائرة الخلق ، فيشمل القريب والبعيد في كل زمان ومكان ، وزاد هذا المعنى تأكيداً دخول (أل) على كلمة الناس ؛ لتعم كافة الجنس البشري المكرمين بهذا النداء على غيرهم ، وإن كان الدين للإنس والجن على حد سواء .

ومن قبيل التعاطف والتراحم قوله تعالى :

{ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً } (٥) .

نودي المؤمنون لتهيئة نفوسهم ونبعتوا بالإيمان لتقبل النهي الذي تحمله الآية برحابة صدر وشدة حرص ، خصوصاً وأن المنهي عنه أمر

١ - الآية (١) .

٢ - انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج ٩ ، ص ١٥٧ .

٣ - انظر (التصوير البياني) للدكتور محمد أبو موسى ، ص ٥٤ .

٤ - انظر (البلاغة العربية في ثوبها الجديد) للدكتور بكرى شيخ أمين ، ص ١١٣ .

٥ - الآية (١٩) .

تعارفت عليه الجاهلية ، ورسخ في جِبَلَاتِهِمْ ، وهو أبشع صور الظلم للمرأة حينذاك ، حيث تعد من سقط المتاع فتورث^(١) كما تورث الجارية ، بل البهيمة ، فعزها العزيز المنان بهذا النهي إلى منزلة لم تكن تحلم بها في جاهليتها ، وحرر رقبتها من عبودية الرجل ، بل وجعل لها حرية التصرف في مالها أيضاً إلا حين تسقط بشهواتها في مهاوي الردى .
ومنه قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا }^(٢) .

قال فيه أبو السعود : (شروع في بيان بعض المحرمات المتعلقة بالأموال والأنفس إثر بيان الحرمان المتعلقة بالأبضاع . وتصدير الخطاب بالسنداء والتنبية لإظهار كمال العناية بمضمونه)^(٣) ، هذا المضمون الذي يحمل بياناً واضحاً في حرمة الأموال والأنفس ؛ ولذا جاء النداء بحرف (يا) التي هي للتعظيم مع أداة التنبية لتدل (على شدة التواصل بين الخالق وخالقه وأن حبل الخطاب منصوب بين السماء والأرض لا يقطع ، وما على الإنسان إلا الاستجابة لربه وتلبية نداءاته وأوامره ، فهي كلها لصالحه وحسن مآله)^(٤) .

وقد يأتي النداء للتنبية على التكليف الشرعية في العبادات والمعاملات ، في هذا الغرض يقوم النداء بإعلان ظاهري قوي على أن ما

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٩٨ .

وكذا (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٢٤٢ .
أو أي تفسير شئت .

٢ - الآية (٢٩) .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٩٨ .

والأبضاع : أمور النكاح . انظر (المفردات) ، مادة (بضع)

٤ - انظر (كشف الغموض) ، ص ٩٦ .

نودي من أجله ملزم لإقامة شرع دينكم ففتبهاوا إليه وعضوا عليه بالنواجذ .
فهو نداء للمؤمنين خاصة مثل الذي قبله ، ومثله قوله تعالى :

{ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتييموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً }^(١) .

صدر الكلام بحرف النداء والتنبيه للمبالغة في حملهم على العمل بموجب النهي^(٢) ، وتوجيه النهي إلى قربان الصلاة مع أن المراد هو النهي عن إقامتها ؛ للمبالغة في ذلك ، أي يا من أفردوا بتصديق الرسل وما أتوا به عن الله^(٣) الكلام خاص بكم ، ففتبهاوا أن يشوب دينكم شائبة شرك في غفلة منكم تخرج أعمالكم من القبول . أسلوب يفيض تلطفاً واحتراماً في عرض معجز تخجل النفس من عدم الانتباه له والتمسك بمقتضاه .

وأكثر منه توجيهاً وتكليفاً قوله تعالى :

{ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً }^(٤) .

هذه أمور لا يستقيم الدين إلا بها ، وهل ألزم من طاعة الله وطاعة الرسول وطاعة أولي الأمر^(٥) ؟ فخصوا بهذا النداء على وجه التعظيم والتكريم ليعلموا أن تمييز هذا سببه هذه الطاعة ، ففتبهاوا لها .

١ - الآية (٤٣) .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٢٣ .

٣ - انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ٢٨٤ .

٤ - الآية (٥٩) .

٥ - الرد إلى الله هو النظر في كتابه العزيز والعمل بما جاء فيه ، والرد إلى الرسول هو سؤاله في حياته والنظر في سنته بعد وفاته - عليه أفضل الصلاة والسلام - . هذا قول مجاهد والأعمش وقتادة والسدي . انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ٧١ .

ومن التنبية ما جاء لأخذ الحيطة والحذر ، مثل قوله تعالى :
**{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تَبَاتٍ أَوْ انفِرُوا
 جميعاً }^(١) .**

خص المولى بهذا الخطاب المخلصين من أمة محمد^(٢) - صلى الله عليه وسلم - في كل زمان ومكان ، نُبِّهوا على أهمية الخزم والعزم والاستعداد التام قبل ملاقات العدو ، وهذا ينافي التواكل الذي يظنه البعض من الدين .

ومن المقاصد التي حققها النداء في سورة النساء التهديد والتحذير ، وخير ما يمثله قوله تعالى :

**{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَوَا الْكِتَابَ آمَنُوا بَمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ
 قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدِّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ
 السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا }^(٣) .**

خاطبهم الله خطاب مشافهة مع جميع علمائهم^(٤) ، ويدخل فيه عامة أهل الكتاب ، ولذلك لما هو موجود في كتبهم من حقيقة الإسلام ، وإنما كفرهم به لمحض العناد والمكابرة والحسد ، فلا جرم أن هددهم المولى سبحانه بطمس الوجوه واللعن تحقيراً لهم ؛ لأن الوجه أكرم عضو في الإنسان ، وفيه يُكرم أو يُهان .

ومن التهديد والتحذير ما جاء للمؤمنين أيضاً ، ومنه قوله تعالى :
**{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
 أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا }^(٥) .**

١ - الآية (٧١) .

٢ - انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ٧٧ .

ومن هذا النداء الذي هو للتنبية على التكليف الشرعية الآيتان : (٩٤) ، (١٣٥) .

٣ - الآية (٤٧) .

٤ - انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج ١٠ ، ص ١٢٠ .

٥ - الآية (١٤٤) .

حمل النداء التهديد والوعيد لتحذيرهم من موالاته الكفرة لما في ذلك من خطر شنيع على الأمة الإسلامية ، فلو فعلوا استحقوا أن يسلب عليهم عقابه^(١) الشديد سبحانه عظم سلطانه .
وقريب منه قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا }^(٢) .

اختلفت الآراء في المقصود بالنداء ، فمنهم من رجح أنها للمنافقين ، ومنهم من جعلها تعريضاً لليهود والنصارى والمشركين ، ، ولكن أرجح الأقوال أن الخطاب للمؤمنين ، وأنه خرج عن معناه إلى معنى الثبات على الإيمان^(٣) . والصيغة الواردة في الآية أقوى في التثبيت وأنفذ في التحذير . وقد أكد آخر الآية هذا المضمون موضحاً أن الذي لا يثبت على الإيمان وينجرف في مزالق الشيطان حق عليه الضلال البعيد الذي لا رجوع منه ، والله أعلم وأحكم .
ومنه قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا }^(٤) .

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٩٩ .

٢ - الآية (١٣٦) .

٣ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٧١ .

وكذا (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٣٠٤ .

وكذا (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٩٤ .

وكذا (روح المعاني) ، ج ٢ ، ص ١٦٩ .

٤ - الآية (١٧٠) .

هذا الخطاب لجميع الناس ؛ لأن الأمور به أمر عام ولو كان فيه تكليف لكان خاصاً بالمؤمنين في الغالب^(١) . والتحذير فيه ضمني ، أي : إن لم تطلبوا الخير بإيمانكم فالله عليم بما يضركم في السماء والأرض ، حكيم في أفعاله وتصرفاته بما يليق بكم . فهو (أمر مشفوع بالوعد بالإجابة والوعيد على الرد ؛ تنبيهاً على أن الحجة قد لظمت ، ولم يبق بعد ذلك لأحد عذر في عدم القبول)^(٢) .

ثم خص أهل الكتاب ببدء بعده لنفس الغرض بقوله تعالى :

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ... }^(٣) .

الخطاب لأهل الكتاب من النصارى ، أمروا بترك الغلو في دين الله على الإطلاق ، وأن يوحدوا ، ولا يقولوا على الله إلا الحق ، وإذا سلخوا ما أمروا به فذلك سائقهم إلى الإسلام^(٤) . وجاء هذا النداء وما بعده من الأمر بأسلوب الإرشاد والتنبيه إلى ما هو خير ، مع ما فيه من تهديد ضمني أكده سياق الآية في عدة مواقف مثل قوله تعالى : { انتهوا خيراً لكم } ، وكذا التأكيد على وحدانية الله في : { إنما الله إله واحد } ، وكذا التحذير بقوله تعالى : { وكفى بالله وكيلًا } .

أما آخر خطاب في هذه السورة المباركة فهو جامع للناس كافة يرشدهم إلى أمر من أعظم أمور دين محمد - صلى الله عليه وسلم - الحق ، وهو إنزال النور المرشد إلى طريق النجاة . وقد أعقب هذا البيان الساطع ترغيب شديد في الإيمان :

١ - انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٤٠٠ .

وكذا (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ١٣٨ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٦١١ .

٣ - جزء من الآية (١٧١) .

٤ - انظر (المحرر الوجيز) ، ج ٢ ، ص ١٣٩ .

{ يا أيها الناسُ قد جاءكمُ برهانٌ من ربكمُ وأنزلنا إليكمُ نوراً مبيناً * فأما الذين آمنوا باللهِ واعتصموا بهِ فسيدخلهمُ في رحمةٍ منه وفضلٍ ويهديهمُ إليه صراطاً مستقيماً } (١) .

(فذكرة للكلام السابق بما هو جامع للأخذ بالهدى ونبذ الضلال بما اشتمل عليه القرآن من دلائل الحق وكبح الباطل . والجملة استئناف وإقبال على خطاب الناس كلهم بعد أن كان الخطاب موجهاً إلى أهل الكتاب خاصة . ثم أردف بتفصيل بما دل عليه " يا أيها الناس " من اختلاف الفرق والفرقات : بين قابل للبرهان والنور ، ومكابر جاحد ، ويكون معادل هذا الشق محذوفاً للتهويل أي : وأما الذين كفروا فلا تسل عنهم) (٢) .

وبعد هذه الجولة مع أداة النداء الواردة في سورة النساء يحق لنا أن نؤكد على ما قاله الدكتور بكري شيخ أمين : (أن ظلال معنى الجملة وإحياءاته تضيء على الأداة شفافية مستمدة من هذا المعنى ، فتتلون الأداة فتوحياً) (٣) بأنها لكذا أو كذا ، والله أعلم وأحكم .

١ - الأيتان (١٧٤ ، ١٧٥) .

٢ - انظر (التحرير والتنوير) ، ج ٦ ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

٣ - انظر (البلاغة العربية في ثوبها الجديد) ، ج ١ ، ص ١١٧ .